اساتذتي

ومقالات اخرى

د. علي جواد الطاهر

دار الشؤون الثقافية العامة



١٩٨٧



نشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»

تعنون جَميع المراسلات
لرئيس مجلس ادارة دار الشؤون الثقافية العَامة

العنوان
العراق ـ بغداد اعظمية
ص. ب. ٤٠٣٢ ـ تلكس ٢١٤١٣ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

علي جواد الطاهر



الطبعة الاولى ١٩٨٧

المقدمة

(١)

صلة المؤلف بصفحة «آفاق» من جريدة «الجمهورية» وثيقة . وعلى هذه الصفحة تجمعت له مادة الاساس من كتاب عزيز عليه صدر بعنوان «وراء الأفق الأدبي» ... ثم انقطع . ثم عاد . وكان الدافع المباشر للعودة الأخيرة مرور عشرة أعوام على وفاة استاذه الكبير الدكتور محمد مهدي البصير ؛ وما كان معقولاً أو كريما أن تمر المناسبة دون «كلمة» مناسبة ، فكانت ، وكان لها صداها الحسن تلتها مقالة «استاذي طه الراوي» وقد تعدى صداها الحسن مدى التوقع .. ثم مقالة «استاذي المهنا» وقد لقيت من الترحيب والإعجاب والثناء الكثير الكثير وأحدثت من الصدى البعيد البعيد . والتقى الصدى مع دعوة أصدقاء كرام على الاستمرار في الكتابة ، والتقت الدعوة مع مايرتاح اليه كاتب إذ يسمع مايسره على ألسنة كريمة بمواد يحسها في نفسه حينا ، ويطلبها لنفسه حينا آخر ، ويحسها ولايستطيع تحديدها كما يحددها له القراء حينا آخر .

واستمر

واتفق خلال ذلك دعوة للإسهام بالكتابة الى هذه المجلة أو هذه

الجريدة بهذا الموضوع أو ذاك . ولايقتصر القلم حين يجري على اللحظة الآنية فقط . وإنما هو ينطلق وفي ذهنه المستقبل كذلك وقرار جمع المنشور (وغير المنشور) الى بعضه في كتاب حاصل قائم منذ السنوات الاولى لبدء نشره المقالات المتوالية فتم له من ذلك فيما تم كتاب «مقالات» (١٩٦٣) .

واستمر .

واتصل بباب الاساتذة ماجاء عن محمد غنيمي هلال ومحمد صقر خفاجة .. وطه حسين ... ومناسبة مرور نصف قرن على رحيل مبدع «تاريخ النقد الادبي عند العرب» : طه أحمد ابراهيم .

وتكريم الاحياء من اساتذة الاجيال واجب آخر ، لايفوت من يدرك أبعاده ، ويترصده من يعرف مداه . وها هي ذي الفرصة تتهيأ للكاتب فيؤدي واجب التكريم نحو الشيخ حمد الجاسر لمناسبة بلوغ مجلته «العرب» عامها العشرين .

وهكذا كان قوام الوجه الاول من هذا الكتاب العتيد : أساتذة و أدباء ، ونوعه الأدبي «المقالة» التي تطمح الى أن تكون مبدعة جميلة ، أدى بها الكاتب واجبا انطلق منه طبيعة وطواعية ، ورأى القراء أن يسموه وفاء ، فليكن ، وشكراً على حسن الظن .

وصار طبيعياً ـ على هذا ـ أن يضم الى هذا الباب من الكتاب ماهو من جوهره ، مما لم ينشر في صفحة «آفاق» . وهكذا تصدرته كلمة «استاذي مصطفى جواد» لانها الاسبق زمنا في تمجيد الاساتذة المباشرين ، تلحقها كلمة قيلت في أربعينية الدكتور البصير ويبقى المجال طبيعياً لكلمة «نبأ» في الدكتور طه حسين من الاساتذة غير المباشرين للكاتب ولأمة من الناس .

(٢)

وكانت «المقالة» التي تطمح الى ان تكون مبدعة جميلة طابعا لمقالات

أخرى ، كثيرة ، لقيت في جملتها لدى القراء الاهتمام والتقدير في حدود ما وصل الى سمع كاتبها عن اصحاب ذوق وأهل إخلاص ، فسره ذلك وشجعه على الاستمرار ، ودله - مرة أخرى - على أن للمقالة قراءها وأنها نوع يبقى .

هذه المقالات الأخرى هي مادة الوجه الثاني من هذا الكتاب ، ويكاد يكون الباعث الاول على كتابتها واحداً ، هو الضيق بأمر والانفعال بحال والتأذي بظاهرة ... فاذ بالباعث يتمكن من النفس ويتخمر فيها ، وينبثق «كلمة» فيها التألم ، وتذكر النقيض بنقيضه ، وفيها الإلماح الى مايجب أن يكون من حسن رداً على قبيح كائن ، وفيها الفرصة للاعلان عن حرص المقالات على أن نكون متحضرين وعلى أن نبني . وهنا يجد الذين يشترطون السخرية للمقالة حجتهم بعد ان فقدوها في الباب الاول او كادوا . وفرق بين ثمرة للوفاء ونتيجة للامتعاض .

وقد رتب القسم الاكبر من هذه المقالات أي مانشر في صفحة آفاق من جريدة الجمهورية - ترتيبا زمنيا على ماورد لدى النشر . تليه مقالات وكلمات نشرت في اماكن أخرى ...

ولايريد المؤلف أن يودع القارىء دون أن يعود به الى لصلةهذا الكتاب الذي بين يديه بكتاب عزيز عليه أثير لديه عزيز لدى قرّائه أثير لديهم هو - وقد عرفتموه - «وراء الأفق الأدبي» من باب التيمن وعلى وجه التفاؤل . بل ان قدراً صالحا من هذا او ذاك قد حصل «نقداً» فيما وصل الى سمعه من ثناء على هذه المقالة واطراء لذلك الموقف . ولواراد الى الصراحة لقال إن إعجاب القارىء بالشكل الذي يصل اليه عليه المضمون يفوق لديه اعجابه بالمضمون وحده ففي تكوينه مكان للشعر لايعدله الاّ الشعر . وكان هذا الاعجاب في الصميم من عوامل الاستمرار أو عوامل اتساع فن المقالة وتوطده .

وها هو ذا يجمع هذه المقالات ـ وقد وضح جانب الأداء في أكثرها ـ لذلك القارىء عساه أن يجد فيها اليوم وهي كتاب جميع ما وجده فيها أمس وهي مقالات متناثرة متباعدة ، وعساه أن يجد ما هو أكثر ويرى خطوة متقدمة بعد خطوة «وراء الأفق الأدبي» التي كانت خطوة متقدمة بعد «مقالات» ...

ولايكتب المؤلف إلّا والقارىء نصب عينه ومحط نظره قاصداً الى أن يمتعه بقدر ما يفيده . وقد تتهيأ الفائدة هنا وهناك ، ولكن الصعب في المعادلة هو امتزاج العنصرين . والتفكير بالقارىء الذواقة من شرائط هذا الامتزاج .

ولاأدري كيف يصدق المرء دعوات تقول ان الكاتب يكتب لنفسه ، ودعوات يستهين فيها الكاتب بالقارىء ، لا ، وهذا غير معقول . والقارىء طرف أساس في أي عملية إبداعية .

بغداد ـ الجادرية
٩٢٣/ق١٥/٢٥

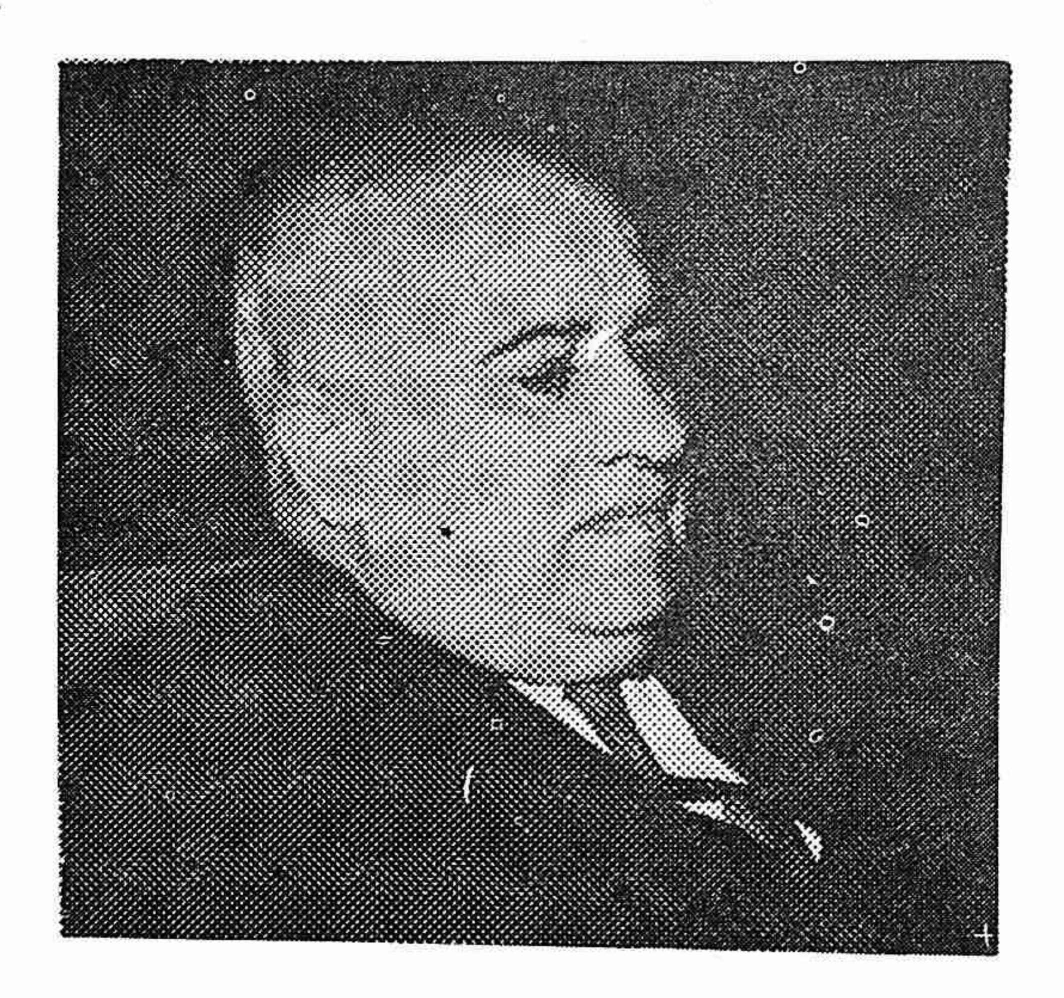
١٩٨٦/١/٢٩



استاذي مصطفى جواد
الحزن ... والندم









مات مصطفى جواد !

وذاع النعي ، فتلقاه الناس بأسى ، مع انهم ، كلهم ، ينتظرون وقوعه بين لحظة واخرى . فقد كان الامر في حكم المنتهي ، ولم تبق منه الا ساعة الصفر .. فالرجل مريض منذ مدة طويلة ، والناس يرون نتائج الداء تقترب وتقترب ، وانتهوا الى ان ما يوعدون لواقع ، واقع ، فها هو ذا الرجل ازاءهم يضعف ويضوي ، يروح الى الاطباء ويغدو ، ويروح الاطباء اليه ويغدون ـ من غير ما يدل على ثمرة ، ومن دون ما يشير الى أمل .

اما هذا الذي يرونه من ابتسام على وجهه ، ويسمعونه من ارقام وايام واعلام على لسانه ، ويقرءونه من تصحيح لعوج العلماء بقلمه ، ويقتنونه مما تخرجه المطبعة من تأليفه ... فكل اولئك مسألة احتضار ليس غير ، ورعشة الشمس تدلف للغروب .

وكان ذلك يحز في النفوس . آه . لو شفى ! اترىٰ احساسه بالاجل يحثه الى رص الساعات ، وكسب الوقت قبل الفوات . آه ! لوشفى ، لنشر المطوي ، واخرج المخزون ، واعلن المكنون . لو شفى ! وما تنفع الاه ، ياسيداتي وياسادتي . انكم لو لم تروا القدر على الباب لما ندت هذه الاهات ، ولما اطت تلكم الحسرات ...

ها ... ها ... «ان الذي تحذرين قد وقعا» . فلم الجزع ؟ ولم الهلع ؟ وليس الامر ـ كما تعلمون كلكم ـ مفاجئا ؟ لم ؟! السؤال غريب عجيب . كأن القضية قضية المفاجأة ، ومنطق ارسطو ، وهندسة اقليدس .

لا .. لا ... ايها السيد السائل ، انها اكبر من ذلك ، واعمق .. واسمى ، انها قضية النفس الانسانية ، قضية العواطف الكريمة ، قضية الحب ... والاعتراف .. والوفاء .

ثم ، لتكن منطقية . ولم لا ؟ فأجبني ـ عافاك الله ـ من سيسد مكان الفقيد ؟ لو كان ، لكان عزاء . ومن سيقرب البعيد ، من بعيد ، ويعيد الماضي ، من الماضى ، ومن «قل ..» ومن «لاتقل ..»؟ فاذا لم تجب ، حق الاسف ، وحق سبب ـ بعد الف سبب ـ للاسى .

اجل ، لتكن منطقية ، ولم لا ؟ فأجبني ـ حفظك الله ـ وانت تعلم ان مصطفى جواد كنز ـ هل استثمرناه ؟ لا . ولو كان كنزا في الارض ، كان الامل بأجيال اتية ان تستثمره ، فترد بذلك الفائت ، وتعوض الخسارة . اما مصطفى جواد فليس كنزا بهذا المعنى المادي ، وبهذا المفهوم الضيق . انه كنز ضاع دون ان يستثمر ، وتبدد قبل ان يستنفد .

لقد ذهب الرجل وذهب الكنز معه . ولا يمكن في هذه الحال رد الفائت وتعويض الخسار .

اليس كذلك ؟ فاذا لم تجب ، حق الاسف ، وحق سبب ـ بعد الف سبب ـ للاسى .

وزدت على الحزن الندم .

الحزن بعوامله المنطقية واللامنطقية ، والندم على اننا لم نعرف للرجل قدره ، حق قدره ، ولم ننتهز فرصة وجوده بيننا ـ حتى بمعنى

الانتهاز الشائع ، ولم ندرك جوهر فضله علينا ـ حتى مدلول الادراك الاناني .

وليس المقصود بهذا اننا لم نقطع عنه الراتب في حياته ، واننا لم ننسَ ذكره ، واننا لم نفتح امامه باب الاذاعة ، والتلفزيون .. والجامعة .. والمجمع .. فليس لنا في ذلك اي فضل ، واننا لو استطعنا ان نسد ، لسددنا .. ونرد ، رددنا .. ونصد ، صددنا .. ومن سعى في منع الكثير فقد سعى في منع القليل .. بل ان هذا القليل الذي فتحناه من الباب ، فتحه هو على الرغم مما في الدرب من اشواك .. والتواءات .. وانانيات ...

ومع هذا ، فليست المسألة هنا . وانما هي في ان الكنز الفقيد ، لا ، ولا يمكن العثور عليه ، ولا ، ولا تمكن اعادته . انه ليس بئر نفط ، وليس منجم ذهب .. .

لقد خلف مصطفى جواد الكثير الغزير ، في الصحف والمجلات والكتب .. وهنا .. وهناك .. وهنالك .. وفي هذا فوائد جمة جمة تهدي الباحث العلمي ، وتنير التاريخ الحضاري ، وتوطد الشأن اللغوي .. وتهيىء للناس ما لا يتهيأ في الف كتاب وكتاب بين موجود ومفقود ، ومقروء ومعمى ، وتقدم لك في ساعات ما لاتستطيع ان تقدمه ازمان في اجيال واجيال في أزمان .

اجل ، ليست المسألة مسألة ان مصطفى جواد لم يخلف ، لان هذا الذي خلفه فينا من كتاب ، معروف ، مشهور ، محفوظ بعضه ، ويمكن أن يحفظ بعضه اذ انبرى الطالبون الى جمعه مجددا ، وطبعه متسقا .

اجل ، لان القضية ليست قضية الرجل الذي مات ، وانما هي قضيتنا ، نحن الذين سنموت . انها ليست فيما خلف ، وانما هي فيما لم يخلف .

ولنبدأ بالبدء ، ونقول :

مات مصطفى جواد فكان لنا عليه من الحزن ما كان .. وامتد خيط من الندم خلال الدموع ، وازداد مدا .. وعدا ، واشتد ضغط من الوخز على الضلوع ، واتسع شدا .. وحدا .

اجل .. فلقد مضى الرجل دون ان نهيىء له المجال الذي يحقق به رسالته كاملة في اللغة .. والتاريخ .. والتراث ، ودون ان نضعه في الموضع الطبيعي له .. ولنا .

لقد شغلنا ، وقل : شغل نفسه في هذا الذي كتب واذاع ، وهو على جلاله ، ليس شيئاً يذكر الى جوار ما لم يشغل نفسه به ، او ما لم نشغله ، نحن ، به .

لقد اذاع القليل حين سدت الابواب بوجه الكثير ، وان هذا الذي استطاع ان يحققه ، لم يصل اليه الا بما أمكنه ان يحدث في الابواب المؤصدة من شقوق وفي الاقفال المحكمة من - رضوض - ، وبالقدر الذي يدل به الاسد السجين على اسديته من خلال القضبان ، ومن وراء الجدران .. ولدى الابواب الخلفية .

الم تروا ذلك - مثلا - في الخمسين ورقة التي تصبح خمس مئة صفحة ؟ والتكملة التي تصبح اهم من - التكملة - والاكمال ؟!

لقد اخرجت المطابع في البلاد العربية الكثير على انه تحقيق للتراث الخالد ، وما هو كذلك ، لما اعتوره من نقص ، واكتنفه من قصور ، وخالطه من اضطراب .. ولك ان تسرد جريدة طويلة بأمات المصادر في الادب والتاريخ والتراجم ... وكل شيء منذ الاغاني الى كامل ابن الاثير .. ومنذ اليتيمة الى وفيات ابن خلكان ومن والى ، وعن وعلى .

وما كان ذلك النقص - ليتم - لو جرى التحقيق باشراف مصطفى جواد .. العالم .. العلامة بكل ما يقتضي التحقيق من شمول مع خصوص ، ولغة مع تاريخ ، وخط واعجام .. ومؤتلف ومختلف .. وكل

شيء في كل شيء .

ولكن الامور جرت في بغداد والقاهرة ودمشق ، وغيرها وغيرها .. كأن لم يكن مصطفى جواد ، وكأن لم يوجد من يجب ان توكل اليه الامور ، وتسلم اليه المقاليد - على ابسط القواعد والبديهيات : اعط القوس باريها .

ان كثيرا من مخطوطاتنا التي طبعت لم تطبع ، وربما زادها الطبع خطأ على خطأ - او ما جاءك نبأ ما كتبه مصطفى جواد عن - فوات الوفيات - مثلا . لقد كتب على غير الفوات .. امثاله .. فأدهش ، واعجز . اما الذي بقي من التراث مخطوطا ، فهو غير قليل ، وقد بقي كذلك لانه صعب ، عسير ، خارج متناول الايدي . او ما سمعت بتاريخ ابن **الدبيثي** - مثلا . انه مما لايمكن ان يحققه غير مصطفى جواد . وقد شاء ، فزرع في طريقه القتاد ، وود ، فحيل بينه وبين الماء ، وجد ، فمنع الورق والورق .

لو كنا - ايتها السيدات وايها السادة - حريصين على «المواهب» جادين في بعث التراث ، امينين على تاريخنا ولغتنا .. مخلصين لانفسنا ولابنائنا ، لكان امرنا مع مصطفى جواد غير الذي كان .

ومن هنا امتزج الحزن بالندم .

مات مصطفى جواد فنظرنا الى ماخلف فينا من فضل .. فحزنا .

وان قال ابو الطيب :

فما يديم سرور ما سررت به ... ولايرد عليك الفائت الحزن

فقد قال هذا ليخدع نفسه ، ويغلب المه ، ويخفف مصابه - وما استطاع . ونظرنا الى ما لم يخلف فينا .. فندمنا .

وقد قال ابو الطيب :

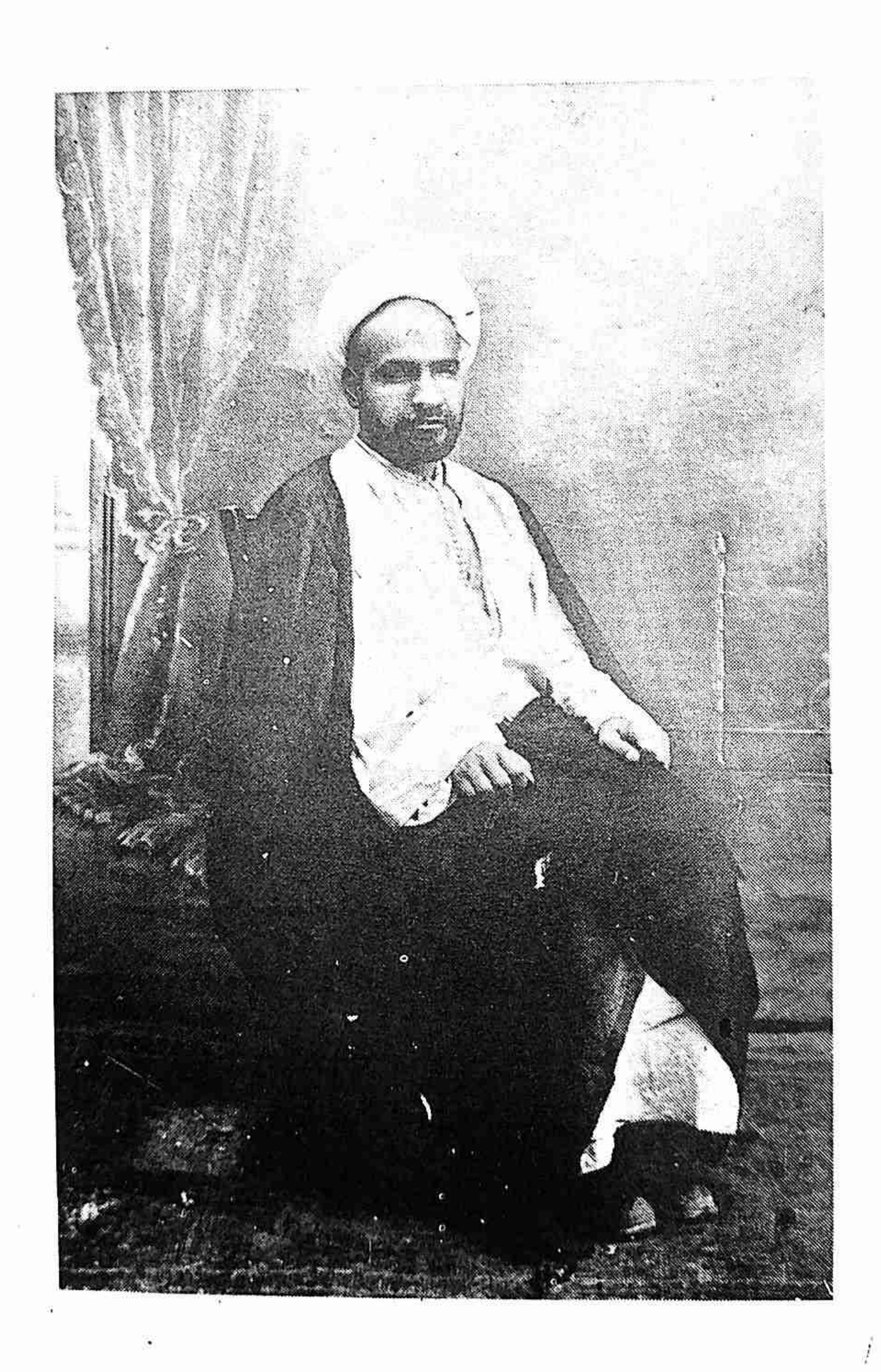
لئن تركن ضميرا عن ميامننا ... ليحدثن لمن ودعتهم ندم

فقد قال ذلك ليعرب عن كل حال مشابهة ، قبله ، وبعده ـ فما اتعظنا
ويكفينا خسارا ، اننا لم نأخذ .
وحسبه منارا ، انه اعطى .
وسلام عليك عطر .. غضر .. نضر ..
والسلام عليك
والسلام عليكم .

* القيت صباح يوم الجمعة ١٩٧٠/٢/٦ في الحفل التابيني الذي اقامه قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة بغداد لمناسبة مرور أربعين يوما على وفاة الاستاذ الكبير - نشرت في جريدة النور بتاريخ ١٩٧٠/٢/١٥

استاذي البصير
ومضات منسجمة







نحن في الحلة واسطورة اسمها الشيخ مهدي تدور .

هو اعمى ، والمسألة معروفة ، كما يعرف اهل أثينة عن هوميروس .

إذا سمع الشيخ مهدي القصيدة مرة حفظها خيراً من صاحبها ، وإذا حفظ قصيدة معروفة زاد عليها من وزنها وقافيتها ، وإذا صعد المنبر يقرأ المقدمة ، شرع في قصيدة يعرفها الحاضرون ، ويعرفون ناظمها ومناسبتها ثم تلفت يمنة ويسرة ، وسأل : هل جاء الشيخ ؟ - يريد والده - فاذا اجيب بالنفي استغل الفرصة وقرأ شعراً لم يسمعه الحاضرون من قبل ، لأنه ، هو الذي نظمه ، وزاده على وزن القصيدة وقافيتها . وهو الذي خرج بالقصيدة من الحزن والنحيب الى التفاؤل والثورة ؛ يرعد ويزبد ، والقوم في عجب عجاب ، وليكن بينهم الساخط أو الخائف ، وإلا لما كان اسمه الشيخ مهدي .

لقد أخذ الفتى نصيبه من علوم زمانه ، وأقبل على الأدب ، بوجه خاص ، وحفظ الشعر وزاوله منذ الرابعة عشرة .. واستمر يقرأ - أي يقرأ له - ولايميزه هذا بشيء ، لأنه فيه واحد من مئات وألوف تزخر بهم بلدته ، والبلدة المجاورة لها . ولايريد لنفسه ذلك ، ولاتريده له نفسه ؛ إن شيئاً فيه أقوى من البيئة الراكدة . إن تمرداً في جلده ، وثورة في

قلبه ، وضجة في ضميره . ولا يمكن لمن كان كذلك ، أن يقر على حياة كالموت ، وخصب كالجدب ؛ فليبحث - إذن - عن السبل والسبل وعرة ولكنها قائمة تجتذب اليها النابهين .

وليطلع على ما يجري في العالم ، والاطلاع عسير ، ولكنه ممكن لمن جد في السعي اليه . هناك كتب ومجلات ترد من لبنان ومصر ، وهناك «المقتطف» المجلة التي تدخل الثورة الى النفوس المستعدة لها ، تدخلها دهشة أولاً ، واطمئناناً ثانياً .

فليلتق - إذن - سراً بمن تصل اليهم المقتطف وغير المقتطف ، وليستمع ، وليتأمل وليحكم .

أما فساد الحكم العثماني ، فلا يستدعي كتابا أو جريدة ، وأما فساد الحكم الانكليزي فلا يقتضي دليلاً أو نقاشاً .

ويلتقي الى لداته في الفكرة ، وتستحيل الفكرة عقيدة ، وتستحيل العقيدة شعراً ؛ وتتصل اليه أخبار الوطنيين في بغداد ، فيرضى حيناً ، ويسخط حيناً .

من رضاه ، أنه أسس في الحلة فرعاً لحرس الاستقلال ، ومن سخطه أنه رآهم يقفون من القضية موقف الضعيف ، فود لو كان قريباً منهم ، لغيّر - إذن - من حالهم ، وأقنعهم بأن الحق يؤخذ من الانكليز في العراق وليس في فرساي ، بالقوة لا بالشكوى ، وللحرب معنى وللسلم معنى .

ود ذلك ، ولكن أين من أين ؟ إن بغداد القريبة بعيدة على من كان في ظروفه ، إنها تقتضي مجازفة ، والمجازفة في دمه ، والدم ينتظر الشرارة ، وها هي ذي الشرارة تقترب :

كانت الحلة في أوج ربيعها ، ومضى الشيخ الى الشاطىء ، يستمتع بنسيم وطنه وسار قليلاً .. وإذا بجندي من جيش الاحتلال يزعق :

- ابعد ، ارجع ، ممنوع .

وقال الفتى الشيخ في نفسه :
- ممنوع ؟ عجيب ! أفي بلادي ويمنعني الاجنبي ؟ أيمنع الوطني الماء والهواء ؟ لا قرار على هوان بعد اليوم . ولمّ امتعته الخفيفة ، ولحق بغداد .

تصدر في الطليعة الوطنية ، يخرج الاجتماعات الدينية الى اجتماعات ثورية ويفجر «البركان» شعراً وخطباً ، وتنظيما وتدبيراً ، كان ، وكأنه لابد منه للثورة .

وأدرك الانكليز خطره ، وعملوا جاهدين على ردعه ، فبعث الحاكم العسكري يطلبه :

- من أين أنت :
- من الحلة .
- لم جئت الى بغداد ؟
- مريض .. أتداوى .
- أما كان يمكن أن تتداوىٰ في الحلة ؟
- لا

ويعود يؤجج ويوجه . يظهر ويختفي ، يسجن ويطلق ،.. خلال الثورة وبعدها ... أجل وبعدها .

يكمل ما يكمل من السجن ، ويعود يشارك في تأسيس الحزب الوطني ويتقدم اعضاءه المنفيين الى هنجام ... وإذ سمحت السلطات المحتلة للمنفيين بالعودة الى بغداد فرضت على الشيخ مهدي وحده الاقامة في البصرة تحت مراقبة الشرطة .

ثم سمح له بالعودة الى بغداد ، بعد أن قررت سلطة الاحتلال وضعاً جديداً يصعب أن يؤثر فيه الشيخ كما كان .

فماذا يفعل ؟ وبم يتعلل ؟
-.«تاريخ القضية العراقية» قبل أن يضيع .

التدريس في جامعة آل البيت بما يوفر رزقاً حلالاً .

الوصول بالشك الى اثبات الصحيح من الشعر الجاهلي ، غيرةً على الحقيقة . مع مكانة وطنية مرموقة .

وصلةٍ غير منقطعة بالقليل الذي بقي من الوطنيين ، ومحاولة غير مجدية للعودة بالحزب الوطني . وفكرة تمكنت من نفسه للدراسة العالية في فرنسا ـ على مافي الفكرة من مخاطرة المجازفة ، ولما في الفكرة من مخاطر المجازفة ؛ إنه اذا اقتنع صمم ، وإذا صمم نفذ ، وليكن ما يكون وأين المفر ؟!

تلقاه في باريس ماسينيون ، وتعقبه من بغداد الكائدون ، ولكنه وطّن النفس ، منذ البدء ، على أسوأ الأحوال . يمضي في الخارج سبع سنوات ، ويعود ، ومعه دكتوراه ورفيقة كفاح .

يتولى التدريس بدار المعلمين العالية ، بعد صعوبات ، وخلال صعوبات . فيكون ـ ودعك من قيل وقال ـ أستاذاً ، مدرسة ، في المنهج ، وفي وصل العلم بالخلق ، ورعاية المواهب ، واعتماد الذكاء والرأي والذوق قبل الجمع والحشد والحواشي ... والشدة الى ماتبدو معه ضعفاً وغفلة ، دون أن يكونهما ، لأنه من الأبوة . وكم عالج عقوقاً بسماح ، وأحسن الى من أساء .

أجل •

فالشدة ليست ، لديه ، نقيضة اللين ـ وهو المرء لايتناقض ، ولا يقول مالا يفعل ، ولا يلزم الآخرين بما لا يلزم نفسه .

إنه البصير البصير من أي النواحي أتيته .

ومن هنا سهولته وصعوبته .

سهولته لمن يعرفه ، وصعوبته على من يجهله .

أجل ياصاحبي .

إن الطالب منا يقترب من السنة الثانية ، فيملأ البصير عالمه : يحبه

ويخافه ، يعد له العدة ويحسب الحساب ، وينظر مخلصاً فيما له من مؤهلات ، لأنه مقبل على أستاذ جاد ، يمخض طلبته ، وينفذ الى قرارهم فمن كان منهم على حظ من ذكاء وثقافة وكياسة اطمأنَّ . وانتظر الفرصة السعيدة ؛ أما إذا كان ذا نصيب من موهبة الشاعر ، فهو السعيد السعيد .

إنه شرف أن تكون تلميذاً للدكتور البصير .

فليس سهلاً أن يكون الأستاذ شخصية ، له مكان باذخ في المجتمع وليس سهلاً أن يتهيأ أستاذ يعد التعليم أشرف مهنة ، ويؤمن بالأدب إيماناً مطلقاً ، وليس سهلاً أن تشع الوطنية من أستاذ في حركاته وسكناته قاصداً وغير قاصد . إنَّ لشخصية استاذنا صفات تتوحد وإن تعددت فهي تنسجم مع بعضها انسجاماً تاماً تكون به كلاًّ لايتجزأ .

وإن شئت الاختصار ، وفي حدود ما هو غريب في مجتمعنا خصصت من تلك الصفات الاستعداد للتضحية بما يحط من الشأن ويمس بالكرامة .

إن له من كنوز الزهد ، ما يعصمه من الخضوع لسلطان الجشع ، ولديه من رصيد العزة ما يحفظ نظافة حاضره موصولة بنظافة ماضيه ، والرجل المنطقي لايفسد الدائم بالعابر ، والاجتماعي بالفردي ، والمعنى بالدينار .

وعلى قدر ما يضحي الانسان من مطامع الدنيا يكسب .

والبرهان ساطع .

أجل ياصاحبي .

وليس قليلاً أن يراجع امرؤ تاريخه الطويل ، فيراه ناصعاً ويقلب صفحات ضميره فيراها نقية .

ولاتزعجه ـ بعد ذلك ـ النهاية التي هي آخر حياة الأجساد ... والمنطقي يظل منطقيا حتى في الساعات الأخيرة من عمره ، وهكذا

كان .. ففي الساعة الثالثة من فجر ذات يوم ، استيقظ ، ثم نام ، ولم يستيقظ .

لقد انتهى .

ولم ينته .

فالكبير يولد عندما يموت .

وإذا قيل انتهى ... قيل ابتدا .

والبرهان ساطع(*) .

* القيت في الحفل الاربعيني الذي اقامه تلامذة الاستاذ الكبير من أساتذة كلية الاداب بجامعة بغداد .

نشرت في مجلة «كلية الآداب» ـ «إصدار خاص باربعينية فقيد الوطنية والادب» ـ العدد الثامن عشر ، بغداد ، مطبعة المعارف ١٩٧٥ . وفي مجلة «الرابطة» النجفية في سنتها الثانية ، العدد الاول ، آذار ١٩٧٥ .

استاذي البصير في ذكراه العاشرة







نعم . انه استاذي ، وكان لي شرف التلمذة عليه ، وصار لي شرف كونه لي استاذا ، وليس كل من جلس على كرسي التدريس كان - او صار - استاذا . الاستاذ علم وأدب وسلوك وشخصية ، وحظ البصير من كل اولئك وافر ، ووافر جدا ، ويكفي من شخصية قوتها على الزمن والظروف ، وذيوعها ، وسلطانها . كنا نهابه خلالها ونحترمه ونخافه ، وخوفنا من غضبه لأن غضبه دليل صارخ على خطئنا . ونهابه اجلالا وتقديرا واستعظاما . وما كل يوم يرزق البلد ببصير . ووراء هذا الاستاذ تاريخ حافل بالأمجاد من كل نوع . معطر بالنضال والنزاهة والعفة والجد والثمر . قلت استاذي على المفرد والتفرد ، وهو استاذنا على الجمع واشتراك مئات في الاعجاب والتقدير ، ومنهم من يزيد ويغالي ، ومئات وألوف يؤلفون أجيالا متعاقبة حملوا الرسالة وأدوا خدمة العربية بحس وطني مدرسين واستاذة مدرسين واساتذة .. وفيهم من لم يكن راضيا ذات يوم ، فراجع نفسه فرضي ، ومن كان ساخطا لسبب غير أصيل ، ولم يجد سببا وجيها لسخطه ، فرجع عنه ، وفيهم من لم تعجبه محاضراته ، لغرض في نفسه ، حتى اذا فارق مقاعد الدرس وابتعد عن الدرجات والرسوب والنجاح ، نظر اليها من الزاوية التي يجب ان ينظر منها ، فأعجب ، ووجد فيها من عناصر الجدة والأصالة والرأي وحسن الذوق ودقة التعبير ... ما كانت حاجته الآنية تغطي على بصره دونه .

وهاهي ذي كتبه : بعث الشعر الجاهلي ، عصر القرآن ، في الادب العباسي ، الموشح ، نهضة العراق الادبية .. بعيدة عن اللغو ، مترفعة عن التكرار ، قائمة على التأمل والأناة والنضج وعناصر الجدة والاصالة والرأي وحسن الذوق ودقة التعبير .

تقول هذه هي كتبه بعد ان حصل على الدكتوراه بالأدب الفرنسي . واقول ان كتابه مذ كان شيخا في «تاريخ القضية العراقية» يحتوي على جذور تفكيره ويدل على نواة الباحث المنهجي المخلص الأمين . وعجيب ان يكون مثله باحثا في قضية خاضها خوض وجود ويبقى مع ذلك موضوعيا في درسه ، عادلا في حكمه ، صادقا في روايته ، متثبتا في أخباره يقول ما للقضية وما عليها ، ما للآخرين وما عليهم ..

هو مؤرخ ثورة العشرين ، وشاعرها وخطيبها والعامل فيها سرا وجهرا ، ولا ، ولن يجرؤ احد على نكران دوره .

وليست المسألة مسألة جرأة .. فلم ..؟ والشمس طالعة والبدر منير والشهادة يؤديها الحاضر والبادي ، والسابق واللاحق ، والعدو والصديق ، وجامع الحيدر خانة والسجن وجزيرة هنجام .. و «البركان» ..

أما ما نشره ـ مبكراً ـ وهو شيخ ، ولدن محاضراته في جامعة آل البيت فيجلو نواة فكره الأدبي ، وهي نواة مخصبة ، ويكفي ان يكون من تلك النواة الأناة المخلصة في محاسبة «في الشعر الجاهلي لطه حسين» .. ومابشر به وسعى نحوه في الاصلاح الاجتماعي والخدمة العامة والتحرر الفكري ..

ونعود الى التلمذة ..

والى الذين كانوا يضيقون احيانا ـ أو احيانا كثيرة ـ بطريقته في الدرس وهو يملي (قبل ان تكون له كتب مطبوعة) ويطالب بقراءة ماأملاه ودراسته وحفظ الشواهد والاحكام وفهمها جيدا ... ثم يأتي دور

السؤال والجواب .

يضيقون لأسباب شتى ، وأهم الأسباب : الضيق للضيق ، بمعنى ماتحده الطريقة من سبلهم الى التفلت من الدقة والفهم والتذوق .. والنجاح السهل .

ولو غيّر البصير طريقته لضاقوا مجددا بالطريقة الجديدة ، وهذا ما حدث فعلا ذات يوم . والمسألة ليست في الطريقة بقدر ما هي فيهم اي في عجزهم ، بل في نفاذ البصير الى اعماق قدرة الطالب من خلال السؤال والجواب والاملاء والاستملاء والحفظ والتعليق والسؤال والجواب . لقد فات على كثيرين أن البصير لايمنح الدرجة على مقدار حفظ الطالب (درخا) وانما على مقدار ما نفذ اليه من شخصيته كلا في الشفهي او التحريري ، وعلى مقدار اطمئنان ـ عادلا ـ الى أفق هذا الطالب واستعداده لأن يصير مدرسا ، والى تمكنه من اللغة نحوا وصرفا ، قراءة وكتابة ، علما وذوقا ، والا ، اما نظروا الى هذه الدفاتر التي تعاد اليهم ـ بعد الامتحان ـ وتكاد تكون أجوبة عدد منها واحدة ولكن الدرجات فيها تتراوح بين الصفر والمئة ؟ وقد ينال المئة او مايقرب منها دفتر هو دون دفاتر «الدرخ» بمراحل ومنازل !! لو كان «الدرخ» اساسا في طريقة البصير لتفوق «الدراخون» ونزل النابهون الى ما تحت الصفر .

أما تشجيعه الابداع ، ممثلا بالطلبة الشعراء ، فما كان ـ او يكون ـ له نظير في العالم كله . وتفخر دار المعلمين العالية بشعرائها ، ولها ذلك ، ولا تكوّن دار من الدور الشعراء تكونيا ، ولكن ، لن يفوت الباحث ، اذا تأمل الظاهرة ودرسها موضوعيا من جوانبها المختلفة ، لن يفوته ان يرى البصير ماثلا في الاسباب والنتائج . ويستحيل على غير البصير ان يكون ـ في ذلك ـ كالبصير .

ونعود الى التلاميذ ..

والى الساخطين ، أي الذين كانوا ساخطين ، لنراهم يطالبون بطريقة اخرى يسمونها جامعية على الصورة التي يتصورونها ولا وجود لها او لاطاقة لهم بها ثم بالصورة التي تهبط الى الحد الأدنى من المعرفة والحفظ والذوق .. والشخصية ! كانوا يضيقون بحفظ النصوص ، وكان الاستاذ يصر على النصوص ، واي أدب هذا وأي درس ذاك الذي يفارق النص . وما قيمة تاريخ الأدب اذا لم يكن فيه ادب ؟ وما قيمة حياة الشاعر اذا لم يكن شعر الشاعر عمودها ! !

أجل ، وقد مضى البصير ، وكان آخر من حفظ تراث تلك الطريقة ، وبقينا بعده نضيع ساعات وساعات بالحديث عن المصادر وأثر البيئة ونشأة الشاعر ، والكاتب دون أن نتلو شعرا ودون أن نقرأ نثرا . وهذه طريقة خائبة حسبناها تجديدا واخفينا جانب البلادة منها وجانب السهولة على الاستاذ والطالب فيها ، وجانب التكرار لما قاله الآخرون نصا مرة ، وسرقة مرة ، وتشويها مرة .. و «سفسطة» مرات !

صخب قسم اللغة العربية ـ بأساتذته ـ ذات يوم ، على البصير ، ودبر وقدر ، وأسرج وألجم بحيث كدت أقع انا في الفخ ، او وقعت . وسأل البصير ماذا يريد القسم ؟ فأجاب القسم انه ايزيد من البصير ان يغير طريقته . ماذا يريد ؟ يريد ان يبدأ البصير السنة بدراسة الحياة السياسة والادارية والاجتماعية والثقافية للعصر الذي يدرسه ، جاهليا كان أم اسلاميا .. فاجتمع بهم البصير ـ وقد دعاهم الى عشاء في داره ـ وتناقش واياهم طويلا **واستمهلهم** قليلا ، حتى اذا حان الموعد قال لهم : هذا الذي تطلبونه كائن في كتب كثيرة ، وذكر لهم جرجي زيدان وأحمد أمين ، ولو أراد لذكر آخرين ، وذكرهم بأن الطلبة يدرسون التاريخ العربي ـ الاسلامي الى جوار دراستهم الأدب ، في مواد خاصة من المنهج موزعة على سنواتهم ، واحسبه أشار الى ان هذا الذي يطلبونه يشغل الطلبة عن صميم المطلوب وهو النص الشعري

والنص النثري .

وعاد الرجل الى طريقته الصائبة ، ولم يكن قاصرا عن معرفة تاريخ العصر الذي يدرس أدبه بسبب من قراءاته السابقة واللاحقة ، وبدلالة تعليقاته لدى المرور بحدث او حالة او حياة ، والوقوف عند قصيدة او خطبة او رسالة .

الا ، لابد من عودة ـ اليوم ـ الى طريقة البصير ، بعد ان استشرى الجانب التاريخي وطغى على الأدب نفسه ، لابد من العودة الى التأمل الطويل في التأليف ، والى الدقة في الرأي والى ... حفظ المختار العالي فعلا من شعر العرب ونثرهم . ويبدو ان ذلك لايعود قريبا لصعوبة تنفيذه ولسهولة ما حل محله من نقاش طويل عريض في البيئة ! ولأنه يطلب منا ماكان للبصير من تاريخ طويل وذوق وقدرة على المخض وقوة في رفض الغثاء واللغو والتكرار .. وتقدير مستوى الطلبة وتحديد الحاجة الى الدرس .

ويبقى ، مع ذلك ، من لايرضى ، والمسألة طبيعية جدا ولاسيما وشخصية البصير قد بلغت من التماسك الدرجة التي لم تبلغها شخصية استاذ ، اقصد بالتماسك القوي لدرجة العنف احيانا .

وتذكر ، بعد ذلك ، فيما تذكر لاستاذك ، خلقا شخصيا منسجما تمام الانسجام مع عناصر القوة وعناصر الاعتزاز بالنفس وعناصر الشهادة له بالنزاهة ..

تريد ان تقول : كان كالوالد ، وهو كذلك ، وذلك لك لأنه الواقع المقترن بالفعل ، وتقول : كان يحنو ، ويرعى ، ويتفقد ، ويخف الى المساعدة والنجدة ، وذلك لك ، لأن قصصه في ذلك نادرة **المثال** وإن ظل كثير منها سرا بين الأب والأبن .

وتريد ان تقول انه كان زاهدا راضيا بالقليل الذي لديه مما يقيم الأود ويساعد على السكن ، وانه لأرفع مما كان ينزل اليه آخرون ،

كثيرون ، من دينار هنا ودينار هنالك ، وأرفع حتى ان يطالب بحقه ، اذا كان حقه هذا يتصل بالمال وكانت المطالبة تقتضي قليلا من التنازل .

تقول : ماصلة هذا بالاستاذية التي نحن فيها ؟ وأقول : له الصلة كلها ، وقد اتفقنا منذ البدء على ان الاستاذية علم وخلق . وكان موضوع الزهد في صميم ذهني من صميم الخلق . ولو كتب لك ان تكتب بحثا فيما عرف في جامعة بغداد بالمحاضرات ، وعقدت فصلا او فصلين على الاساتذة الذين يوقعون على ورقة الحضور مع الغياب ، وفي دفتر المحاضرات مع كونهم في اجازة مرضية او انتداب خارج العراق .. يوقعون ليقبضوا دون اقامة الدرس الذي يؤجرون عليه .. لو كتب لك شيء من ذلك لعرفت معنى آخر للزهد وصلته بالأخلاق والعملية التعليمية .. ثم تكتب الفصول الأخرى في جشع غير «مبرر» .. وخصومات لاتليق في أسبابها ومظاهرها ونتائجها بمهنة يراد لها ان تكون من أشرف المهن ! وبأساتذة يفترض فيهم ان يوطدوا الأساس لتكون العملية التعليمية بعدهم احسن ، يعلي فيها الأبناء ماشيده الآباء !

وفي هذا الصميم كذلك ، وحدة الشخصية ، أن يكون الاستاذ وحدة متماسكة لاتتجزأ ولاتتناقض ، هو هو في الصف والكلية كما هو فى البيت والسوق ، هو هو مع الطالب كما هو مع أهله ومواطنيه : الذي لايقبله لغيره لايقبله لنفسه ، الذي يطلبه لنفسه ومن نفسه يطلبه للآخرين ومن الآخرين فاذا رأيت البصير صعبا معك . متشددا لدرجة تحملك على لومه وتصل بك أحيانا الى ماوراء اللوم ، فاعلم انه صعب مع نفسه ، وربما كان مع نفسه وأقرب المقربين اليه اشد واصعب مما هو معك ان كنت قد وقعت يوما تحت طائلة صعوبته .

لقد كان صعبا في رضاه ، فلا يقتنع في يسر وبأي قول يصل اليه ومن اي شخص يعلق بركابه . انه يسمع ويتأمل ويقلب الأمر على وجوهه

فاذا اقتنع اقتنع وبلغ في ذلك حدا لايطاق ، وهو شأنه في السلب كما في الايجاب ، صعب في رضاه ، صعب في سخطه .

وهو يقدر ما هو صعب وما هو سهل ، ويعرف ما بين العقوبة والعفو ، ولكنه لايذهب الى هذا الطرف او هذا الطرف لعتباطا او سماعا ولنفاق يبديه عمرو ووشاية يسعى بها زيد . وربما جهل كثيرون هذه الصفة فيه ، حتى الطلبة الذين كانوا يفتعلون لأنفسهم عنده مجالا من القول .

انه من الشخصية بحيث لايظلم ، وهو منها بحيث يرى العدل عزا ، ومن ثم ، غليه ان يتحمل مايجره الطرفان ، وكثيراً ماجرّا ، وكثيرا ما تحمل . ولكنه من الثقة بسلامة الموقف بحيث يستمد سعادته من صلابته .

ألم أقل لك : ليس كل من جلس على كرسي التدريس صار استاذا . ثم ألم يكن من حقي ان اتشرف بالتلمذة على البصير . وأتشرف ان اذكره استاذا لي ـ من حقي ـ وحقك ان لم يكن لديك مانع ! ومن حق الأجيال ـ كذلك . ولن تعدم الامة انتفاعا بأشعة مجده ، ولن تعقم بذور للخير من حسن الأنبات وحسن الثمر .

وما من فضل لنا ان ذكرناه ، ولا أحسبه ـ في حدود معرفتي به ـ عاتبا على ناس . وان كان ـ فيما احسبه ايضا ـ يسره ان يرى لما بذله مخلصا مختارا الاثر الذي قصد اليه في خدمة الفرد والوطن والامة .. والطالب واللغة والادب .. العلم والمنهج والذوق .. الشخصية والخلق والانسان . ويمكن ان يسره كذلك أن تكون منه عند حسن الظن . اقول : يمكن ، وكأنه ، لأن الرجل فارق الدنيا وكأنه ـ كأنه ـ نفض يده من كل شيء وفارقه الطمع ، والطماح لأي شيء . أجل ، ولكنك تراه ـ وهو في تلك الحال من اليأس والتشاؤم ـ تراه اذا جدّ الجد ، في القمة من التفاؤل وفي أوج الشباب وبدء العمل الوطني وفي الصميم من

مصححي دفاتر الامتحان .

إنه الرجل الذي لايتناقض ، فاذا اشتد فمن اجل ان يلبي اذ يؤدي الواجب ، واذا كره الحياة فلحبه اياها لأن تكون كما يريد .

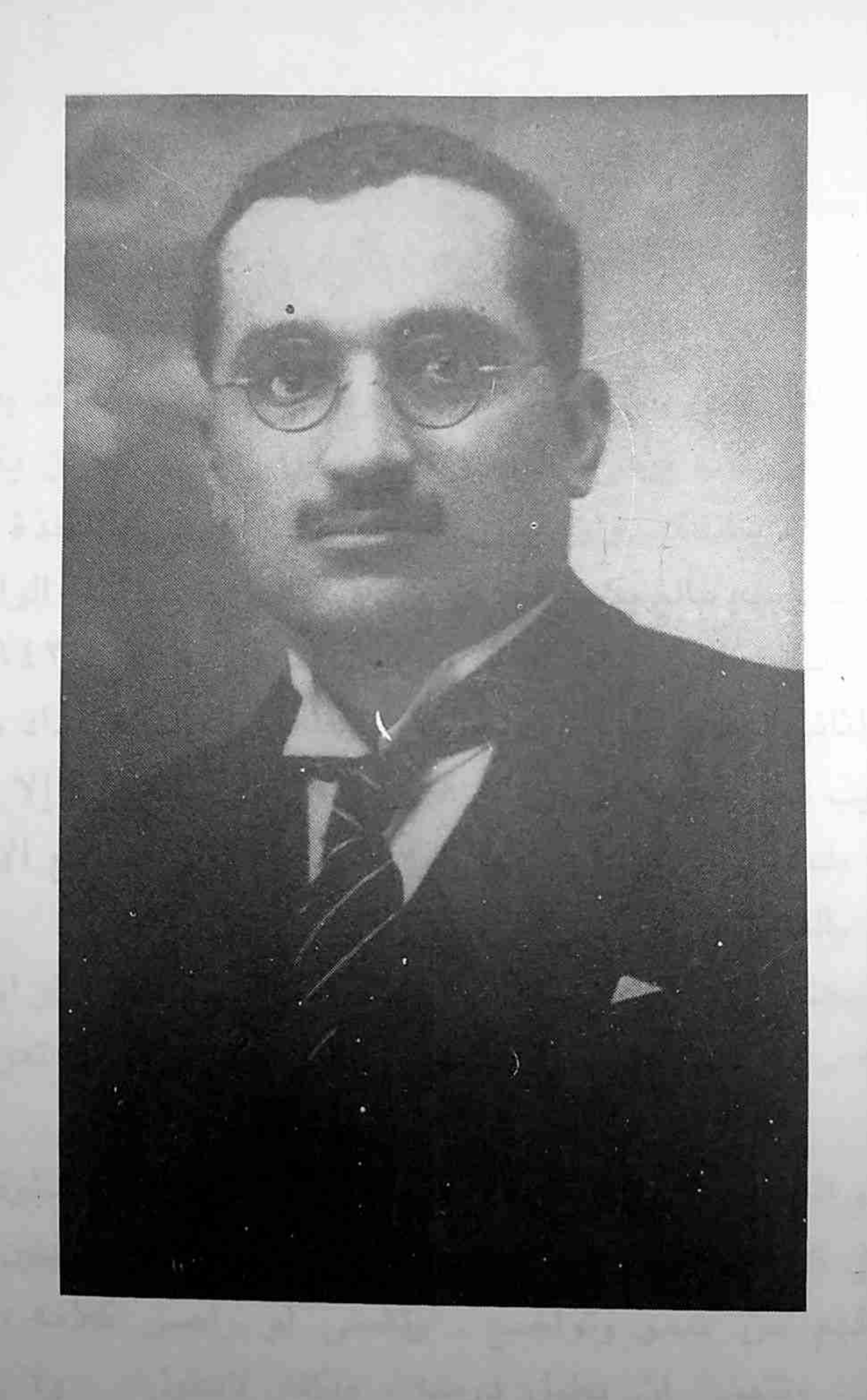
وبعد

فاستاذك في المصطلح هو الذي يعلمك العلم ، ولكنه فيما هو أحسن من المصطلح : الذي لايعلمك العلم وحده فيبقى - حينئذ - ماثلا في نفسك خلال تصرفك وخلال تعليمك .. ومن ثم ينتقل خالدا في الأجيال : قولا وعملا .. كتابا وخلقا .. وتزيده الأيام نصاعة في الذكر ، ورسوخا في الخلود - وهذا هو استاذي البصير .. واستاذك رضيت ام لم ترض ، مباشرة وغير مباشرة .. وهنيئا لك - ولنا بك - استاذنا في الخالدين .

الجمهورية - الجمعة ١٩/١٠/١٩٨٤

استاذي طه الراوي







سعيد ذلك الذي يفخر بأساتذة جديرين بالفخر بهم ، واذ يذكرهم بالخير والمجد وكأنه يزهى بخيره وبمجده . ومن سعادتي ان يكون لي مثل هؤلاء الاساتذة ، وان يكون هؤلاء الذين افخر بالتلمذة عليهم وكأني كسبت بهم مالم يكسبه الآخرون : استاذي الجليل طه الراوي ..

كانت بدء ذلك **بدء** العام الدراسي لسنة ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ من الصف الثاني لقسم اللغة العربية بدار المعلمين العالية ببغداد ويدخل شيخ مهيب حلو الطلعة كريم الحركة راقي النطق ، ما تراه إلا وتشعر بقرابة له بك ـ أو لك به ـ وسمّها ألفة ، او ودادا او حبا مع الاحتفاظ الطبيعي بالفارق ـ او الفوارق ـ في كل شيء .

هكذا يجب ان يكون الاستاذ ... جليلا وهو قريب منك ـ او انك انت قريب منه ـ على بعده ـ: مكان سامق ولكنه صديق .. وكأنك تعرفه منذ عهود ...

ويتكلم الشيخ ، ويوجه ، ويعين كتب الدرس ... وفي كل خطوة يزداد رقيا ، وفي كل يوم يزداد حبا ... وكأنك منه في حضرة قديسين ، وقل أئمة بمالهم من سمو وتواضع . وتتمنى لو واصل كلامه ، ولكنه لايواصل ، وتتمنى ان يطول درسه ، ولكنه لايطول ... ولا بأس ،

فإزاءنا سنة كاملة ... نستزيد بها منه ونتزود علما وحبا ... وسعادة .

استاذي طه الراوي لم يصل الى الاستاذية بالدرجات العصرية في دراسة ابتدائية وثانوية ... وهذا من حسن حظه وحسن حظنا فهو احد العوامل في تميزه ، لقد شرع مبكرا بالدراسة على النهج القديم في المدارس القديمة على ايدي شيوخ قدماء ... في حياة تجمل بكلمة التقشف ، والشظف - إن شئت .

وتجمل كذلك بكلمة الانصراف التام والانسجام التام وبعينه حب ما هو فيه على المواظبة ، ويساعده الذكاء الذي له على فتح الغوامض واكتشاف المخبآت ، والوقوع على مالم يقع عليه زملاؤه او مشايخه فيتسع عالمه ويتسع مقروؤه ويتسع افقه فاذا هو قديم حديث ، وعصري يتضاءل إزاءه عصريون ، ويصغي اليه عصريون مرتاحين لقوله معجبين برأيه مستأنسين بعمله . انك لاتلحظ على استاذي أي قصور ، وأي شعور بنقص ، ولم هذا الشعور الاخير ، ومن اي يأتي . صحيح ان دراسته قديمة في الاساس ولكنه لايقصر في دراسة الجديد والاطلاع عليه ومتابعته ، ومن هنا تراه كلا متكاملا ، وتراه ثقة في مكانها .

يسمي درسه : الأدب . والتسمية اصطلاحية في تاريخنا . ولها كتب تعرف باسمها : البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، والامالي للقالي .... ومعها حماسة ابي تمام ، وكشاف الزمخشري ...

ندرس هذه المواد في ظله خلال ثلاث سنوات ، ليست العبرة بهذه المواد او بثلاث السنوات وانما العبرة - أقصد السعادة - ان يكون استاذك فيها الاستاذ الراوي وبهذا اشارة الى فكره التربوي النير في مادة الدرس وطريقته .. زيادة على سلوك الاستاذ مع رعيته . اننا ندرس هذه الكتب ولا ندرسها ، فليس معقولا ان ندرسها كلها لضخامتها وتعقيدها وصعوبة مطالب فيها ، واستاذنا الراوي يعرف ذلك كله ، وعنه عرفنا ماعرفنا ... وانما المعقول ، والمعقول جدا ان يلم

طالب الادب بأكثر من كتاب ، واكثر من منهج ، يقرأ في البيان والتبيين قدرا صالحا تحت اشراف استاذه حتى اذا علم هذا القدر الصالح من فهم البيان والتبيين عرف بعد ذلك كيف يسير فيه منفردا . ويقرأ في «الكامل» صفحات يدخل منها في نفسه علم جديد يأتلف مع سابقه فيزداد الماما بمنهج التأليف الادبي ويستطيع ان يقرأ في الكامل منفردا ويعرف كيف يقرأ .... ومثل ذلك شأن «الامالي» ...

وتختلف طبيعة الحماسة . ولهذا الاختلاف اختارها استاذنا الراوي ... فلابد من الفة خاصة لعيون الشعر العربي قراءة وفهما وحفظا لمختار المختار ... واستعجل فأقول ان المسألة - من اصلها - ليست مسألة القراءة في هذه الكتب ، وانما مسألة القراءة في ظل الاستاذ الراوي اذ يخلق جوا نادرا في الدرس ، ولا كأنها قديمة في كل شيء وزاد عمرها على الف سنة ، فهي في متناول اليد ، وما أسهلها ، في معاني مفرداتها - وتركيبها وشواهدها ، وفيما يتشعب عنها ، وما كان نظيرا لها في غيرها ، وما يذكر بها مما هو اقدم منها وما هو حديث كذلك - عجيب علمك يأأستاذي ، وعجيب استيعابك ، عجيب أداؤك ، وهكذا والا . ومثلك حارس للتراث خادم امين له ، قمين بتحمل رسالته ، ونقله في الاجيال ... - ومثلك قليل ، وقليل جدا .

وفي الشعر شواهد يعرضها في يسر ، يقرأ الشعر بتؤدة ... وهو في كل ذلك منسجم مع الدرس محب له ... وينعكس ذلك على تلامذته فيشعرون انهم يتعاملون مع مادة حية ويزاولون عملا محترما نافعا مع امتاعه ولذته .

ويقف عند «الكشاف» وقفته الادبية مع زيادة محفوظة من آيات القرآن ، وما يصله بها من الحديث ... وما يتبسط به ويوسعه ... فيبلغ العصر الحديث والعلم المعاصر .

من اين له كل هذا ؟ بالدرس . بالمثابرة . بحب الدرس . بحب

التعلم ... وحب التعليم . ولا بد من ان ترد قبل ذلك فطرة سليمة وموهبة نادرة وتربية صحيحة ومزاج لاتختل نسب عناصره ، ولاتعبث به الهموم .

اجل ، ويستشهد من الشعر بأبيات جميلة يقرؤها مستعذبا اياها وكأنها من نظمه ... لعمق امتزاجها بنفسه .

ويرد الان منها على القلم ، البيت :

لو بغير الماء حلقي شرق
كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ومن ثم يطلب من طلبته ان تكون لهم مختاراتهم الخاصة ، ويسألهم عن هذه المختارات دون ان يحكم ذوقه الخاص فيضيق عليهم مدى الحرية ويكرّه لهم عملية الاختيار .

ان قديم استاذي حديث ... وربما دفعت حداثة القديم الى العجب ... وربما دفع العجب بقائل ان يقول : ترى كيف يكون «ابن الجامع» هذا لو تهيأت له اعوام «في السوربون» ؟! ـ القائل انا ، والقول ، قديم ، حديث .

الحديث عن استاذي الراوي حبيب .. لايمل ... كما كان درسه أمس ... واذا كان العهد عدديا قد بعد ، فانه باق على طراوته روحيا ... فما نسبت استاذي يوما ... وما قصّرت عن الاستشهاد به حيث يدعو الاستشهاد لدى رأي بالاستاذية او التلمذة ، ورأي بكتب الادب وتدريسها ، ولدى الالفة الجليلة التي تنبثق طواعية في درس ، ولدى سعة افق القديم بحيث يكون جديدا .

واليوم ، اليوم ذكرته وقد ضمنا مجلس فيه الاساتذة والتلاميذ الذين صاروا اساتذة ... فكانت طريقته في التدريس المثل الذي دعوت الى إحيائه ، ولكني استدركت : ليست المسألة مسألة الطريقة ، الطريقة ممكنة ولكن من اين لنا بالاستاذ الراوي .

وورد درس نسميه اليوم في كلياتنا : «الكتاب القديم» ندرس فيه ما كان يدرسنا فيه استاذنا طه الراوي إياه في درس «الادب» . ولاشك في سمو تسمية الاستاذ الراوي على تسميتنا (التي وردت الينا من جامعة فؤاد) ان كلمة القديم تري الطالب انه سينجر الى زمن سحيق ويدرس ما لايهم في عصره منه ، وسيلازم شيئا رثا ، وما شيء من هذا بصحيح في «البيان والتبيين» و «الكامل» و «الامالي» و «الحماسة» ...

كان هذا السبب المباشر للذكرى الجديدة ، ومن هنا جرى الحديث عن درس الادب ولم يجر حديث «النحو» .

وشأن الاستاذ طه الراوي في النحو شأنه في «الادب» . وقد قرأنا عليه «شرح ابن عقيل» و «مغني ابن هشام» فكان هو هو علما وفضلا وكنا معه نحن نحن اكبارا وتقديرا ومن ثم صار «النحو» الثقيل على غيرنا سهلا علينا وما ابن عقيل وابن هشام إلا مبتدأ ، او فعل شرط ، والخبر وجواب الشرط استاذنا إذ يجول بنا في عوالم رحبة من شؤون اللغة زيادة وتعليقا وتصحيحا وتحديثا .

فكرت لو فعلنا اليوم بدرس النحو هذا الفعل فاصطدمت الفكرة بغياب الفاعل الاول : الاستاذ طه الراوي ، وما غيره بقادر على ما كان ميسوراً لديه .

ذكرته ، وما مثل الاستاذ طه الراوي من ينسى ، وما نسيته يوما ، ولي فيه عتاب مع النفس لم تكن المسؤولة الاولى عن سببه ، ولديها من الأعذار المشروعة ما يخفف من وطأة العتاب .

ـ أقاطعك ، عفواً ، ومؤلفاته ؟ لااراك تذكرها !

ـ صحيح ، ولعل مرد ذلك الى صفة من تواضع المؤلف ، فلم يرد على لسان استاذنا يوماً خبر عما ألف ونشر ، ويؤلف وينشر مع ماله من مطبوع ومخطوط . صدر له في حياته : ابو العلاء في بغداد مدينة السلام . وصدر له بعد وفاته : تاريخ علوم اللغة العربية . وتولى ولده

الاستاذ حارث العناية بما خلف من آثار فأصدرها منها : نظرات في النحو واللغة . مباحث اسلامية ، واعد للنشر : تاريخ العرب والاسلام ، سير الاعلام . نقد الكتب . ديوان طه الرواي . رسائل طه الراوي . ثم ثلاثة مجلدات تتضمن المقالات الاجتماعية والسياسية والقانونية .

وقد صار اكثر المطبوع نادرا بحكم المخطوط ، ولكن الطبع لم يعد في مقدور فرد ان ينهض بأعبائه المالية .

ـ ونعود لما كنت فيه : ذكرته .

ـ ذكرته ، وما مثل الاستاذ طه الراوي من ينسى ، وما نسيته يوماً ولي فيه عتاب مع النفس لم تكن المسؤولة الاولى عن سببه ، ولديها من الاعذار المشروعة ما يخفف من وطأة العقاب ـ (والعذر عند كرام الناس مقبول) .

توفي الاستاذ طه الراوي في تشرين الاول من سنة ١٩٤٦ وكنا قد تخرجنا في دار المعلمين العالية (سنة ١٩٤٥) ، وعينت مدرساً في (الحلة) ، فكان خبر الوفاة مفاجئاً صاعقاً ، وكان اول رد فعل ، بعد هدوء نسبي ، ان نقيم ـ نحن تلامذة الفقيد في الحلة ـ حفلا تأبينيا . وتم القرار ، وجرى القلم سيلا من الدموع على الورق بانتظار الحفل والتباري في الرثاء . ولكن المسؤولين الاداريين رفضوا الطلب وكأن مهمتهم الاولى (والاخيرة) خارج دائرة المعارف والتربية والفضل !

كانوا يخافون حتى من الخير ! مساكين !

وجدت امور وحوادث بعيداً عن صميم الموضوع ، وضاعت (الكلمة) ولا بأس ! ومضت عقود من السنين ، لعلها ثلاثة ، وتفكر مجلة مجلة بـ (الراوي) ، وتطلب من فلان وفلان (كلمات) فكانت

الفرصة التي انتظرها واتطلبها . وجرى القلم سيلا من الذكريات الحميدة . ولكن المجلة اكتفت بغيرها عنها الرأي لم اره حكيماً . ثم ان الوسيط الكريم ـ في ذهاب الكلمة الى المجلة وايابها ـ اضاعها بين اوراقه ، ولم يفقد الامل في الظفر بها ذات يوم . ومرت الايام والسنون ولم يتحقق الامل .

وبقيت انتظر فرصة مناسبة ، واقرب فرصة هي الحادي والعشرون من تشرين الاول من عام ١٩٨٦ ، مناسبة مرور اربعين عاماً على رحيل الاستاذ الجليل . وانتظرت سنة وسنتين ، وقلت ارجع الى تاريخ الميلاد فلم اره ثابتاً فهو مرة ١٨٩٠ ومرة ١٨٨٦ وقد توجد مرة ثالثة ، وهو في المرات كلها لايهيىء المناسبة المطلوبة ولايقرب زمن الهدف المنشود . فقلت : ولم هذا الشرط غير المأمون ؟ واذا كان شرط العقود من السنين مقبولا معمولا به فمن يضمن لك الحياة حتى ذلك العام ؟ اما يحتمل ان تموت وتخسر (الصفقة) ، وتفوت عليك المناسبة التي تنتظرها لاداء واجبك ؟ اجل ، يحتمل واكثر .

وتمتد اليد الى القلم ، فقد طافت صورة شيخي الكريم ، الحبيب العلامة . وها هوذا الاستاذ طه الراوي يدلف الى الصف في هدوء وهيبة وبهاء ، ويقترب من المنصة وقلما اقتعدها ، وبيده مسبحته الاثيرة عنده وعندنا .. وهو هو في كل يوم وكل حين رصانة ورقياً وجلالا . ويقرىء فلاناً ، ويسأل فلاناً ، ويجيب فلان .. ويحلق الاستاذ في اجواء من العلم والفضل ونحن معه معه على قدر طاقتنا .

ويجد الاستاذ فرصة ليقرأ من مختاراته فنحفظ ما يتلو لدى سماعه تأثرا باللهجة المحببة التي ترد بها علينا ، وانسجاماً مع الاعجاب الذي يطل علينا معها :

ولو ان قومي أنْطَقَتْنِي رماحُهم نطقتُ ، ولكن الرماحَ أجرَّتِ

فننتشي بالشاعرية ونعتبر بالحكمة . وتجر النشوة الى النشوة فيقرأ :

ولولا خلالٌ سَنَّها الشعرُ مادرى   بُناةُ المعالي كيف تُبنى المكارمُ

فنرتاح مع استاذنا للمهمة التي نيطت بالشاعر في الريادة والقيادة .

حتى اذا (غاب) الاستاذ ، وعاودنا (البيت) ، وصلنا ما بين الاستاذ وتلامذته بما كان بين الشاعر وبناة المكارم . فخلال من الاستاذ ترينا معنى ساميا من معاني الاستاذية فيما يجب ان تكون ، وما يجب ان يرى فيها التلاميذ من حياة سعيدة وصلة روحية ، وسعي الى العلى . والاستاذ هنا يسن ويبني ، والتلاميذ يستنيرون بهديه وعليهم من بعد ذلك (ان استطاعوا) ان يسنوا ، وان يبنوا .

اجل ، وكل شيء حي في النفس ، طري ، فتي ، حبيب وكأن ثلاث السنوات ما بين ١٩٤٢ ـ ١٩٤٥ تبدأ اليوم ، وكل يوم . اجل ، وسلاماً استاذي الكبير ، استاذنا ، استاذ الادب بمعنييه ـ ولم تمت ، والى اللقاء .

الجمهورية ١٩٨٤/١٠/٢٧

استاذي المهنا







الذين يعرفون المهنا كثيرون ، ولكنهم ليسوا على العدد المطلوب المناسب لمثله علما وخلقا وذكاء وطيبة ، وتواضعا وكأنه لايعلم شيئا ، ولايحفظ ، ولايرى ، ولم يدرس طويلا طويلا فيلازم كتب الادب من كل نوع بين الألفية والعمريطية ، والمتنبي وإيليا أبو ماضي ، ومنذ المعلقات دون انتهاء بالمهجر ، وحفظه عجيب ولاتدري كيف تشرب هذه القصائد الطوال والصفحات المتوالية ، من الشعر ان اردت الشعر ، ومن النثر إن اردت النثر ، والنثر أعسر على الحافظة ولكنه ليس كذلك على حافظة يملكها الاستاذ المهنا ، فماذا تريد ؟ اخطبة ام رسالة ام مقامة .. ام ايام طه حسين وروفائيل في ترجمة الزيات . اطلب تجد مايسرك ، وتكفي اشارة ولمحة طارئة ، فتسمع دهشتك ..

سعداء اولئك الذين درسهم في متوسطة الحلة ـ ولنذكر اوائل الثلاثينات واستمراراً في الاربعينات .

ولاتقل ماذا درس ؟ وأين درس ؟ لأن الذي في علمه تضيق به جدران المدارس . درس على ابيه الشيخ احمد وعلى مكتبة ابيه وعلى غيره دون شك ، ودرس في دار المعلمين العالية . وتخرج وشرع يدرس . ولاتقل ماذا يدرس ؟ لأنه يدرس كل شيء ، وفي هذا مايبدو ذما اذا ذكر

لغيره لأنه يعني السرعة والضحالة . امامعه ، فالامر مختلف جدا .
درسنا «التاريخ القديم» وكأنه عاش مع السومريين . واذا قلنا هذه بابل
وهو يعرفها عن قرب فما قولك في اثينة واسبرطة ؟ انه عاش فيها دون
شك ورأى الحضارة اليونانية عن كثب .

ودرّسنا اللغة العربية . وهنا لانطيل فهو ابنها وابوها .. هو نحوي
أن اردت النحو . وصرفي ان طلبت الصرف ومؤرخ للأدب ان اردت
تاريخ الأدب ، ولاتسل عما بين ذلك من انشاء واملاء ومحفوظات
ورعاية اللجان المدرسية .. وقد فقه القديم على قدمه والجديد على
جديده وملك القدرة في التصرف على الوجه الاحسن .

ودرسنا الجغرافية ، الجغرافيات كلها ، وخاصة جغرافية العراق ..
ولاتسل عن رسم الخوارط وتلوين التضاريس الطبيعية فهي جاهزة
تحت اليد ، والطباشير وما عليك الا ان تطلب ، اما اذا كانت وسيلة
للايضاح فما ايسرها ! عجائب الاستاذ محمد احمد المهناكثيرة ومهما
بدا المتحدث عنها مبالغا فانها اكثر لدى أيّ متحدث آخر درس عليه او
صاحبه او زامله - ولاتجد - في هذه الدنيا - رجلا مثله مجردا من
الطمع ، متجرد للخدمة العامة ، متهيأ لدفع خلافات الآخرين على
حسابه الخاص . والمهنا استاذ - ولا ولن اقول : مدرس - عريق في
المدرسة . ويأتي الخريجون الجدد وهم يحملون عن انفسهم افكارا
ضخمة . معظمها غير صحيح من ادعاء التخصص والنظرية التربوية
وعلم النفس والفكر .. يأتون - واهلا وسهلا ، فما سمعنا خلافا بين
قديم وحديث ، ولم الخلاف والاستاذ المهنا هو القديم وها هو ذا يفسح
لهم المجال واسعا . تدعون العلم ؟ لكم ذلك . واعلنوه ان شئتم .
تريدون تدريس اللغة العربية في الصف الثالث - لأنكم ترونه الأرقى -
خذوه ، ودعوا لي الصف الأول ، شعبة ج ، تريدون الثانوية ، خذوها مع

البلاغة واتركوني مع الأول في الشعبة المستحدثة (د) ؟ تريدون العربية كلها من كل صف ومكان وزمان ، هي لكم واعطوني الشاغر في التاريخ او الشاغر في الجغرافية . اما الادارة فهي لكم منذ خلقت وما انا منها في شيء .

ويتهيأ الجدد لنقاش طويل في توزيع الساعات على جدول الدروس . فهم يريدون احسن الاوقات ، لايريدون الساعة ـ الاولى لأنها مبكرة عليهم ، ولايريدون الاخيرة ، ولايريدون ما بعد الظهر .. ولا ، ولا ، ويجتمعون وتنهار حماستهم ويخجلون من انفسهم اذ يرون استاذهم القديم يقبل اثقل الاوقات عن طيبة نفس وهدوء بال .

والاعمال اللامنهجية ـ اللاصفية التي تؤكدها التربية الحديثة ـ من «يبرز» لها ؟ انها جهد غير مأجور ، وهدر للوقت غير محسوب ، ومعيشة في المدرسة رغم الضيق بها .. وابرز ما فيها اللجنة الثقافية ، ويقبلها المهنا عن طيبة نفس وهدوء بال ومن اعمال اللجنة الثقافية . الخطابة ، والاعداد الى حفلة خطابية وهذه الاعمال تفقد وجودها ان لم يتولها المهنا .. وحين توفي الزهاوي اختار المهنا العمل مع تلاميذه في المتوسطة على اصدار كتاب خاص بالمناسبة ويبقى «التمثيل» واقل ما في التمثيل ـ غير الفن واللغة والجرأة الأدبية ـ مورد تستعين به المدرسة على سد حاجات لاتسدها الدولة . ومساعدة تلاميذ يؤودهم الفقر ، فمن يتولى هذه المهمة الشاقة ؟ يختار النص ويختار التلاميذ الصالحين للمهمة . يجد في التدريب ، ويجد في تهيئة الازياء اللازمة والمسرح المناسب .. وبيع البطاقات .. من ؟ انه المهنا . ويقبلها عن طيبة نفس وهدوء بال . وانه لمتقدم بالاقتراح والتنفيذ قبل ان تتقدم به الادارة . تقول للتلميذ المعجب جدا باستاذه : إنك ياولدي ، صغير السن ، وإن أي شي اكبر منك تراه كبيرا ! تقول . وفي كلامك صحة وخطأ . الصحة من حيث المبدأ العام ومن حيث إني لا اريد ان اذهب باستاذي الى ابعد ما هو

عليه ، وابعد مايمكن ان يكون عليه مثله . والخطأ من حيث الواقع الخاص ، لأن التلميذ الصغير يدرك ويمكن ان يكون حكما اذ يرى بعينيه ويسمع بأذنيه . فهو في صميم التجربة التي تعيشها المدرسة مع استاذ يسح العلم سحا وكأنه يتنفس الهواء ويشرب الماء وتعرفها البلدة كلها وتتحدث باعجاب وتعجب وتقدير .

ويقابل هذا الطفل بين هذا الاستاذ وهذا المدرس العراقي المزود بـ B.A من الجامعة الامريكية . او هؤلاء المنتدبين على انهم متحصصون من لبنان او سورية او مصر .. وفيهم من لايني يتمشدق بالسوسيولوجي وكانه خريج اسطنبول ، يقابل - والضد يظهر حسنه الضد .

ويتقدم هذا الصغير صفا صفا . فيتأكد له حكمه اذ يرى المدرسين الاخرين من اهل العربية او التاريخ او الجغرافية ، هم انفسهم يقدرون الاستاذ المهنا عاليا ، ويلوذون به كلما حز بهم اسر واستعصت عليهم مسألة .

ويتقدم اكثر . ويفارق استاذه ليدرس (العربية) والتربية الحديثة في (دار المعلمين العالية) ببغداد فيلقى في العربية اساتذة اجلاء لانقاش في مكانتهم من الاستاذية لما تهيأ لهم من وسائل التخصص في التاريخ القديم او الادب العربي او النحو العربي ، ولكن الاستاذ المهنا حاضر معه في درس هؤلاء الأجلاء حضور احترام ، وحضور ثمن ان تتهيأ له فرصة الانصراف التام لمنحى واحد من مناحي المعرفة التي يزخربها راسه وقلبه ؛ وحاضر حضور اسف اذا يرى آخرين وفيهم الذي يحمل الماجستير او الدكتوراه واذا هم دون الاستاذ المهنا بمرآحل ومراحل ولايتنبه المسؤولون الى استغلال كنز غير بعيد وعلم غير مجهول !

وهكذا ، كلما كبرت سنّه ، وتقدم في مدارج العلم . وها هو ذا يتخرج في «الدار» ويزامل استاذه في التدريس . يقول يزامل لأن

استاذه لم يشعره بأي فرق . فهو ـ من جانبه ـ زميل وصديق ، وإن بقي المدرس المستجد ـ من جانبه ـ ذلك التلميذ وذلك المعجب .

وفي التجارب الجديدة مايؤيد التجارب القديمة .. المهنا هو هو علما وخلقا ونكران ذات ، وفنا .. وتدريسا . وتطوعا رائعا للنشاط غير المنهجي ، وكان فيما كان اخراجه رواية احمد شوقي : مجنون ليلى .. ويعجب الذين شهدوها أيما اعجاب ، وتساءلوا : كيف تم ذلك ؟ وكيف استطاع هؤلاء الصبية ان يبلغوا مبلغ الفنان المتمرس ؟ يسائلون ، ولاينتظرون جوابا اذا علموا ان المهنا وراء ذلك الابداع ، وتعجب «شيخ» درس النحو على الطريقة القديمة واسر الى رفيقه الشاب جواره : كيف تأتى لهؤلاء الصبية هذا الضبط في الاعراب ؟ وكيف تأتت لهم هذه الفصاحة في النطق ؟ فأجاب الشاب الفتى رفيقه الشيخ : انه المهنا وكفى .

ولاتسل عن جمال الاداء ، وانسجام الاداء مع الحالة الداعية الى الانشاد ، ثم لاتسل عن اثر ذلك في المشاهدين . وان الاثر ليبلغ بهم ان يحفظوا ابياتا لم يسبق ان قرأوها . ولو تسمعت اليهم وهم يفارقون القاعة للامست اذنك ابيات يرددونها بشوق ، فهذا يستعيد قول قيس :

وشاة بلا قلب يداونني بها   وكيف يداوي القلب من لا له قلب

وهذا ، وقد استولى عليه الوجد فهتف بلسان ليلى متصورا بلواها :

نحن الحرائر إن مال الزمان بنا   لم نشك الا الى الرحمن بلوانا

وان الابيات لترسخ في النفوس على مدى عقود السنين ثمرة لحسن ادائها ونمط احداثها ..

ولم يفت «المخرج» ـ وهو اديب شاعر ـ ان يدفع من كلمات الرواية ما يمكن ان يثير حساسية ، ولم يفته .. ولاتدري كيف واتاه اللحن ـ ان يدخل الى قلوب الحاضرين بالحداء من وراء ستار :

هلا هلا هيا إنطوي الفلاطيا   وقربي الحيّا للنازح الصب

هلا هلا سيري وامضي بتيسير طيري بنا طيري للماء والعشب

تسمعه قادما من بعيد وكأنك تقطع البادية !

والمهنا هو هو علما وتعليما .. واخراجاً للرواية .. ووطنية واعدادا للاحتفال بالمولد النبوي رغم التخوف السياسي المسيطر على البلدة ، أجل ، ويختار شعراءه وخطباءه واثقا من نفسه وعمله ، فيقول الشعراء مايريدون ، ويلقى الخطباء مايرون ، ويستجيب التلميذ لاستاذه فتقوم كلمته على الحديث الشريف : (إن قوماً ركبوا سفينة ..)

لقد كانت صحبة لاتمل ولاتنسى .. اذا لم تكن استمرارا لأول تلميذبدأت في الصف الأول المتوسط .. واستمرت واذا قطعت يوما فلم ينته الاسف على ذلك اليوم !

ويفارق التلميذ استاذه الى القاهرة ومنها الى باريس ؛ ويعود منها الى بغداد مدرسا في دار المعلمين العالية (ومحاضرا في كلية الآداب) ويعلم ان استاذه انتقل من الحلة الى بغداد ، مدرسا في دار المعلمين الابتدائية ، فيستغرب . يستغرب لأنه يعرف انفة استاذه ، واعتزازه بنفسه وتفضيله التضحية ـ ونكران الذات مجردا من الطمع متجردا للخدمة العامة ، ومن كان كذلك لاتعرفه بغداد . ولايستغرب لأن الاستاذ المهنا صاحب الفضل في الامر ، ولابد من ان تكون حاجة معينة جدت فأدت الى ما ادت اليه ـ والخير فيما حصل . وتنتظر ان يدرس الاستاذ المهنا في دار المعلمين الابتدائية اللغة العربية ، والتاريخ ، والجغرافية ، ولعله درسها او درس احدها .. ولكن الذي لاشك فيه انه خدم في ثلاثتهن الطلبة والاساتذة ويبقى بعد ذلك ـ او قبل ذلك ـ البراعة في الدرس اللامنهجي ، ولاتتركها الدار مستقرة كامنة ...

وكل هذا معروف منتظر .. ولكن غير المنتظر والمنتظر في وقت واحد ما ساد به الدرس اللامنهجي من براعة جديدة ألمحت اليها من قبل ـ براعته في الجغرافية عموما وفي الخوارط خصوصا . والشيء يتوالد من بعضه ، ومن الجغرافية والخوارط تأتي الى الخوارط المجسمة ، ولاتقل اين تعلمها وكيف اذا سألت كيف يعملها واين ؟ ولايجيبك عن هذين السؤالين الا المسؤولون الذين تنبهوا الى براعته وارادوا ان يخصوابها من هم اكبر سنا من تلاميذ المتوسطة واكثر حاجة اليها من تلاميذ الثانوية ، وهكذا تقدمت بغداد فاستأثرت به لدار المعلمين الابتدائية . وسل حينئذ زملاءه في الدار . وتلاميذه سنة بعد سنة فيها ، وليحدثوك عن «المعمل» «والمعرض» .. والجهد والتضحية والتواضع .. والبراعة .. والمعارف في شخصية الاستاذ المهنا كل لا يتجزأ .. ومنطلقه الاول فيها ان يفيد وان يخدم .. ومصير التلاميذ شاغله ، ولا ولن تشغله الجغرافية عن العربية ـ مثلا : مجردا من الطمع : متجردا للخدمة العامة .

ينظر الاستاذ المهنا في الكتب المدرسية المؤلفة للغة العربية في قواعدها فلا يرتضيها و «يرعبه» مايلاقي ابناؤه من عنت وما تلقى العربية من ضيم .. فيفكر ـ وهو الذي لم يفكر يوما في التأليف ـ وهذا عيبه ـ في ان يؤلف كتابا يضمنه خلاصة عمله بالمادة والطريقة في قواعد اللغة العربية ، ولاشك في ان باعثه الاول على مثل هذه الفكرة ارق طويل حمله على مالم يرد حمل نفسه عليه ..

وهنا .. هنا تأتي النظرية .. والنظرية تشترط اشتراك اكثر من مؤلف للكاتب المنتظر وليس هذا الشرط عمادا في النظرية وانما الشرط ـ وهو العماد ـ ان الاستاذ النحوي اللغوي محمد احمد المهنا ، نظر فيمن يكون «زميله» في هذا المهمة .. وانتهى الى قرار : احد تلاميذه القدامى وقد واصل دراسته العالية في الخارج وعاد مدرسا لمواد من

«الأدب» ـ لنلاحظ جيدا : «الأدب» وليس النحو ... فقصد بتواضعه المعهود الى هذا التلميذ وحدثه عن مشروعه كما يحادث صديقا زميلا ندا :

ـ .. رأيت ان اولف كتابا في قواعد اللغة العربية»

ـ نعم المشروع وانك اهله والخير على يديك استاذي ..

ـ ولقد بحثت عن (شريك) فاستقر البحث عليك

ـ ولكني لست مختصا بالنحو او اللغة ..

ـ وهذا هو سبب اساس رشحك للمهمة ..

واستغرب التلميذ ـ المدرس العرض ، وصعب عليه ادراك ابعاده ، وحال دون هذا الادراك ما توطأ عليه التأليف النحوي على مدى قرون من التأريخ القديم ، ومدى ما ألف العصر الحديث عموما وخصوصا .. وقصر ادراكه اذ نسي انه ازاء استاذ له من الآفاق اوسعها ومن الأبعاد ابعدها وان جده في الامر وطول نظره وتجربته وعمق حرصه .. كل اولئك بعثه الى هذه النظرية الصائبة دون شك ، واقل ما في صوابها ـ كما شرح الاستاذ المهنا نفسه من اركانها ـ ان اقتصار تأليف كتاب «قواعد اللغة العربية» على النحويين يجعله جامدا ، محدودا ، والنحوي ـ شأن أي مختص أخر يتشبث بما شب وشاب عليه من امثلة وقواعد في محيط ضيق ومدار لايتغير فهو لايتنازل عن «تراثه» ولايحس مكان الصعوبة فيه على غيره ، وما هو ميت ، غير نافع ، برأي هذا «الغير» .. وهنا وجب ان يشترك في العملية من لم يكن نحويا بالتخصص الدقيق كأن يكون من مدرسي الأدب او النقد الأدبي .. ليشذب الزائد ويبعد الغريب .. ويسهم بما فيه حياة وذوق ..

ومضى الاستاذ المهنا في شرح نظرية مكتملة مختمرة ، ولكن التلميذ السابق المدرس الحالي لم يستوعبها جيدا لاسباب يمكن ان يتذكرها كاهتمامه في تحضير دروسه ، وبعد مسألة الاسهام في التأليف النحوي

عن مداه .. ولاسباب لايتذكرها ..

.. واذا كان شغل حينا عن النظرية ونسي حينا الاسباب التي حالت دون شرف الاسهام في تحقيق خطوة فيها .. فما نسي استاذه يوما ، وما نسي انه قصر في حقه وحق النحو .. لا لأنه لم يسهم في التأليف فقط وانما لأنه حال بين النظرية والتطبيق ، ولأنه فوّت على العربية واجيال المتعلمين فرصة استثمار كنز لم يكن ليملكه غير الاستاذ محمد احمد المهنا .

ولات حين ندامة ، فقد كان ذلك في اواسط الخمسينات (١٩٥٥) وان استاذه الرائع .. مرض وفارقنا في ٢٨/٦/١٩٦٠ قبل الاوان مخلفا اسفا عميقا في نفوس عارفي فضله وهم كثيرون ، ووخزا لايني يعاود تلميذا يهمه رضا استاذه الراحل ولعله واجد بعض العزاء في هذه السطور اصالة عن نفسه ونيابة عن اجيال واجيال لم يتح لها اداء واجبها وزادتها مناسبة مرور ربع قرن على الخسارة شعورا بالتقصير على قدر ما يعرف للفقيد من فضل مجرّدا من الطمع متجردا للخدمة العامة .

الجمهورية - ٢٧/٦/١٩٨٥



طه حسين

نبأ



توفي على باب الخامسة والثمانين ، وما ذاك بالعمر القصير ، فاذا تذكرنا أنه مريض ـ منذ اعوام ـ مرض نهاية ، لم يبق ـ في عالم المنطق ـ سبب الى أن نهتز لدى سماع نبأ الوفاة ، وأن نضطرب ونأسف ونحزن .

أجل ، هكذا يقول المنطق الجاف اليابس ، أما الاعصاب فلها منطقها الندي الطري ، وأما الذهن اذ يجول ويسترجع حياة الفقيد وأعماله وآثاره ... وابداعه فانه لايملك الا أن يختلج ، وأن يوقن بعظم الخسارة رياضياً وعاطفيا .

وهذا هو الذي حدث ... كأن ليس من المعقول أن يموت طه حسين ، وكأن الموت كله غير معقول ... ويعود الى الذاكرة بيت لأوس بن حجر استشهد به طه حسين في مناسبة رثاء :

ايتها النفس أجملي جزعا ان الذي تحذرين قد وقعا

وانت في هذه الحال ، وإزاء عالم من الكفاح والاصلاح ... والتعليم والتدريس .. والتأليف والنشر ... والابداع ، تريد أن تتحدث عن طه حسين . فماذا عساك أن تقول ...

ستقول : كان ادبياً كبيرا ، بارعا ، ثرا . ... مبدعاً ... وتزيد ... وتزيد ... دون أن تبلغ حدود المراد ، فتنكص الى نفسك ... أجل انه احراج ... وماذا عساك أن تقول ...

وأول مايتبادر الى ذهنك أنك تلميذ لطه حسين ، وعليك واجب من الوفاء .

لم تكن تلميذا له في صف أو مدرسة او في اي مكان محدود بسياج ، ولكنك كنت تلميذا له في كتبه ومقالاته ، تلميذا لاستاذ علمك معنى أن يكون الاديب مبدعا ... وقد تفوق تلمذة من هذا النوع تلمذة من ذلك النوع .

ولم تكن وحدك ...

فزملاؤك يبلغون الملايين ، وكان يكفى استاذك أن يخط حرفاً على صحيفة حتى يقرأها ألوف الألوف من أقصى بلاد العرب الى أقصاها مستمتعين مستفيدين سعداء وينقل الواحد منهم الخبر الى الثاني مغتبطا بالنقل كمن حاز سبقا وأدى رسالة .

ولقد شهد القرن العشرون من الادب العربي أدباء كبارا ولكنه قلما شهد - ولم يشهد - أديبا ، ناثرا ، استاذا له ما لطه حسين من التلاميذ المحبين المريدين . ويلتقي العراقي بالمصري ، بالسوداني ، بالحجازي ... بالتونسي على غير معرفة سابقة ولكنهم ما أسرع مايكونون اخواناً في طه حسين .

وليس هذا الامر الذي يتهيأ لكل من طلبه او ادعاه او سعى اليه .

ترى ... بم تهيأ هذا لطه حسين ؟

ستقول بالمؤلفات الكثيرة وتقول بالاستاذية في الجامعة ، وتقول بالمواقف الثورية او المثيرة ... وما الى ذلك . وفي قولك نصيب من الصحة ، فلابد للاستاذ الجامعي من تلاميذ ، ولابد للمؤلف من قراء ... ولابد للثائر من أتباع ... ، ولكن التلمذة الحقيقية تهيأت لنا عن طريق واحدة ، هي اسلوب طه حسين اي طه حسين كلا غير مجزأ يقدم نفسه خلال الحرف المبدع ...

هذه اللغة الناصعة ، هذا الايقاع الاخاذ ، هذه اللمحات والنبضات

بين رضى وغضب ولطف ووخز ... وتناسب خلال ذلك الفكرة او المادة او العاطفة في سهولة ويسر ... متشحة بصورة من خيال خلاق ... واذا بالكاتب قريب جدا منك واذابك قريب جدا من الكاتب .

انك ازاء شاعر كبير ... ذي موهبة لم تتهيأ لغيره ... شاعر روح وليس شاعر وزن وقافية ... ومن دواوينه في ذلك : «الايام» ، اذ تذكر ماضيه منذ ميلاده في قرية ضائعة في صعيد مصر ، عارضا ما ذاق من مرارة الزمان ... ، ومن قصائده هذه المقالات الكثر التي كان ينشرها في الناس عن طريق الجرائد والمجلات الادبية والسياسية ... وقد كتب حتى في المجلات الاسبوعية من نوع «المسامرات» فكان ان أوصل ـ بذلك ـ الاسلوب الادبي الى جمهور من القراء لم يكن ليعرف الاسلوب الادبي ، وكان دعوة الى الادباء الى أن ينزلوا عن تزمتهم ، لان دنيا الادب أوسع من الوقار المصطنع ... وكان ان وطد طه حسين فن المقالة العربية ومدها بما يرفع من شأنها ـ وليس فن المقالة مما يستهان به .

يعرض طه حسين في مقالاته شتى تجاربه في الحياة ويصور شتى جوانب هذه الحياة مابين طرفي الفرد والمجتمع ، والسياسة والعتاب فكان له بذلك مجموعات كثيرة يمكن ان تكون اكثر من فصول في الادب والنقد ، من بعيد ، في الصيف ، بين بين ، جنة الشوك ... ...

ومن شأن أدب يتناول الحياة ان يأتي حيا ، مؤثرا ، ولكن المسألة ليست مسألة الحياة الحاضرة وحدها ، وانما هي مسألة الاسلوب لان الحياة حاصلة اذ يتناول طه حسين الميت ، فيرجعه نابض العرق خافق القلب اخضر الفكر كأن لم تفصله عن قلمه القرون ، وكأن لم يكن ركاما متناثراً في بطون كتب صفر ...

كان ميتا ، حتى اذ امتدت اليه مخيلة طه حسين بعثته كما كان يوم ولد ونضج ... وأقوى تأثيرا مما كان .

انك تقرأ تاريخنا ميتا في مصادره القديمة ، ميتا في مراجعه الحديثة

ولكنك تحيا واياه في نفس واحدة هي نفس طه حسين .

أقرأت «على هامش السيرة» ؟ انه الصميم وليس الهامش .

وفي التاريخ الادبي ، اما قرأت حديث الاربعاء ، ودهشت لفهم الرجل هذا الشعر وتذوقه اياه وبسطه الى الاخرين يتفهمونه ويتذوقونه ؟ قلما فهم الشعر الجاهلي - في القديم والحديث - اديب كطه حسين .

ودع عنك ما قيل ويقال وقاله طه حسين نفسه عن نفي الشعر الجاهلي كله او جله ، وليبق بعد ذلك كتاب «في الشعر الجاهلي» حيث هو من موضع الاثارة الذهنية في البحث والمناقشة ومذهب الشك الواسع الذي اثاره مايسوغه في الحياة والمعتقد .

اجل ، لقد أنكر ، وحاول ان ينكر ، ولكن «في الشعر الجاهلي» عالم وحديث الاربعاء عالم آخر ...

ومن الجاهلي مر بالاموى والعباسي ... ووقف عند المعري وقفات خاصة كان فيها ذكرى ابي العلاء ، وفي سجن ابي العلاء ، وصوت ابي العلاء .... وقلما اقترب دارس من فحوى ابي العلاء كما اقترب طه حسين ... وانه ليعيده بعد ألف عام فتحار في أيهما المعري ، ويصب شعره نثراً فتحار في ايهما الشاعر !

انه يقترب فيقرب غيره ... ويكون وسيلة الوصل بين متباعدين زمنا او فكرا ... وسلاحه الاول في ذلك الاسلوب ، وانه قادر بهذا الاسلوب ان يؤدب الاشياء أي يحيلها ادبا اذ يمسها .

لقد أدب الحياة ، وأدب التاريخ ، وأدب تاريخ الادب .... وأدب من وقت مبكر الفلسفة في «قادة الفكر» ... ولم يعد الاسلوب في فهمنا امرا خارجاً عن صاحبه ... وانما هو واياه كل لايتجزأ ... والرجل قادر على ملغمة الاشياء . ولابد من أن تكون هذه المقدرة قابلية طبيعية في كيانه ، يملغم بها دنيا الكتاب والفكر ، ويملغم الحياة فيجعلها كلا لايفترق فيه

ماض عن حاضر وقرية عن مدينة وأزهر عن جامعة ومصر عن فرنسا ...

ومن ثم لايبدو عجيبا ان استقام للفتى المغاغي الاعمى عالم القاهرة وعالم باريس ... وكأنه فيهما في كل شيء وفي الذروة من طبقاتهما النيرة ، فلا يخطىء في قول ولايضطرب في سلوك ولايشي جديد بقديم .

تتناول هذه الموهبة المقالة فتمزج بها الشعر والقصة فتكون «ذو الجناحين» .. وتتناول القصة فتمزج بها الشعر والمقالة فتكون «دعاء الكروان» ... انها قصص . وما عليك الا ان تغير قليلا من مقاييسك كما لو كان قلم طه حسين ـ اي طه حسين ـ قاعدة لاتعترف بالحدود والسدود بين الانواع الادبية ، لان المهم ان تخلق اثراً ، ان تكون اسلوبا ، ولتسم ذلك بما تشاء .

والا فبم تسمى «الايام» اشهد انها ليست قصة ، ولكنها من أحسن القصص .

وتمتد الموهبة المتشابكة من القلم الى اللسان فتهيىء لصاحبها من السحر مالم يتهيأ لاحد من أبناء عصرنا الحديث . والسعيد السعيد من كتب له أن يحظى بشىء من هذه النعمة .

لقد وقف طه حسين ذات مرة يؤبن مصطفى عبد الرزاق فكان الفخور منا من فاز بحيز من قاعة جامعة القاهرة ... حتى اذا شرع الساحر ينفث من لسانه كنا ـ كلنا ـ نفساً واحداً يتصل وينفصل بمقدار ما يتصل نفس طه حسين وينفصل .

مر على ذلك نحو من ربع قرن ، حتى اذا بلغك النبأ كان من بين المشاهد البارزة المستثارة في نفسك ... فقد كان لبنة من ركن اقامه طه حسين في بنائك ... اما الحجر الاساس فما زلت تذكر حفل وضعه :

لقد كنت في الصف الثاني من متوسطة الحلة ودخل الاستاذ المهنا يحمل كتابا يعتز به وشرع يقرأ : «لايذكر لهذا اليوم اسما ...» انك لترى هذا اليوم البعيد قريبا فتحفظ لاستاذك اليد وتعترف بالفضل ....

ويستمر العرض من هذا المنطلق ويستمر ... حتى تلتقي بالنبأ مرة أخرى ... وتلتقي ولايخفف من وقع النهاية الا سعادة البداية ...

ويكفيه أنه استثمر ما وهبته الطبيعة خير استثمار ، وانه تمرد على ما حرمته اياه فسخر المفقود للموجود ... ويكفينا أننا ظفرنا به ... وأنه بيننا ...

الاقلام ـ الجزء المزدوج العددين السابع والثامن ١٩٧٤

محمود السعران ؟



ان كنت تعرف عنه شيئاً فزودناه ، فهو جدير بالتعريف حقيق بالتنويه قمين بالذكر . اقول هذا وانا لاعرف عنه الا القليل القليل ، ورب قليل دل على كثير واشار الى غزير والمح الى كبير . واعرف اكثر من ذلك انه من المغموط حقهم المنكور فضلهم المنسي وجودهم . ومن العيب والعار والنقص ان يسود الغمط ويعيش الجحود ويستمر الظلم ...
ويصدر عام ١٩٦٢ :

«علم اللغة ـ مقدمة للقارىء العربي . تأليف دكتور محمود السعران استاذ مساعد بكلية الاداب بجامعة الاسكندرية . مطبعة م . ك الاسكندرية . دار المعارف بمصر ـ ٤٩٤ ص» .

تنظر فيه فترى اخلاص الرجل ـ وربما الشاب ـ وجده وانصرافه وسعة علمه بين القديم والجديد والعربي والغربي . وحرصه على الاحتفاظ بالاصيل من تراثنا اللغوي الذي يعدل حرصه على تزويدنا بالجديد مما آل اليه العلم الغربي .

«النظر في اللغة وطرق درسها جد قديم ، وللعرب في ذلك آثار كبيرة معروفة (...) ولكن الدراسات اللغوية في اوربا نشطت (...) فأصبحت منذ حوالي نصف قرن ـ «علما» مستقلا ، متفرد المناهج متخصص الوسائل» .

وهكذا فعل ، واحسن وأجاد . وبعد تمهيد في «نحن وعلم اللغة» نقرأ : علم اللغة موضوعه وماهيته ، علم الاصوات اللغوية ، النحو ، علم الدلالة او دراسة المعنى ، تاريخ الدراسات اللغوية ، معجم المصطلحات ، والمراجع الانكليزية والفرنسية والعربية ...» .

اريد اقول ان الرجل انطلق كما يجب في جمع الجديد الى القديم والغربي الى العربي ... وما سبقه احد الى هذا قبله على هذه الدقة والصرامة والوضوح والتخصص ، وما لحقه احد بعده على هذه الدقة والصرامة والوضوح والتخصص .. والتواضع .

ولو القيت نظرة على الكتاب لرأيت من المصطلحات والاعلام ما تعده بها مبشرا رائدا . واذا كنا اليوم نلوك اسم دي سوسير وسابير والمورفولوجيا والسيمولوجيا ، عن علم وغير علم ، عن معرفة بها وحدها او عن معرفة بنحونا وحده ، فأن السعران تحدث عن علم ودقة ، وعن جمع بين علمهم وعلمنا . وكنت ـ وما زلت ـ اود لو استمرت دراساتنا اللغوية من هذا المنطلق . نفقه ونبحث ونتوسع ونؤصل ونبدع ـ ولكن «ما كل مايتمنى المرء يدركه» فظل القديم قديما ، واذا خرج خرج بدون علم كاف ومن غير عقل واف او منهج صاف .

ثم جاءت الموجة التي تلقفها اخواننا في المغرب العربي وفي تونس خاصة من عل وعلى غير جذور فراحوا يمطروننا بالمصطلحات والاسماء ... ولعلهم نظروا في امرهم ، بعد حين فعادوا الى حيث يجب ان يعودوا اليه ، وربما ظهر اثر لذلك على اعمال الدكتور المسدي .. لعلهم .. ولكن يبقى السعران بدءا منيرا . وعلامة مضيئة ، وريادة لاتكذب اهلها ، وعملا جديرا بالذكر .. ويصعب اللحاق به .

يحدثك السعران في هذا الكتاب القيم جدا في «علم اللغة» عما كان للعرب من اسس العلم ، ولايتيسر هذا على الوجه اللائق الا لمن وعى اسس العلم الغربي ويحدثك خبيرا عن أحدث ما آل اليه علم الغرب في

عهده ، والذي آل اليه في عهده ليس قليلا ، فهو أسس ما شاع بعده وذاع ، واصل من تفرع وتشعب .

ولك ان تلقي نظرة على «المحتوى» او على «المصادر» او على فهرس «الاعلام» لترى الكثير الكثير مما لم تكن تحسب وجوده لدى باحث عربي ، ويكفيك ما ترى عن مدرسة براغ ومدرسة كوبنهاكن .. وعن علماء بين روسي وبولوني وانكليزي .. ومن كل مكان سمت بعدد منهم ولم نذكر - مثلا - تروبيسكوى وجاكوبسون «ياكوبسون» وعشرة آخرين .

والسعران نفسه تلمذ على فيرث - من المدرسة الاجتماعية الانكليزية التي «تعتمد اعتمادا كبيرا على اراء برونسلاومالينوفسكي العالم الانثروبولوجي البولوني» .

ولسنا بصدد الاسماء فهي كائنة في الكتاب ، هي ونظرياتها واثارها وسلسلة التلمذة فيها ... لسنا ... ولكن الذين يتحدثون من شبابنا عن علم اللغة متابعين اخواننا في المغرب العربي ركضا وراءهم . وتصرفا بما تصرفوا به ... هؤلاء وهؤلاء ينطلقون من دي سوسير ، والانطلاق ليس خطأ . ولكن به حاجة الى علم اسبق .. وبالاسبق . والسعران هو الذي يضع لنا - مبكرا - نقاطا على حروف يقول السعران «يبني» دي سوسير نظريته الاجتماعية في اللغة على اساس نظرية دوركيم الاجتماعية . ودوركيم يعتبر ما يسميه «نشاط الجماعة» او «النشاط الجماعي» مستقلا عن اي فرد من الافراد الذين ينتمون الى المجتمع :

ان للفرد عند دوركيم وجودا خاصا به ودوركيم يقرران «الظواهر الاجتماعية» ذات وجود خاص بها ، واللغة ظاهرة من جملة الظواهر الاجتماعية ، ويرى دوركيم ان لخصائص السلوك او لـ «سماته» وجودا مستقلا ، وان الانواع العامة للسلوك الاجتماعي لاتعدو ان تكون «تعميمات» .

ان ماقرره «دوركيم» عن «الظاهرة الاجتماعية» يصدق على «اللغة» في نظرية دي سوسير اللغوية» .

اجل ، وفي كتاب السعران اشياء كثيرة مركزة وطيدة يبدأ فيها مع بدء الانسان يقف معها عند الاغريق ويسير ولاينسى المدرسة الامريكية .. مما يحسن ان يعلمه جيدا القارىء العربي عموما ، والقارىء العراقي خصوصا ليستند عليه وليحمي نفسه من المغالطات والتصرفات وليواجه الموجة العارمة الجديدة .. يبقى السعران رغم عتوها وغلوها او لعتوها او غلوها بدءا منيرا . وعلامة مضيئة ، وريادة لاتكذب اهلها .. ويبقى منهجا سليما ..

وماذا تعرف عنه ؟ واذا كنت تعرف عنه شيئاً فزودناه ! ان السعران يسدي - في مقدمة كتابه الشكر مخلصا الى صديقه وزميله الدكتور محمد ابو الفرج بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، لقاء ما هيأ له من المراجع والابحاث اللغوية الحديثة التي عاد بها بعد انتهاء دراسته في لندن واين هو الدكتور ابو الفرج ؟

وهل يحدثنا عن صديقه وزميله ؟ اخشى ان يكون الذي في الذهن عن سماع من شخص ما او قراءة في مكان ما ... اخشى ان يكون صحيحاً ، اخشى ، ولا اجرؤ على التصريح به طمعا بتكذيب الإذن وسعيا لتغليط العين !

لقد كان السعران في كتابه «علم اللغة» عالما عاملا ... فقه القديم وراد لنا الجديد .. ولابد من ذكره كلما ذكرت الدراسات الحديثة . ودل بها علينا المتأخرون بالريادة والابداع والتميز ..

ونبدأ بالبداية :

واول مرة وقعت العين على اسم السعران في بحث له بعنوان «اللغة والمجتمع» منشور . «في العدد الاول من مجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ببنغازي» وحسبته اول الامر ليبيا ثم اتضح انه

مصري ، مدرس بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية انتدب للتدريس في ليبيا .

وكان البحث في اصله «محاضرات في علم اللغة» القاها «على طلبة معهد العلوم الاجتماعية بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية» واصل العناية بها ونماها وزادها تحقيقا فكانت ذلك البحث المقدم الى المجلة لينشر «في يونيو ١٩٥٧» واذ تأخرت المجلة عن الصدور في الموعد رأى ان ينشره كذلك مستقلا في كتاب ، وكما صدرت المجلة . صدر الكتاب وهو مازال في بنغازي ـ المطبعة الاهلية ـ بنغازي ١٩٥٨ ـ ١٣٠ ص مع مقدمة قصيرة فيها وضوح وتواضع .

ومن المامة بالكتاب نعلم ان السعران قد درس علم اللغة في انكلترة وانه كان هناك من ١٩٤٨ ـ ١٩٥١ وانه فقه هناك احدث ماساد من النظريات . وانك لواجد في مصادره : دي سوسير . ويسبرسن وبلو مفلد وسابير وبياجه ـ فضلا عن استاذه فرث (Firth) .

وللجماعة الذين يدلون بالبنيوية وعلم الدلالة نذكر لهم من موضوعات الكتاب : «العلاقة بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية» ونذكر «التغيرات الدلالية» .

ثم ان السعران قد حصل على الماجستير من جامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٧ برسالته : «الصناعة الشعرية في العصر الجاهلي من حيث الموسيقى وبنية القصيدة» ـ لم تنشر !

ونعود الى النهاية :

فما هذه الكلمة بدفاع عن البنوية وماهي بهجوم عليها .. وانما هي تذكير بمن حقه ان يذكر فيها خصوصا لدى ادلال متأخرين عنه بها . وفي علم اللغة عموما فيما كان يجب ان ينطلق منه عندأنا ، ويتطور عليه ، وشكرا ـ سلفا ـ لمن يزيدنا علما بجندي مجهول .

اجل ، ولابد من ارجاع الحق الى نصابه في بدء الريادة العربية

المتخصصة في علم اللغة الى من نسي في خضم الادعاء العريض الذي ورد علينا من المغرب العربي باسم الهيكلية (البنيوية) والاسلوبية .. وعلم الدلالة (السمانتك) .. وكأن لم يكن هناك سابق جادات اخذ العلم على اصوله ـ وارجاع الحق الى نصابه واجب على اهل المشرق واهل المغرب .

ويتم الامر ويستوي على سوقه باعادة طبع السعران ليكون اساسا ومنهجا وقدوة .. يليه جزء ثان يتطوع به من يأنس في نفسه العلم والموضوعية والتواضع والمنهجية ـ فردا كان ام جماعة ، من المشرق ام من المغرب ام منهما كليهما ـ يكمل الصورة فيما جد عليها من خير وشر ، وحق وباطل ـ اجل .. فالمؤلف الذي نطلبه ، نريده كالسعران ـ عالما معلما ، لاداعيا متنطعا .. مدعيا .. يغضي عما شرع يتضح على «البنيوية» من كسوف ـ وبالانتظار ..

ـ اخشى ان يطول الانتظار .

ـ اخشى ماهو اكثر من ذلك !

الجمهورية ـ ١٩٨٥/٦/٢١ ـ نشره
محرر الصفحة بعنوان : من هو ؟
هل تعرفونه ؟

البحث عن «وفاة» الدكتور محمد غنيمي هلال



كنت في «الرياض» وحدثني محدث عن نهاية الاستاذ الدكتور محمد غنيمي هلال على وجه مؤسف ، مؤلم «مأساوي» ، لايشرف واقعنا ولايسمو بضميرنا ومضت ايام ، وكرت سنون واعود ـ ونعود ـ بين الحين والحين وبين المناسبة والمناسبة ، الى كتاب من كتب الاديب الباحث الفقيد . وربما كان اول عهدي بها ـ وبه ـ يوم قرأت له اوائل الستينات محاضراته في تعريف «الادب المقارن» والتبشير به وبـ «المواقف» التي يعالجها بعد ان القاها على طلبة «معهد الدراسات العربية العالية» بالقاهرة . قرأتها ، أجل قرأتها فرأيت فيه فهما صحيحا مستمدا من منبعه ، فقد درس الرجل في السوربون وحصل على دكتوراه الدولة منه بموضوعين (كتابين) في الادب المقارن ـ ويبدو ان ذلك جرى سنة ١٩٥٢ ، بل انه لكذلك ويحدثك هلال حديث العارف ، وليس ذلك غريبا على مثله . وليست المسألة فيما انت ازاءه منه مقتصرة على المعرفة التي يمكن ان تكون تحصيل حاصل ، وانما في تمكنه ، وفي شخصيته التي تطل من وراء السطور والاراء والمنهج ، وفي خلق رضي وسلوك حبيب وثقة بالنفس من غير غرور .

وتطلب منه ـ وله ـ الزيادة ، وترجو المثابرة وحسن الاستثمار والارادة في الموازنة بين مهنة «استاذ النقد والادب المقارن بجامعة القاهرة» وموالاة التأليف والنشر ـ وقد تحقق الطلب ويكفي انه بلغ في الترقيات العلمية درجة الاستاذية ونالها بحق وحقيق ، واصدر فيما

اصدر : «المدخل الى النقد الادبي الحديث» عام ١٩٥٨ وظل يعيد طبعه ويزيد فيه حتى اكتمل وصار اسمه : «النقد الادبي الحديث» .

«ومازالت غايتي الاولى من هذا الكتاب هي غايتي من كتبي الاخرى في النقد وفي الدراسات المقارنة ، الا وهي دعم الوعي النقدي ، باقامته على اساس نظري وعملي معا ، عن ايمان بانه لاغنى عن الجانب النظري في النقد بعد ان اصبح علما من علوم الدراسات الادبية كما هو شأنه اليوم بين اهل الآداب العالمية ...»

ودخل الكتاب في تكوين الاديب العربي ، وشرعت طبعاته تتكرر . وتبقى تنتظر توأما له في تطور لما كتب في مواد الادب المقارن ، ويتحقق الامل ، ويصدر كتاب «الادب المقارن» مكتملا يؤدي للقارىء العربي أجل خدمة في ارساء المفهوم الصحيح خلال الشواهد السليمة . وانساب الكتاب في كيان الاديب العربي ، وطفقت طبعاته تتعدد ـ وهلال عميد «الادب المقارن» لدينا دون شك ، رائدا واكثر من رائد .

وتوالي شجرته الثمر الناضج ترجمة وتأليفا ، نظريا وعمليا ، وليس شيء من هذا بسهل لمن يعرف مهام الاستاذية ومقتضياتها وانها كثيرا ما عاقت ابناءها عن النشر والتأليف والاصدار ، نذكر من مؤلفاته : الرومانتيكية ، الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية ، النماذج الانسانية في الدراسات الادبية المقارنة ، في النقد المسرحي ، دور الادب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر ، في النقد التطبيقي والمقارن ، قضايا معاصرة في الأدب والنقد ، دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده .

ومن مترجماته عن الفرنسية ما الأدب ، فولتير ، بلياس وميلزاند ، رأس الآخرين ، عدو البشر ، فشل استراتيجية القنبلة الذرية ، الدعاية قوة سياسية جديدة .

ولابد ، ولابد ، من ان تكون له مقالات وبحوث هنا وهناك في طوايا

المجلات ، مازالت تنتظر من يجعمها في كتاب . فضلا عن رسالتيه اللتين بقيتا باللغة الفرنسية ، ودراسة اخرى ـ باللغة الفرنسية عن الدراسات المقارنة في الجمهورية العربية المتحدة .

ليس هذا بالقليل ، وانه لما يقل فيه النظير ، ومن ثم يكبر صاحبه ويكرم .. ويشكر . ولكن الذي حصل هو العكس ، ويؤلمنا ان يكون عميد الادب العربي الاستاذ الدكتور طه حسين على غير المنتظر منه في مثل هذه المواقف .. ويموت الدكتور محمد غنيمي هلال وهو في اوج نشاطه وعز آماله .. وفي أوج حزنه وشعوره بالغبن .

كنت في الرياض ، وحدثني محدث عن نهاية الاستاذ الدكتور محمد غنيمي هلال على وجه مؤسف ، مؤلم ، مأساوي ، لايشرف واقعنا ولايسمو بضميرنا .. وكان الألم يزداد عمقا لو فصل محدثي في كلامه ، وبلغ به طه حسين ، وقال ان الدكتور طه حسين ينكر على رجل كالدكتور هلال وهو العارف بالفرنسية والفارسية والانكليزية ـ علمه باللغة الفرنسية ؟ ! ويستكثر عليه كرسي «الادب المقارن» في دار العلوم من جامعة القاهرة ! لا ، لا يا أبا مؤنس .

وكان من حسن الحظ ان وقف محدثي حيث وقف ، وليس يسيرا على محب لطه حسين ان يسمع مايعكر الحب ... والافغي تسويغ موقفه مايزيد العكرة عكرة .

ومن الخير لنا وللدكتور طه حسين ان نطوي الصفحة او نتركها للاخرين .. لان هدفنا الاول : الدكتور محمد غنيمي هلال ، في التنويه بمجده ، والتكريم لذكره ، والدعوة لحقه ، والسعي الى كتابة كلمة عنه تنصف مظلوما وتدفع مسؤولية وتنبه غافلا ، وتستثير باحثا . ان الدكتور محمد غنيمي هلال موضوع رصين لرسالة في الماجستير او الدكتوراه . ولم لا ؟ وكيف سيتحدث العرب غدا عن مولد نوع ادبي كامل لديهم وهم يجهلون اباه المعلوم !

لقد فقدناه وانتهى الأمر بالنسبة اليه .. وعلينا تقع تبعة الباقي .. ولكن ـ ونحن ننتقل الى البحث الاكاديمي المنهجي ـ متى توفي الدكتور محمد غنيمي هلال ؟ وارجع الى الذاكرة استثيرها عن تاريخ «حديث الرياض» فلاتكادتــومىءبشيء ، وتكاد تستقر على اواسط الستينات ، ولاتنفع الذاكرة في منهج البحث ، ولايجدي التخمين . ولم يبق ـ اذاً ـ غير الزركلي في كتابه الضخم الجليل القدر «الاعلام» . واخف اليه في احدث طبعاته (١٩٧٩) ، حرف الميم ، محمد ، محمد غنيمي .. ولا من أثر ، وحتى انت ياأبا غيث ؟ !

وأسأل هذا الزميل المصري وذاك دون جدوى ، وبرق بارق في الذهن : الكتابة الى «دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ الفجالة ، القاهرة ...» استعين بها وهي التي طبعت ـ واستثمرت ـ آثاره حيا وميتا ، وقد استعنت ، وما من جواب للرسالة وماعقب البرق مطر .

وتظل الحاجة قائمة في النفس مصحوبة بالألم ، هذا الرجل الكريم الذي اعطى الكثير وخدم الكثيرين ، وتميز في بحثه وطاقته ، يموت كمدا ـ كما قيل لي ـ ، ويمضي كأن لم يكن ! ويجهل العلماء حتى تاريخ وفاته ! أمر مؤسف ، مؤلم ، مأساوي لايشرف واقعنا ، ولايسمو بضميرنا .

وتظل الحاجة قائمة ، بموحياتها ، في النفس ، حتى تبلغ السؤل من حيث لا تنتظر وعلى غير قصد ، وقد قيل «لايضيع حق وراءه مطالب» ، أجل ، وفي كتاب وصل اليَّ من غير سعي اليه : «ملامح الادب العربي الحديث» لأنطون غطاس كرم ـ بيروت ، دار النهار للنشر ١٩٨٠ ، واجد في عرض صفحاته غاية عزيزة ، واحفظ عام ١٩٦٨ تاريخا لوفاة الدكتور محمد غنيمي هلال ، وأمضي على أمل العودة ، وها انذا اعود طمعا بتاريخ الميلاد واحسب ان الدكتور كرم ثبته ، ولكن في اية صفحة ؟ وخانتني الصفحات التي طويت زوايا منها على أمل العودة

اليها لأهمية خاصة ، اترى فرح النفس بسد حاجتها «أعماها» عما هو اكثر ؟ عليها ـ اذأ ـ ان تجهد وتجد في البحث ، وها هي ذي تقع على الحاجة الجديدة (ص ٧٠) : محمد غنيمي هلال ١٩١٦ ـ ١٩٦٨ . لقد فقدناه ـ اذن ـ وهو في عز نضجه وعطائه ، في الثانية والخمسين . آه ثم آه !

الجمهورية ـ ١٩٨٥/٧/١
ينظر تعقيب الاديب محمد صالح عبدالرضا في الجمهورية ١٩٨٥/٧/١ وفيه يشير الى مقالة عن «هلال» في مجلة «المجلة» المصرية ـ العدد ١٤١ ، ايلول ١٩٦٨



طه حسين يستصعب النثر .. !



طه حسين ، وهل يُعَرِّف العَلَم ؟ وإذا قلت إنه كاتب العصر ، وإنه نابغة النثر العربي الحديث ، وإنه .. وإنه .. فانك لم تبالغ ، ولاتجد من يناقشك ، او يناقشك طويلا .. ـ مالم يكن في قلبه مرض ، وما نحن وهذا في شيء .

كتابته السحر الحلال ، عجزت ـ وتعجز عن مثل سحره النثري الدهور ، مفخرة العربية ، والمقالي المبدع العالي الابداع الذي يُزهى به النوع ، لفظاً ، وبناء ، من البدء حتى الانتهاء ، تسلسلا . تتكرر على لسانك كلمة «السحر» لأنها التي يهديها الى لسانك قلبك ، والا فالصفات لاتعد ولاتحصى اقلها التمكن والسيطرة والادارة والتصرف . وتمضي في الصفات فترى الخيال والتصوير وترى الدهاء او «المداهاة» ـ إن صح التعبير مع القارىء ، وترى سمات من القصص ، وسمات من المسرح ، وسمات من الخطابة .. ومن كل شيء ولا ولن تنسى الشعر .. واذا قلت الشعر قلت الموسيقى ..

وقد هامت بنشره أجيال ، وستهيم به اجيال .. تعجب وتدهش وتتعلم منه وترى فيه القدوة .. والقمة ..

وجيلك وغيره في غنى عن تعداد المقالات التي لاتكاد تعد ، وكان من حسن حظنا وحظك ان جمع عدد كبير منها في كتب كثيرة زينتها عنوانات جميلة .. ونثره في مقالاته الاخرى ، وفي قصصه بل في بحثه ودراساته .. جميل اخاذ خلاب ..

ونعود الى «السحر» لأننا لانملك غيره جماعاً لما نملك من صفات ولانملك ما هو أدل منه على مايخفى علينا من صفات ثم إننا لسنا بمعرض دراسة اسلوبية - وهي صعبة وصعبة جدا - وإنما نحن فيما هو اقل من ذلك وأقل .. اننا فيما قد تدهش إذا صارحناك القول الاكيد ، وفاتحناك بما لم تكن تحسب ان تفاتح فيه .

- ماذا ؟

- استصعاب طه حسين للنثر . إنه رآه صعبا ، ومركبه عظيم ، يدخل في استحالة تعلمه ويخرج الى استعظام من يزاوله . آه النثر ! عجيب هذا ! وعجيب من يكتبه ! وأين أنا منه ! لا ، لن يتأتى لي ، ولن أزاوله يوماً ، انه مقدَّر لغيري .. وهنيئا مريئا لهذا «الغير» .

يقولها بحسرة من الاعماق ، حسرة من يستعظم الشيء ويحس بفقده ويطمع بشيء - ولو قليل - منه ،. وأين أنا منه ؟ وانه مقدر لغيري . اما أنا فشاعر فقط . أجل شاعر وفقط .

وهذا هو شعور طه حسين . الشيخ طه حسين الطالب الأزهري ، انه شاعر بدليل انه ينظم القصائد ، وقد تأتيه القصائد طوالا بلفظ ومعنى ، ووزن وقافية في مناسبة التهنئة او التعزية ، الفرح او الترح ، وفي غير مناسبة . وماعليك الا ان تطلب الى الشيخ طه . قصيدة . حتى يأتيك بها موزونة مقفاة .. لأنه يرى في نفسه شاعرا ، وانت ترى فيه شاعرا ، ومن حوله من أزهريين وغير أزهريين كذلك - بغض النظر عما سيكون هذا الشعر فيما بعد ، والنثر خير منه ، وهو نثر رديء - تلك مسألة فيما يراه عليه الآخرون .

ويفرح إذ ينظم ، ويفرح إذ يستمعون اليه ، ويعجبون ، ويفرح إذ ينشر ذاك الذي نظمه ..

ولكن فرحه لايدوم ، ولايصفو ، فما بالشعر وحده يعيش العصر الجديد ، واذا كان قد ملك الشعر فلم لايملك النثر ؟ ماباله يحضر كل

شيء ليكتب كلمة من النثر فما تنجده قواه او تعينه وينكص ويخيب ويخفق .

لا .. إن المجد للنثر ، وان النثر لأمر صعب ، وصعب جدا .. وامره عظيم وعظيم جداً .. ولابد من سر .. وقدرة قدير .. وإلا فلم يذل لفلان ولايتأتى لفلان ، مايكاد فلان الأول يمسك بالقلم حتى تمتلىء الصفحات كلاماً نثراً حلوا ، ويعمل فلان الثاني المستحيل فما يجري قلمه بسطر . أجل ، وفي المسألة سر ، وإن النثر أمر صعب جداً ، والناثر محسود مغموط .

ولم يحدثك بهذه الحال المستغربة التي تدهشك خير ممن وقع تحت طائلتها وعانى منها ما عانى وتمنى من أجلها ماتمنى وخبر من شأنها ما خبر ولنتذكر صداقة في الأزهر عقدت بين ثلاثة شيوخ شباب هم : طه حسين واحمد حسن الزيات ومحمود زناتي ، وكان طه حسين شاعرا فقط يرى في النثر اعجوبة الأعاجيب «وأصعوبة الاصاعيب» . وكان احمد حسن الزيات الناثر الذي يدهش طه حسين بنثره ويرى فيه عجبا من العجب .

ولم يرد الخبر مختلقا على طه حسين لأنه هو نفسه الذي حدثنا ـ ولا يحدثك مثل خبير ـ ولابد هنا من طول الاقتباس .

قال : «كان هؤلاء الثلاثة قد اتفقوا على الضيق بالدرس الازهري القديم ، والابتهاج بما لم يكن مألوفا في بيئات الازهر من درس الأدب والعناية به ، وقراءة الصحف والاغراق فيها ، ومن التطلع الى ماكان يقوله ويأتيه المثقفون الممتازون اولئك الذين يدبجون الفصول [المقالات] في الصحف ..»

«وكانوا في حياتهم تلك ، كما كانت الشعوب الاولى في حياتها ، اصحاب حس وشعور ، واصحاب قلوب تتأثر ، ونفوس تتغنى ، وكانت عقولهم غافلة او كالغافلة ، فكانوا ينشئون الشعر وينشدونه ، وقلما

يفكرون في النثر ، فان فكروا فيه فقلما يحاولونه ، فان حاولوه فقلما يجيدون . وكانوا لايخطر لهم موضوع الا تناولوه مسرعين فنظموا فيه الشعر (...) وكانوا يحسون انهم ضعاف في النثر ، وانهم في حاجة الى ان يأخذوا منه بحظ ، وكان الزيات يحاول ان يقوم من صاحبيه مقام الاستاذ ، لأنه كان أحب منهما للصحف ، واكثر منهما عكوفاً عليها واغراقا في قراءتها ، ويجب ان نعترف بالحق ، فقد كان اوسع منهما صدرا للتجديد ، يحب الكتاب المحدثين وماكانوا يحدثون من الاداب ، على حين كان صاحباه يكلفان من الادب بقديمه ، بل بأقدمه (...) .

كان الزيات إذن يقيم نفسه من صاحبيه مقام الاستاذ في النثر ، وكانا لايتحرجان من ان يقرّا له بهذه الاستاذية ، فاذا اراد ان يزعمها لنفسه في الشعر كان الجدال والنضال (...) .

وفي ذات يوم اقبل الزيات يقترح على صاحبيه التفكير فيما ينبغي لهم من العناية بالنثر ، ويبين لهما ولنفسه اسباب هذه العناية ومذاهبها ، ويرى ان ليس الى ذلك من سبيل الا ان يفعل الثلاثة كما يفعل الطلاب في المدارس ، حين يعالجون الانشاء ، ويعرض عليهما وعلى نفسه هذين الموضوعين :

«الحالة الحاضرة» : و «مصر في الصباح» . وكان يقول ذلك جادا كل الجد ، مؤمنا كل الايمان ، وكان صاحباه يسمعان له في موقف بين الجد والهزل ، يريدان ان يكتبا ويعلمان انهما لن يستطيعا . فيقدمان ثم يضطران الى الاحجام ويستران ضعفهما بالهزل والعبث ، ثم يفزعان الى الشعر فينظمان منه ماشاء الله لهما ان ينظما بين الجيد والسخيف . وكانت الايام تمضي وتمضي ، والاصدقاء يلتقون ويتحدثون في النثر ، والزيات يقترح الكتابة في الحالة الحاضرة ومصر في الصباح ...» ـ «من لغو الصيف الى جد الشتاء» .

في هذه السطور ـ وقد اطلنا في الاقتباس ضرورة ـ عجائب وغرائب

يهمنا منها طه حسين في النثر . اما الزيات فأمره منسجم معروف بقي متمكنا من النثر وسار نابغة فيه . واما محمود فلم نعرف من امره شيئا يذكر واقل ما في امره انه لم يعرف في اي من لوني الادب .. ويهمنا بعد ذلك ، وقبل ذلك امر طه حسين هذا الذي كان يستسهل الشعر ويستصعب النثر كيف اخفق شاعرا ونُسي في الشعر ، وكيف سما ناثرا وابدع في النثر ؟.

والموضوع يطول ، والجواب لايقف عند حد واننا لنقف ـ وهو الاحسن والارصن ـ عند البدء تاركين البقية الطويلة ـ لما عرفه القارىء من شؤون طه حسين وماقرأه له وعنه .. ولمن يتولى المهمة على وجهة الباحث الجامعي . والمهمة جديرة بالبحث ، وفي مكان طه حسين من النثر عبرة ومعجزة او عبرة كالمعجزة ولاننسى فضل النظم القديم في عناصرها المتكاملة .

الجمهورية ـ ١٩٨٥/٩/٩



ماذا تعرف عن ميلاد الدكتور خفاجة ؟ !



ـ وماذا يهمك من ميلاده ؟ ايهمك الى هذه الدرجة ؟
ـ لم لا ؟ ان الوفاً ممن نعرف تاريخ ميلادهم باليوم ـ وربما بالساعة فضلا عن الشهر والسنة ولايعدلون شيئا من الدكتور خفاجة . ونعرف مكانهم بالحي ناهيك عن البلدة والقطر ولا يدانون الدكتور خفاجة فيما قال وفعل . هذا الى ماللزمان والمكان من دلالة في الدراسة واشارة الى النبوغ ... وقد يشيران الى وفاء الاجيال لدى حفظهما .

لقد فاجأتك ، انا ، بالسؤال وتعجلت ، انت ، بالجواب ... وما احسبك فكرت فيمن يكون الشخص المسؤول عنه ؟ واحسب كثيرين ممن يدعون العلم يجهلون هذا المسؤول عنه حتى لو ذكرته لهم باسمه الثلاثي : محمد صقر خفاجة ويجب ان نعرفه لأنه بهاء وسمة نقاء .

في ذهني ، وربما في علمي ان الرجل اخترم ، وان المنية عاجلتنا به ، وحمل على مفارقة الدنيا وهو في عنفوان نشاطه ونحن في اوج الامل منه بالمزيد والابداع وبما لايستطيعه غيره ، لأن هذا (الغير) لايملك مايملك من علم اكيد باللغة اليونانية ومن امانته وصبره واناته وحكمته ... وأنى لغيره ممن شغل نفسه بالادعاء وفساد الذمة والجرأة على الحق والشجاعة في الباطل ... أنى له ـ او لهم ـ بقليل مما له ، وبقليل مما

حقق رغم قصر في العمر وكثرة في العمل ومجتمع يعج بالحساد والعاطلين والنفاخين والمبتزين .

أجل ، ففي الذهن ، وربما في العلم ، ان الدكتور محمد صقر خفاجة نابغتنا في اللغة اليونانية وما قرأ فيها وترجم عنها ودرس فيها والف معتمدا على مصادرها ... في الذهن ، وربما في العلم ، ان نابغتنا توفي قبل أوان الموت ، فاضطر على مفارقة الدنيا وهو منا في عنفوان مشروعاته ونحن منه في اوج الامل فيه .

كنت اتمنى ان تكون قد قرأت له مما كتب ، ووقفت على ماترجم ... وانت تدرك معنى ان يعلم الاديب الباحث منا اللغة اليونانية وان يترجم لنا روائع إغريقية عن لغتها الام وان يحدثنا عن ادب تلك الامة بالرجوع الى نصوصه ومصادره وبالاعتماد على الثقات من المتخصصين فيه ... اتمنى لك ذلك ، كما تمنيته لنفسي ولأعز الاصدقاء عندي لضرورة في ان نتصل بهذا الادب العظيم بوسيط أمين .. بعد أن طال اتصالنا به اتصالا غير مباشر ، وغير امين في أحيان كثيرة وعلى يد مدعين مشعوذين سخفاء في احيان اخرى ... قلت : (اليونانية) ونسيت ان اضيف اليها اللاتينية والفرنسية والانكليزية . الم اقل لك انه نابغة ، وكيف يكون النابغة إن لم يكن الدكتور محمد صقر خفاجة ؟ وربما لم يكن الوحيد الذي عرف (لغة) ولكنه عرف وعمل ، وربما لم يكن الوحيد الذي عرف وعمل ، ولكنه الوحيد - وقل من القلائل جدا - الذين اذا علموا وعملوا نفذوا الى قلب القارىء ، ونفسه وعقله . والنفاذ الى القلب امر صعب ، وصعب جداً لأنه يستلزم في صاحبه موهبة خاصة فيها من الفطرة والطبيعة شيء ومن النشأة والتربية شيء ومن الخلق والسلوك شيء ... ولابد من أن يكون محمد صقر في الطليعة من اولئك وفي الطبقة الاولى من طبقاتهم .

اول مرة رأيته - اي قرأته - فيها كانت في كراس صغير ينطوي على

(أيون) افلاطون ، جاء اسمه مقدماً في الترجمة على اسم الدكتورة سهير القلماوي ، فكانت رؤية عابرة حمدت فيها للدكتورة القلماوي ان تشرك معها في ترجمة اثر إغريقي عارفاً باللغة الاغريقية ... وكان المفروض بأيون ان يأتي رأس سلسلة ولكن السلسلة لم تأت .

وانتهى الامر ولم ينته ... فهو يكتب عن (هوميروس) وينقل عن (سوفوكليس)و(ارستوفانيز) ... ويكرر الكتابة ويعاود الترجمة ... واذا كان هذا قد حدث على غياب مني عن الكتاب العربي ... فلا يطول الغياب ... ولابد من وصل ما انقطع ... ولقد دل القليل على الكثير ووشى الاثر بالمؤثر - والمؤثر عالم تحترمه وتقدره وتحبه ، وتحس بالحزن لرحيله وبالالم لفقده ، عالم تحبه خلال القليل فتبحث عنه في الكثير وعلى المرء ان يسعى .

وهذه مصر تعتزم مشروعا ضخما اسمه (الألف كتاب) ولابد من أن يكون في الالف واحد عن (تاريخ الادب اليوناني) ولابد لمصر - وهي في مشروع جاد جداً - من أن تلجأ الى دكتور محمد صقر خفاجة لتأليف كتاب (تاريخ الادب النيوناني) وهكذا كان ، وصدر الكتاب سنة ١٩٥٦ .

تراه لأول وهلة كتيبا بمئتي صفحة من قطع غير كبير ، حتى اذا أقبلت عليه وجست خلاله وجدته ضخما ، غزيراً ، يلخص المطولات دون ان يفقدها ماءها ، يوجز وكأنه يسهب ، وييسر - على كل حال - متمثلا ، مسيطرا ، سيداً ... في اناة وشوق ... عصور الادب اليوناني ، شعر الملاحم ، الشعر التعليمي ، الشعر الغنائي ، المسرحية ، التاريخ ، الخطابة ، الفلسفة .

تقرأ ولاتمل ، لأنك تستمع الى ثقة صدوق ، وتعايش استاذاً صديقاً ... تحبه . أجل تحبه وهذه هي (المشكلة) فقد كنت تود لو طال الحديث وطال ... ولو ان محمد صقر انتقل منه الى مثله .

ولم يطل الحديث ولكن محمد صقر ينطوي على ما لاينقطع من

المشروعات وها هو ذا كتابه (شعر الرعاة) اراده في طموحه حلقة اولى من سلسلة (الادب اليوناني في عصر الاسكندرية) ولكن الحلقة الثانية لم تولد . ولابأس ، فهذا مشروع اخر (النقد الادبي عند اليونان) يصدر منه الجزء الاول ، ولكن الجزء الثاني لم يصدر .

وهكذا ما يكاد فرح يحل ويشرع يعم حتى ينقطع مع اسف شديد وحزن عميق ... لايخفف من الشدة الا بحث جديد او ترجمة جديدة ... وهكذا كان فيما كان (دراسات في المسرحية اليونانية) تأليفاً وترجمة عن اليونانية ، و (شعراء الاسكندرية) للجران ترجمة عن الفرنسية ، ولابد من أن يكون له غير هذا وهذا . لابد فهو (استاذ الدراسات اليونانية واللاتينية بكلية الآداب بجامعة القاهرة) .

وكان (البدائع) و (المأساة اليونانية) ، وكان وكان ... واذا قطع الرجل مشروعا فعلى امل العودة اليه ، واذا اصدر الحلقة الاولى وتوقف فإنما هو توقف فقط ، واذا بدأ الجزء الاول وشغله شاغل فله من الشباب والعمر والهمة والطموح وحب العمل وحب الادب اليوناني ما يجعله في امل مشروع بالاستئناف وبالزيادة على الزيادة .

أجل ، ومشكلتي معه مضاعفة . الضعف الاول انه مؤلف مترجم عن أكثر من لغة في طليعتها الاغريقية . والضعف الثاني - وهو المصدر الاول للمشكلة - العذاب - الاسى انه على خلق حميد .

تقول - وكيف عرفت الخلق الحميد وانت لم تر الرجل ولم تعرفه ولم تعايشه او تعاشره ؟ وهو لم يكن الاديب المنشىء من هذا الناس الذي ينظم الشعر او يكتب القصة او يدبج المقالة ليذيع من ذات نفسه ويبدي من ذات سره فيقترب من القارىء .

تقول : كيف ؟ ومعك الحق . اما حقي انا .، فهو فيما رأيته من العالم العامل وما لمحته من امانته وصبره واناته وحكمته وانه ليطل من وراء حروفه رمزاً بسماحة وسجاحة ، ووحيا بضياء ونور وايذانا

بتواضع ولطف من غير استهانة بالحق ، وإشعاراً بقوة من غير قسوة وبحزم في ساعة العزم .

تقرأه في بحثه او ترجمته فإذا القراءة وسيلة تربط بينك وبينه فإذا هو اليف من النفس حبيب اليها صديق شاطرك السراء والضراء منذ عهود . ينفذ الى قلبك ، والنفاذ الى القلب أمر صعب يستلزم في صاحبه موهبة خاصة ، وانه لمتوفر عليها ، وانها لوافرة فيه .

المشكلة ، إذاً ، هي في ان محمد صقر خفاجة عالم عامل ، مؤلف مترجم ، امتلك النفاذ الى نفسك ، وحين امتلك هذه القدرة قيدك بالبحث عنه ، فأين ولد محمد صقر خفاجة ومتى ؟ وماذا درس ودرّس ؟ وكم الف وكم ترجم ؟ وكيف سلك وكيف تصرف ؟ تعلم احساسا انه ذكي رصين اليف ، ولكنك تبحَث عن الزيادة ، والزيادة خارج قاعدة (ولكن ليطمئن قلبي) .

تمضي ، ولاتقع على شيء ، فتعجب ولاتعجب وانت الذي عرف المجتمع الذي يعج بالحساد وانتهى الى ان مجتمعا من هذا السنخ يلج في العقوق ، عرفت ، وبهذه السهولة يخرج محمد صقر خفاجة من الدنيا وكأنه لم يدخلها ، اهكذا يمتد الظلام الى شؤون كيانه وكأنه لم ينر سبلا لابناء الحياة ؟

ويستمر البحث . وقد تركت الرجل في عنفوان مشروعاته تأليفا وترجمة فضحكت ـ منه ومنا ـ الاقدار ، ودهمه الموت ومضى بآماله وآمالنا فيه الى التراب . فمتى توفي ؟ ومتى ولد ؟

وترجع الى (أعلام) الزركلي فتقرأ :

خفاجة (... ـ ١٣٨٣ هـ = ... ١٩٦٤م) ، محمد صقر خفاجة ، الدكتور : أديب ، من العلماء ، مصري ، كان عميد كلية الآداب في جامعة القاهرة . له كتب مطبوعة عن (هوميروس) و (النقد الادبي عند اليونان) و (ترجمة رواية لونجوس) وكتب مدرسية مطبوعة أيضاً .

ونص الزركلي على مصادره : (الاهرام ١٩٦٤/١/٣ . ١٩٦٤/١/١٧ ومقال مسهب عن بعض كتبه بقلم د . لويس عوض .

وسطور الزركلي فقيرة . ولكنها تحفظ للزركلي فضله ، فقد ثبت الرجل ما وصل الى علمه . واذا كان عتاب فعلى الاخرين ممن عرفوا فضل الفقيد ومن كان للفقيد عليهم فضل . وحين حل الزركلي مشكلة الوفاة فانه فتح مشكلة الميلاد على مصراعيها . فهل يهدينا هاد الى بحث جامع مانع عن العميد الفقيد ؟ لقد احتوتنا الحيرة أمس اذ وقفنا عند (محمد غنيمي هلال) فتهيأ أديب ابن حلال فدلنا على تعريف واف به ، وها هي ذي الحيرة تحتوينا ثانية فهل من أديب ابن حلال ؟

وتمضي ولاتقطع الامل من زيادة عن العلم وزيادة عن الخلق ، وها انتذا بعد عامين من فقد الفقيد تقع على كتاب (هردوت يتحدث عن مصر ـ ترجم الاحاديث عن الاغريقية المرحوم الاستاذ الدكتور محمد صقر خفاجة عميد كلية الآداب سابقا ، قدم لها وتولى شرحها في ضوء ماعرف من تاريخ الحياة المصرية الدكتور احمد بدوي عضو مجمع اللغة العربية ...)

وتفرح فرحتين ، الاولى ان تظفر بعمل جليل لصاحبك ، والثانية لمقدمة شريفة صاغها رجل شريف هو الدكتور احمد بدوي الذي عرف من شؤون المترجم كثيراً ـ ولايحدثك مثل خبير . فكيف وقد جاء الحديث شهيا طليا لاتجرؤ على ان تحذف منه سطراً أو أن تجتزىء عن كلمة بكلمة .

قال الدكتور احمد بدوي :

(... إن أنس لاأنس ، يوم تمت لي السعادة بهذا الكنز او كادت ، وذلك حين سعى اليَّ عالم عربي مصري شاب ، كنت قد عرفته فألفته ، ثم توثقت صلتي به فأحببته ، جاءني رحمه الله ذات يوم يسعى على استحياء ، والكتاب الذي نتحدث عنه ـ مترجم بقلمه الى العربية ـ

مطوي بيمينه . فلم يلبث ان نشره بين يدي وطلب الي في حياء ان انظر فيه ، راجيا ان اجد من الوقت وفراغ البال مايتيح لي ذلك ، ويمهد لي السبيل الى تحقيق فصوله (أحاديثه) ونقدها وشرحها في ضوء ماقدر ـ رحمه الله ـ ان اعرف من تاريخ هذا الوطن .

وما كان اصدقه حين أنبأني أنه ليس بأول عربي نقل هذا التراث الى اللغة العربية ، وإنما سبقه الى ذلك زميل كريم هو المرحوم الدكتور (وهيب كامل) الذي مضى الى جوار ربه بعد ان اختطفه الموت في عمر الزهر .

ترددت يومئذ كثيراً ، لأنني كنت اعرف ضعفي ، ثم عدت فقبلت لأنني كنت احب صاحبي كما كنت احب الكتاب واقدر صاحبه ، ولأن صاحبي لم يسع اليَّ متطفلا ، ولا راغبا في كسب مادي . ولست اذكر منذ عرفته انه سعى متطفلا الى احد ، وانما عرفت الناس يسعون اليه . ولااذكر مطلقا أنه تهافت على صدارة بالرغم من غزارة علمه واتساع معارفه ، اذ كان يمنعه من ذلك حياء نبيل واستعلاء كريم .

نعم ، هكذا كان والله صديقي وولدي (محمد صقر خفاجة) وهكذا عرفته فقدرته ، ثم الفته فأحببت عشرته ، ونعمت اياماً قصاراً كانت في حياتي كأنضر ايام الربيع .

يرحمك الله يابني الصديق ، لقد كنت في حياتي كنجم شاء الله الا يطلعه الا بقدر امتداد النظر اليه ، وارتداد الطرف عنه نجم ماكاد يطلع حتى أفل ، فكانت فجيعتي فيك عظيمة .

أي بنيَّ وصديقي .

عرفتك مثالياً بكل ماتحمل الكلمة من معنى ، توّاق في النفس الى اعلى مثال من الكمال ، ترى بينك وبين الكمال شقة واسعة تشعرك دائما بقصورك وعجزك ، فأسأل الله العون والعزاء لصديقك الشيخ الذي يعلم مِن كفايتك وباهر مواهبك مالايعلمه الكثيرون ...» .

ما أجمله من كلام ، وما اجل الدكتور احمد بدوي استاذا يفي حق تلميذ له بهذا النسج الجزل الجميل الحلو الذي لايستطيع امرؤ أن يختصره أو أن يكتفي بوصفه ـ ومازالت الدنيا بخير .

من اجل جمال كلام الاستاذ بدوي كان الاقتباس الطويل ومن اجل دلالته العميقة على شؤون فقيدنا العزيز في علمه وخلقه ... ومن اجل امر ثالث ـ لعله الاول ـ هو الالتقاء على غير موعد بين عراقي لم ير الفقيد الا من خلال صفحات مما الف وترجم ومصري هو استاذ أب صديق عالم عارف بذلك الفقيد . ألم اقل لك إن لغة البحث والترجمة قد تدل على صاحبها كما تدل القصيدة او القصة او المقالة ، وإني لفخور بهذه النتيجة ورب فخر نبع من فخر .

ويغري كلام الاستاذ بدوي بالزيادة ، فأين هي ؟ وأين نطلبها ؟ لم نظفر ببدوي كريم اخر ، ولعله كائن ولكننا قصرّنا في اكتشافه ، وقد نظفر به ، وحتى ذلك الحين نذكر لهيئة الاذاعة المصرية فضلها في الاحتفاظ بالاشرطة التي سجلت لمحمد صقر خفاجة ترجمته (أوديب ملكا) من أعمال سوفوكليس ، و (الضفادع) من تأليف اريستوفانيز . ونذكر ونشكر (الهيئة المصرية العامة للكتاب) إذ سعت وجدّت في تحويل الاشرطة الى كتاب يضم بين دفتيه المسرحيتين الخالدتين ، اللتين قام بترجمتهما عن اليونانية في اسلوب ادبي مشرق ، المرحوم الاستاذ الدكتور محمد صقر خفاجة ... القاهرة ١٩٧٤ .

ولاتعدم الارض وفاء

ونبقى نطمح الى زيادة المستزيد ، ونظل نسأل عن ميلاد صقر متى ؟ وأين ؟ ولن يقول قائل : وماذا يهمك من ميلاده ؟ ! .

الجمهورية ـ ١٩٨٥/٩/٢٠

ينظر تعقيب الدكتور كامل مصطفى الشيبي في جريدة العراق ١٩٨٥/١٠/٩

عن أحمد لطفي السيد و «المقالة»



أحمد لطفي السيد (١٨٧١ ـ ١٩٦٣) عمر مديد وعمل غزير ، وعلم وفكر وسياسة وتعليم وترجمة وبحث ومحاماة ... يكفينا من مكانته ـ هنا ـ لقبه «استاذ الجيل» ، ومن عمله رئاسة تحرير «الجريدة» منذ عددها الاول الصادر في ٩ مارس ١٩٠٧ حتى سنة ١٩١٤ (قبيل توقفها) .

لأحمد لطفي السيد اهمية في تاريخ «المقالة» العربية بما كتب فيها ، واهمية اخرى بمن كتب معه في «الجريدة» ـ وعدت ـ «الجريدة» مدرسة في بابها .

نقف اليوم عند الجزء الأول من «المنتخبات» التي اختارها من مقالاته اسماعيل مظهر واصدره عام ١٩٣٧ ... ننظر فيه فنلاحظ امثلة على ماقطع النثر العربي الحديث من تطور بعد الذي كان عليه من ركاكة وسخافة شكلا ومضمونا في العهد العثماني ، وبعد ان شرع يتخلى شيئا فشيئا عن الموضوعات التافهة والالعاب اللفظية وفي طليعتها السجع والجناس ، فبعد مرحلة الطهطاوي جاءت مرحلة الافغاني ومحمد عبده (ينظر كتاب الدكتور عبداللطيف حمزة : ادب المقالة الصحفية في مصر ...)

ثم تأتي مرحلة السيد وقد مهد الطريق وتم التلاقح بين الغربي والعودة الى التراث الاصيل .

وللصحافة اثرها البارز في عوامل التطور - والتحسن - شكلا ومضمونا . اما المضامين واهمها في الاجتماع والسياسة وما صحبهما من فكر ومصطلحات وهدف اساس في مخاطبة الجمهور خدمة له واقناعا وتنبيها واجتذابا وكسبا .. وتعليما وتأديبا ..

هذه المضامين جديدة جدا على النثر العربي ومن هنا كانت من سمات الادب العربي الحديث ، وهي - وأقل ما فيها - تبدو ثورة في حينها ... ويجب ان يبقى الموقف منها كما كانت تبدو وان كانت قد دخلت التاريخ ، واجتازتها الاجيال التالية بما جدت عليها من ظروف وتمازجت معها من ثقافات - بغض النظر عمن هو الاكثر اخلاصا والاكثر تضحية .

لقد كان في مقالات «السيد» حظ كبير من مضامين العصر في شغل مصر الشاغل ، وهو مقدر عليها في مدى غيرته الوطنية الصادقة - رغم مايذكر من ملاينة فيه وفي حزب الامة خاصة ، ولابد من انه يرى الملاينة - مع كرومر مثلا - حكمة موقوتة .

اجل ... ولكننا ننظر اليها اليوم بمنظارنا المعاصر فنراها مرحلة تأريخية عبرت ، وفي هذه النظرة ما فيها من حق وباطل ، ويبقى المنظار الثاني ، الموضوعي الذي يحسب لزمنها حسابه ، وهي - اي مقالات السيد - حتى في هذا المنظار لاتبدو ثورية ، ولا تعكس حماسة العاطفة ، ان عليها مسحة - واكثر من مسحة - من هدوء يبلغ حد البرود .. ولاسيما ما كان سياسيا منها وقد يعود هذا مرتبطا بالحال الاجتماعية الخاصة التي يرتبط بها السيد «وحزبه» ، ولكنه يمكن ان يعود الى مزاج فيه هدوء وميل الى الحكمة وغلبة العقل - او التعقل - على العاطفة ، والظهور بمظهر المعلم المربي المحامي وليس بمظهر

الاديب المنشىء ذي الخيال والتصوير والانفعالات .

ومن هنا تأتي النتيجة الطبيعية في وصف «المقالة» عند السيد بأنها تعليم ومنطق ، وانها قطعة نثرية يعمل صاحبها بها لبيان رأي في قضية مؤيدا هذا الرأي بخطة متماسكة فيها الادلة والامثلة وتؤدي فيما بعد الى الوضوح بقصد الاقناع - اقناع الآخرين بصحة الرأي فهي - اي المقالة - عمل عقلي تدرس من تاريخ المقالة في هذا الباب من الصفات والتطور ولاترد في باب الابداع الانشائي وماينطوي عليه ويؤدي اليه من صور الخيال وجيشان العاطفة وما تستحيل به القطعة النثرية ضربا من القصيدة الوجدانية الجيدة .

اما لغة السيد فهي في عمومها سليمة مفردة ومركبة ، سلسة - كما يقتضي الموقف وتقتضي المرحلة - وتتوالى الفقر مترابطة لتكون بناءً متماسكا لاترى فيه - عادة «عوجا ولاامتا» وانه ليؤيد البناء - ويزينه - احيانا بقول مأثور لشرقي او غربي ، وببيت او ابيات من الشعر العربي غير وسائل الايضاح الاخرى المستمدة من المشاهدة والتجربة او من التاريخ او الحاضر العالمي .

ليس هذا قليلاً في تاريخ المقالة ، وانها لمقالة صحفية - وخاصة الافتتاحية - كما يجب ان تكون ، وكما هي كائنة في الصحافة الغربية التي نقلنا صحافتنا عنها ، وان السيد عالم بها متأثر علمه بلغته وظروف مصر وتأثره بهما .

تلك مقالة ... وسميناها تعليمية ولك ان تسميها تقريرية ، وصفية ، عقلية ، منطقية ... الخ ، وهي تدرس في ذلك المعنى ، وفي تاريخ المقالة الصحفية اولا .

اما اذا بحثت عن الابداع الادبي فلا تجده في «المنتخبات» وماهي من شأنك في الدراسة «الفنية» .

وهذا واضح بيّن ، لايناقشك فيه حتى «السيد» نفسه ، ولعله لم يكن

ليريده وهو رجل القانون والاجتماع والتربية والفلسفة .. يكتب في هذه الموضوعات الى عامة القراء ليعلمهم ويقنعهم ويجتذبهم . والموضوعات نفسها تتطلب من صاحبها السمة المنطقية اكثر مما تتطلب السمة الانشائية ـ الابداعية ، فشأن صاحبها فيها مع الناس شأن المعلم في درس من الدروس في صف «فصل» من الصفوف .

ومع هذا ، فإني ارى للسيد فضلا ـ هنا في مقالات المنتخبات ـ اسداه لتاريخ المقالة العربية الانشائية ـ الابداعية ـ واختصر الطريق في تعريف المقالة الانشائية ـ الابداعية ـ بغير ماذكرت من شأن الخيال والعاطفة ـ فأقول : كما كتبها طه حسين ـ وهو مثل عال لدينا فيها ، وتطور وقمة في آن واحد .

ـ كيف والرأي لايخلو من جدة او خطورة ؟ كيف حتى لو لم يكن جديدا فلعل سابقا ذهب اليه قبلك . كيف ؟

ـ الكيفية هي ان احمد لطفي السيد استكمل المفهوم الصحيح لبناء المقالة وقدم المثل على مايسمى مقالة ـ ونكرر انه خطوة سبقته خطوات ، واذا المقالة : قطعة نثرية يعبر بها صاحبها عما في نفسه في لغة سليمة وفقر مترابط مابين الابتداء والانتهاء ليوصل هذا الذي في نفسه الى الاخرين . والذي في نفس السيد في مادة «المنتخبات» «رأي» ، والذي يرمي اليه بالتعبير عنه «إقناع» الاخرين .

ـ اتفقنا .

ـ ثم يأتي كاتب آخر ، يغلب ان يكون شابا ، يقرأ ـ فيما يقرأ ـ خصوصا مقالات احمد لطفي السيد على قرب منه واعجاب به وتواصل في القراءة واعجاب بها وتأثر . يعجب بها هو نفسه من حيث هو ومن حيث هي ، وينعكس عليه اعجاب الاخرين من حوله من حيث هم ومن حيث هو .

وبغض النظر عن كل ماقيل ويقال في احمد لطفي السيد والحزب

الذي ينتمي اليه (حزب الامة) من الارستقراطية وموالاة الانكليز ، فقد كان السيد مقروءا ، وكانت الجريدة مقروءة ، وللسيد مكانة عالية في المجتمع ، وماتوسطه لدى شيخ الازهر عندما اراد الازهر طرد طه حسين واحمد حسن الزيات .. الا مثل على هذه المكانة ، ومثل اخر على ما للشيخ طه التلميذ الازهري من تقدير خاص سابقا ولاحقا لأحمد لطفي السيد ـ لقد كان الشيخ طه من قراء الجريدة دون ادنى شك ، ومن قرأ الجريدة قرأ مقالات احمد لطفي السيد دون ادنى ريب .. وهي ـ وأمثالها ـ نمط غريب جديد على شيخ شاب ازهري اقل ما فيه طموحه الى الجديد وتمرده على القديم ... واستعظامه لما يصدر نثرا .

ويكتب الشيخ الشاب مقالات ليست ذات صبغة .. ثم تتوضح شخصيته ويتبين نمطه بحكم قراءات للمقالة العربية الحديثة الطالعة قبله والمعاصرة له وبحكم دراسات حديثة في القاهرة وباريس ، وعلم مباشر بالصحافة الفرنسية والادب الفرنسي .

هذا صحيح ، مقرر .

ولكن الذي اريد ان اقوله ان مقالة السيد ـ ومقالات معاصرة له او سابقة قليلا عليه ـ قدمت للقارىء العربي (المصري) مفهوما صحيحا عن قطعة نثرية تسمى بالمقالة .. كما تعطي ـ وكانت تعطي ـ القصيدة من مفهوم للقراء والطامحين الى ان يكونوا شعراء . القصيدة لفلان وفلان من كبار الشعراء .. (وصغارهم) وينطلق الشاعر الجديد (الشاب) الذي يريد ان يصير شاعرا من ذلك المفهوم ، ولكنه حين ينجح ويصير شاعرا يسم قصيدته بسمات خاصة ترجع الى شخصيته في عناصرها التي يختلف بها عن الشعراء السابقين فطرة واكتسابا .

وتعود الحكاية الى النثر ، والمقالة ، ومقالة السيد .. وقد رسمت مفهوما لبناء المقالة ، وكان يعوزها كي تكون إبداعا (كما كانت القصائد) المؤهلات الفنية لمن يزاولها من خيال وعاطفة وبثهما خلال

النثر كما يبثهما الشاعر بدوافع انفعالية ومقاصد في احداث التأثير في القارىء .. عن طريق التصوير والايقاع .

وها هم اولا جيل من الشباب ينشأون وازاءهم المثل - ولديهم تجاربهم وتدريباتهم ومطامحهم - ويشرعون يكتبون - ولنتشبث خصوصا بطه حسين ، وقد قطع شوطا في الازهرية وها هو ذا لون عصري إزاءه ممثل بما يسمى المقالة وتبرز منه مقالة احمد لطفي السيد ، ويشرع في الكتابة وصورة المقالة في ذهنه ، ويخطىء ويصيب .. حتى يجد نفسه ، وإذ يجد نفسه يجد معها في المقالة قدرته - او قابليته - الابداعية ، الانشائية وهكذا يكتشف الشكل القائم مضمونا فنيا ، ويخرج من التعليم والوصف والمباشرة الى الانشاء والالماح ، ومن حدود محدودة بالمنطق والعقل الى آفاق من الخيال والعاطفة ، من الفائدة وحدها ، الى الفائدة ممتزجة بالمتعة .

اريد ان اقول : ان المقالة العربية في تطورها التعليمي الرصين مهدت لخطوة الابداع .. وإن مقالات احمد لطفي السيد - بحكم اكتمالها البنائي ومكانة صاحبها و «مقروئيتها» .. مهدت على وجه خاص ، وكان لها اثرها في مقالة طه حسين .

اما انك تقرأ مقالة طه حسين فتراها تختلف كثيرا عن مقالة احمد لطفي السيد فهذا هو الطبيعي ، وهذا هو الذي دل على التطور .

تقول من اين لك هذا الرأي ، الرأي الذي يقول في خلاصته بتأثر مقالة طه حسين بمقالة احمد لطفي السيد - مع ماتعترف به وتراه من فوارق ، هي الفوارق بين التعليم والانشاء .

واقول - إني معجب بمقالة طه حسين ، آلف لها ، وسر الاعجاب فنها وابداعها وشاعريتها .. - وإني في ذلك واحد من ملايين . ويؤدي الاعجاب والالفة بالقارىء الى معرفة الكاتب وكأنه صديق حميم واستاذ قدير .. فيحس تأثره وتأثيره في كل مكان . وهذا هو الذي حدث ، فاني

حين شرعت اقرأ «المنتخبات» كنت احس احساسا ما بأن شيئا منها سيكون في طه حسين ، وكلما تقدمت في قراءة «المنتخبات» توطد هذا الاحساس . وليس في الامر غرابة كما ليس فيه عيب فطه حسين طه حسين والسيد السيد ـ والفرق الكبير في مقالتيهما كائن ، ولكن الكينونة لاتنفي علاقة ما ، ولاتدحض تأثر المنشىء الكبير بالمعلم الكبير .

لقد ابتعد طه حسين عن احمد لطفي السيد كثيرا جدا ، بمقدار مؤهلاته الفطرية والمكتسبة على مر الزمن واختلاف التجارب وتباين النظرة الى الغاية المباشرة ـ وغير المباشرة ـ في كتابة المقالة .. والا فلا يستطيع ايُ ان يبتعد هذا الابتعاد ، ولو امكن لتهيأ ذلك لأحمد امين الذي ظل قريبا «جدا» من السيد في المعاني على قدر الالفاظ والاكتفاء بأداء المطلوب من الرأي باللغة السليمة والوضوح وتتابع الفقرات .

وحاول احمد امين ان يخرج قليلا بالاقتراب من الذات والطبيعة ولكنه لم يخرج كثيرا ، وكان السيد قبله قد فعل شيئا من ذلك ـ تنظر له «التأملات» ـ وربما كان لذلك الشيء اثره في دلالة الجيل التالي له ـ ومنه طه حسين ـ عليه ، ولكن الدلالة شيء ، والابداع شيء اخر .

جاء السيد خطوة متقدمة على من سبقه ، وهو خطوة لابد منها لمن بعده ، للتعليميين وهذا اقل مايقال . وللمبدعين إذ لابد لمرحلتهم من ان تنهض على اساس وتتوطد بعد تمهيد .

الجمهورية ـ ١٩٨٥/٨/٢٦



مصطفى عبداللطيف السحرتي

١ ـ الناقد المغموط



هو مغموط ، بمعنى أنه لم يعط حقه ، ولم ينل التقدير الذي هو اهله ، ولم يشتهر في حدود ما اشتهر غيره ممن لايقل عنهم إن لم يزد .

هو مغموط وغير مغمور .

غير مغمور لانه ليس نكرة في عالم النقد والادب ، فهو معروف لدى الخاصة من الادباء ، ولدى القريبين منه ، ولا يعدم من يذكره هنا وهناك .

إن لم يكن السحرتي شهيراً على نطاق واسع ، فانه مقدر جيدا على النطاق الضيق ؛ فهو في هذا التقدير وتلك المعرفة : عضو في جماعة ابولو . رئيس تحرير مجلة الامام (١٩٣٤ ـ ١٩٣٧) التي صدرت بعد احتجاب ابولو . عضو في رابطة الادباء التي رأسها ابراهيم ناجي . نائب رئيس رابطة الادب الحديث منذ عام ١٩٥٣ وقد تأسست استمرارا لرابطة الادباء .

مكانته من العربية مرموقة ، ومن الانكليزية كذلك ، مع معرفة بالفرنسية .

نشر ، منذ وقت مبكر ، في مجلات وجرائد كثيرة : الادب الحي ، السفير ، الرسالة ، مجلة الطلبة المصريين ، البلاغ ، الوادي ، السياسة الاسبوعية .. ثم مجلة «أدبي» الخاصة بأبي شادي .

نشاط مبكر ، متصل ، بين المحاماة والادب ، وبين قريته ميت غمر

حيث ولد في ٢٣ كانون الاول ١٩٠٢ ، والقاهرة حيث توفي اواخر ١٩٨٣ ، وبينهما رحلة قصيرة الى باريس .

صحيح ان التنظيمات التي كان يتعامل معها لم تأخذ مداها البعيد خارج مصر ، وان عشرات الادباء الذين عمل معهم من مصريين وغير مصريين لم يحتلوا رقعة واسعة على خارطة العالم العربي ، وربما على خارطة بلادهم نفسها .. صحيح ولكن «السياسة الاسبوعية» كانت تخرج بعيدا عن مصر ، وتصل الى العراق مثلا «ولايكاد يخلو عدد من اعدادها من ١٩٢٦ حتى عام ١٩٣١ من مقال له» وللمجلة مكانتها الادبية ، و «ابولو» لم تكن مجهولة وابراهيم ناجي وعلي محمود طه لم يكونا مجهولين . واما الرسالة فهي ذات المدى الذي لم يبلغه مدى مجلة عربية ادبية .

ومع هذا .. فقد بقي السحرتي غير مشهور ، لايدرك قدره الا الأقلون .

بقي غير مشهور على تعدد مجالي نشاطه الادبي : الشعر ، الفكر الادبي ، الثقافة الادبية الحديثة ، الدراسة ، النقد ، التأليف .

وفي التأليف تتوالى له عدة كتب : ادب الطبيعة (١٩٣٧) ، ازهار الذكرى (١٩٤٣) ، الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث (١٩٤٨) ، البعث الجديد (١٩٥٧) ، شعر اليوم (١٩٥٧) ، شعراء مجددون (١٩٥٩) ، الفن الادبي (١٩٦٠) ، النقد الأدبي من خلال تجاربي (١٩٦٢) ، شعراء معاصرون (١٩٦٢ ـ بالاشتراك) ، دور المثقفين في الاتحاد الاشتراكي العربي (١٩٦٣) ، دراسات نقدية (١٩٧٣) ، دراسات نقدية في الادب المعاصر (١٩٧٩) ... وغير ذلك .

ويدخل في غير المطبوع ، المخطوط ، ومما يمكن ان يعد في المخطوط ما تناثر من مقالاته وبحوثه في الجرائد والمجلات ، يمكن ان يجمع بعضها عنوان «شخصيات ادبية عالمية : شكسبير ، وجيته ، ولامرتين ،

وروسو ، وتولستوي ، وهويتمان ، وطاغور ، وسعدي الشيرازي ، والمنفلوطي ..» وغير ذلك ، وغيره .

وقد تولت نشر المنشور من الكتب مؤسسات محترمة ودور ذائعة الصيت . ولكن السحرتي بقي حيث هو ، مغموطا ، غير معروف ، لايعرفه الاقلة ، ولاتقدره الا هذه القلة ! ان نظرة الى الاثار تدل على حتمية أن يكون السحرتي مشهورا ، يملأ المكان الذي هو له في عالم الفكر الادبي .. فعنايته بالطبيعة نادرة في أدبنا الحديث ، وعنايته بالشعراء المعاصرين دون غيرهم سمة ليست قليلة الشأن ، واهتمامه خصوصا بالجديد والتجديد لايقل عن تلك العناية درجة . وحسبك ان يكون من الجديد رعايته للشباب جدا ، وللمتمردين على التقاليد الأدبية ، وللشعر الحر مزاولة ودراسة وتقويما .. ولم يجعل مصر همه الوحيد ، وانما هي شأن غيرها جزء من كل .

ننظر الى هذا كله ، والى ما يدل عليه من حتمية .. ويعود السؤال من حيث ذهب : لماذا غمط السحرتي ؟ وبقي مكانه محدود الحيِّز ؟ على أمل من يعالجه عن قرب ومعرفة وعلم ومنهج . ونبقى على هذا الامل العزيز ، وقد يراه الباحث في ترفعه عن المهاتره وطلب الشهرة الرخيصة والاتكاء على ما هو خارج طبيعة العملية الادبية ـ النقدية .

اما شأننا الخاص مع السحرتي .. فكتابه : «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» الذي صدر في طبعته الاولى ، بالقاهرة ، مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٤٨ . والضمير في «شأننا» للمفرد المتكلم اكثر منه للجمع المتكلمين :

وكنت ذات يوم من قراء «الرسالة» المدمنين حبا واعجابا وانسجاما وهواية ، فلم يقع السحرتي مني ما وقع الاخرون .

وقد يعود السبب الى أني كنت اعنى من الرسالة بالجانب الانشائي بدءا بمقالات الزيات ، على اني اقرأها كلها ، واقرأها من هنا ومن

هناك ، وعرفت ـ فيمن عرفت ـ عبداللطيف النشار من الشعراء ، ودريني خشبة من «النثراء» ولكن لا اذكر اديبا مَرَّ فيها واسمه : السحرتي (عفوا) ، ولكني لم اكن اجهل السحرتي تمام الجهل ، وهذا ما يجب ان يقال على سبيل الصراحة ، اما كيف ؟ ومتى ؟ فلا استطيع الاجابة عنهما لأني لا أملك «حيثيات» الاجابة . وانما هو اسم فقط ، السحرتي ، واسم في النقد الادبي فقط (كذلك) . واعلى ما استطيع ذكره ، هو اني اجد اليوم في مكتبتي (المتواضعة) نسخة من كتاب «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» (١٩٤٨) ولابد من ان يكون اقتنائي اياه من باب اهتمامي الخاص (المبكر) بالادب عموما وبالشعر خصوصا ، وبالنقد الادبي كذلك وبعد ذلك . ولابد من ان يكون اقتناؤه ايام صدوره وقد كنت في مصر انذاك . ولكن هذا الاقتناء لايعني اكثر مما يعني بل ان وجودي في القاهرة ايام صدوره ، وربما ايام كان السحرتي عضوا في رابطة الادباء .. كان يجب ان يدل على مكان الرجل . ولكنه لم يدل . وربما رجع سبب ذلك الى ضيق الدائرة التي يعمل فيها السحرتي حتى في القاهرة نفسها . لقد كان الادباء الكبار : طه حسين ، الزيات ، العقاد ، المازني ـ كبارا ، اما الاخرون بمن فيهم ابراهيم ناجي فيعدون «صغارا» فكيف بالسحرتي ؟ (وعفوا) .

الكتاب ، اذا ، في مكتبتي (المتواضعة) منذ ايام صدوره ، ولايعني ذلك شيئاً فما رجعت اليه وما نظرت فيه وما قرأته ، وقد شغلتني عنه عشرات ومئات الكتب ، وبقي هو قابعا في زاويته لايريم . وربما عرضت نظرة اليه والى عنوانه فتكون عابرة ، ظالمة ، إذ تحسبه تطبيقا حرفيا لعلم النفس ، وتحكم عليه ـ ظلما ـ بأن ذاك صار قديما ، وان السحرتي غير مؤهل ـ ولا ادري مصدر هذا الحكم الباطل ـ لدراسة الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث . كيف حصل ذلك ؟ ولماذا ؟ ومتى ؟ اسئلة لاجواب لها . وقد وقع الذي وقع .

دخل الكتاب المكتبة عام ١٩٤٨

ونحن اليوم في عام ١٩٨٤

والمدى بينهما غير قصير، اكثر من خمسة وثلاثين عاما ! جرى فيها على الكون ما جرى، وحدث في مصر والعراق ما حدث، وانت انت نفسك نفسك يامالك الكتاب في مكتبتك المتواضعة ! كم رأيت من جديد وقديم، وعانيت من عجيب وغريب، وقرأت وكتبت ؟

ـ كم ؟

ـ كثيرا .

ـ واليوم، ماعدا مما بدا ..

واليوم، وقع مادعا الى تغيير في الموقف، والذي وقع طبعة جديدة لكتاب مصطفى عبداللطيف السحرتي ـ الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث (جدة، مطبوعات تهامة ١٤٠٤/ ١٩٨٤) مع مقدمة إضافية كتبها اديب سعودي على صلة وثيقة بالسحرتي هو الاستاذ عبدالله عبدالجبار (وقد افدت منها خبرا بالسحرتي وخاصة في مجرى حياته وتعداد مؤلفاته)، وكدت اركن الى ضلالي القديم فاكتفي، بصف الطبعة الثانية الى جوار الطبعة الاولى، كدت، لولا أمر لا احدده ولا أعدده يغير المجرى فأقرأ الكتاب واذا بي ازاء كتاب جديد على تقادم عهده، فلم يبق الا الاعتراف بالخطأ والعياذ برسالة عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري : «... ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك، ان ترجع عنه الى الحق، فالحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ..» .

وهكذا كان، ويكون .

الجمهورية ـ ١٩٨٥/٨/١



مصطفى عبداللطيف السحرتي

٢ - الشعر المعاصر في ضوء النقد الحديث



قسم السحرتي كتابه (ط١ ، ٢٦٦ص ، ط٢ ، ٢٥٨ص) الى ثمانية فصول سماها بحوثا ، هي النقد الادبي ومذاهبه ، مقاييس النقد الفني ، الانفعالات الشعرية ، الفكر في الشعر ، الموسيقى الشعرية ، الشعر الرمزي ، نقد الشعر في مصر ، المذاهب الادبية والنقدية .

وهي كما ترى - وأرى أنا الآن بعد التجربة المرة - موضوعات في صميم الأدب والنقد ، وهي قديمة جديدة . وطبيعي أن يعترض معترض أن ليس العبرة بالعنوانات ، وطبيعي أن يرده قارىء الكتاب بأن المؤلف منح العنوانات حقها من العلم والرأي والشاهد والمثل جامعاً مع علمه العربي العلم الانكليزي ، مازجاً ما لديه من فكر بما لديه من ذوق ومعيشة في الأدب وللأدب .

تقرأه اليوم ، وقد امتد مابين الطبعتين اكثر من خمسة وثلاثين عاما ، فكأنك تقرأ الطبعة الاولى ابان صدورها او كأن الطبعة الثانية التي بين يديك طبعة اولى صدرت حديثا ، وانت في هذا او هذا تعايش المؤلف لدى تلقيه الفكر الادبي وعند مطارحة اصحابه الادباء المتوثبين إياه . وحين مزاولته محاضرة وتأليفاً وتعليقاً وتعقيبا .

يصل القديم بالجديد في هدوء واتزان ، واذ يبلغ بالجديد حافة عام ١٩٤٨ يفتح نافذة على المستقبل ، فتنظر في كثير مما جاء بعد الـ (١٩٤٨) وكأنه كان في الكتاب ، ولك ان تلاحظ ، على سبيل المثال ،

مكانا خصصه لنازك والسياب ، وضرب امثلة من شعرهما ووضعهما موضع الكرامة والتكريم ، وذكر الطلائع ، ومضى قبل ذلك اشواطا في الرمزية والسريالية ووقف عند ييتس واليوت .

والمسألة مسألة الاتجاه والايماء الصحيح الى المستقبل اكثر منها مسألة اسماء بعينها . ولاتسل ، بعد ذلك ، عن عمر أبو ريشة ، وبدوي الجبل والجواهري ونزار قباني ، او عن المهجريين ممن تعرف كايليا ابو ماضي ومن لم تعرف كأمين مشرق ، واللبنانيين من سعيد عقل وصلاح الاسير الى من هو دونهم ، ولاتسل عن المصريين لئلا يأتي سؤالك في غير موقعه . وقد حفظ لمطران مكانه ، واحل احمد زكي ابو شادي منزلة عالية ـ قد تراه مبالغا فيها ، ولكنك بعيد عن أبي شادي ، وهو مخلص لقربه الشديد من الرجل ويشعر بحيف لحق صاحبه على ماأدى للفكر الجديد من خدمات .

هذه العناية الخاصة بشعراء العربية خارج مصر ، كثيرة جداً على أديب مصري ، وقد عهدنا إخواننا المصريين (عموماً) لايعرفون شيئا يذكر خارج قطرهم ، ولعلهم لم يكونوا يريدون أن يعرفوا ، اكتفاء ذاتيا ، وشغلا بالذي هم فيه ، وعلى الاقطار الاخرى ان تستهلك ماينتجه غيرها . أما السحرتي فكان كسراً للقاعدة وحجة للمصريين على غير المصريين .. وليست المسألة مسألة المصريين وغير المصريين وإنما مسألة الافق الواسع والذمة والضمير والمنهج والنفس السمحة ، والا فكيف تتحدث عن الشعر المعاصر وانت لاتعرف الا قطراً واحدا ، وانك تجهل او تتجاهل احيانا حتى من عاش في ذلك القطر من غير أبنائه ؟

إن الشعر المعاصر لايعني الشعر المصري كما فعل كثيرون وكأن شيئا لم يكن ، وانما يعني الشعر العربي في كل مكان : العراق ، سورية ، لبنان ، المهجر ، الحجاز .. المغرب العربي ، ولم يدرك هذه الحقيقة العلمية جيداً إلا الأقلون ، وعلى رأس قائمة الأقلين ينهض

أديب مصري قح اسمه : مصطفى عبداللطيف السحرتي ، وليس هذا بالقليل ، ابداً وأبداً .

الاسماء المشهورة من شعراء الاقطار العربية ، حتى الاسماء المشهورة ليست بالامر اليسير يرد على لسان أديب مصري . وقد جاءت ، كما رأيت على هذا اللسان ، لسان السحرتي . ولم تأت تكلفا او تنطعا وإنما جاءت طواعية وعلما ومتابعة ومعايشة ، وانه ليتحدث عنهم ، أي عن شعرهم ، حديث العارف الآلف شأنه معهم شأنه مع شوقي وحافظ - وهذا كثير ، وكثير جدا ، وفيه الدلالة على سماحة النفس وسعة الافق والشعور بمسؤولية الناقد الذي يريد ان يكون ناقدا عربيا ، للشعر العربي وليس للشعر المصري .

أجل ، ولكن الدلالة الكبيرة المحيرة الاسماء الاخرى التي تكاد تكون غير معروفة حتى في اقطارها ، كيف وصلت اليه ، وكيف الف دواوينها وقصائدها ؟ وكيف وصل معها الى الاستنتاج الصحيح في سماتها بين العاطفة والفكر ، وبين الكلاسيكية والرومانتيكية والواقعية ، وانه ليعرف الشاعر منهم في اكثر من حال ، وأكثر من طور . وإليك أمثلة من الأسماء : ميشال بشير ، فؤاد بليبل ، الياس زخريا ، ضياء الدخيلي ، حسين الظريفي ، ياسين رشيد ، اكرم الوتري ، ميشال سليم عقل ، علي الناصر ، عمر عرب ، ياسين السيد ، نذير الحسامي ، محمد السليماني المغربي ، قبلان مكرزل .. ويقف عند مصريين لم يعودنا المصريون الوقفة عندهم : عادل أمين ، محمد كمال ، عبدالحميد السنوي ..

.القائمة تطول ، وفي الكتاب فهرس للأعلام .. يجد فيه القارىء من هم اقل شهرة .. ومن لايجدهم في كتاب آخر ؟ ويستحيل أن تجد ناقداً عربياً معاصراً احاط إحاطة السحرتي بالشعر العربي وهذه الاحاطة خلق في الرجل وهواية وعلم ، وهي شرط منهجي فيمن يتصدى لموضوع

عنوانه «الشعر المعاصر» .

ولاتقل إحاطة السحرتي عن هذه الاحاطة بالنقد الادبي نفسه ، في تاريخه وتياراته ، وقديمه وجديده ، وعربيه وغربيه ، وقد اعانته الانكليزية في ذلك كثيراً . ولك ان تنظر في الاحالات التي يعود اليها صادقاً في بحثه .

والرجل كأي إنسان وكأي ناقد ، له علمه الخاص ، ورأيه الخاص ، وذوقه الخاص ، ولكن الرجل الذي يريد ان يكون ناقدا بالمعنى الصحيح ، وكما اراد السحرتي لنفسه ـ يمسك بزمام هواه ، ويوازن بين الارداة والعفوية ، ولايدع القاعدة الخارجية تدفع الانطباع الداخلي . لقد تحدث السحرتي عن ثلاثة مذاهب (انواع) من النقد الادبي هي : الفني والواقعي والفقهي (اللغوي) وكأنه ضم الى هذه الثلاثة انواعا تنسجم وإياها بالصفات العامة وجرى في حديثه عن «الثلاثة» مجرى العارف المتمكن القادر على التصرف في يسر ولين لطول ماألف المادة ، وعمق ماغار معها ، وهواية حياة لها .. ويخرج القارىء ـ حينئذ ـ «مبسوطا» وقد عرف النوع كما هو في إيجابه وسلبه . ورأى المؤلف يبحث في النوع وكأنه لايعرف غيره ، وكذا النوع الثالث .. وقد تستشف انه ـ وان لم يكن يساريا ـ أميل الى الواقعي ، ولكن ميله لم ينهض على هواء فقد عرض الرجل للجيد والرديء فيه كما عرض لهما في غيره ، وان اشترط لكمال النقد الواقعي صفات يتمتع بها النقد الفني . يوحي السحرتي في عموم كتابه بشيء مناسب من الالتزام الاخلاقي إزاء الوطن والامة والانسانية ، ولكنه لايعظ ولايخطب وانما يوحي إيحاء ، ولايتكلف ولايتعسف ولايتنطع ، وإنما يسلك البحر رهواً هذا شأنه عندما يقف مع النقد الواقعي ، وهو شأنه هنا وهناك من الموضوعات الاخرى ، بما في ذلك الموضوعات الفنية ، ولاتناقض في الحال ، وهو في النقد الفني لايرتضي «الذاتية المحدودة» وإنما يريد

السعة التي تحتوي الانسان ، ويجعل الفنان جزءاً من المجتمع والحياة ، مسؤولا وليس طفلا كبيرا ..

وتبقى الصفة الاساس الغالبة على كيان السحرتي ماكان متصلا بعلم النفس ، وقد قرأ منه المهم ، وألم بأحدث تياراته مطبقة على النقد متغلغة في النقد ولديه في تلك المراجع المحترمة الناضجة . والمهم في علم النفس عند السحرتي ان لايزج به في ميدان الأدب زجاً ويلصقه بجدرانه لصقا ويتكىء عليه لمناسبة وغير مناسبة ادعاء وتنطعا وتباهيا ، وإنما هو يتشربه ويتمثله ويعيشه في نقده منسجما منسابا لايكاد يُحسُّ بوجوده القارىء .

أما اذا تحدث عن مواده ، فانه يختار منها ماله صلة مباشرة فعلية بالفن والأدب وإنه يتحدث في تمكن العارف وليس في صياح الدلال ، ويرجع في كلامه الى أعلام أهله ، ويوضح القاعدة بالشاهد والتعليق على الشاهد ، وانه ليأتي بالشواهد متباعدة مابين احمد الصافي النجفي وبلند الحيدري وما بين إيليا أبو ماضي والياس أبو شبكة ، يأتي بها متباعدة ليقدمها متقاربة .

عني السحرتي عناية خاصة بعملية الخلق الأدبي والنص الحاصل عن هذه العملية بين اقصى الفردية التي لايريدها إذ لايرى «للقصائد الذاتية المحض» قيمة أو بقاء ، وأقصى الاجتماعية في «الصبغة العامة» التي ترفع شأن الإنسان ، وما بين الطرفين مما يجمع الحسنيين .

ومن عني بعملية الخلق الادبي منطلقاً من علم النفس الحديث فسح مجالا واسعا «للتجربة الشعرية» وقد تلقاها ـ شأن الكثير مما تلقاه من العلم الحديث ـ عن أعلامها ، وكثيراً ما اقترنت بابركرومبي . وبلغ السحرتي في حرصه على «التجربة الشعرية» ماروي عن مندور أنه قال «هو أول من دعا الى الاهتمام بالتجربة الشعرية في الشعر» والسحرتي يريد التجربة صادقة عميقة لايخرج الشاعر عنها في إطالة لاموجب

اليها والى افكار تبدو منفصمة عنها .

والعناية بالتجربة تستدعي العناية بتناولها اي «اسلوبها او صياغتها» «وأهم عنصر من عناصر الصياغة هو كما يقول هولنجورث ، مواءمة الصياغة لموضوع القصيدة» «وهناك عناصر اخرى للصياغة هي الخيال والموسيقى والوحدة والتوازن والتناسب وتخير الالفاظ تخيرا فنيا وشخصية الشاعر غير المرئية المنسابة بين بعض هذه العناصر» ، و «الموسيقى ، وهي لاتقل اهمية عن الخيال (...) ولاقيامة لعمل شعري دونها» .

ويمضي بذكر الامثلة على الموسيقى .. ثم اللاموسيقى «وكثيرمن الشعر المعاصر يفقد اهميته لفقدان عنصر الاثارة الموسيقية فيه ، ومن آيات ذلك مانجده كثيراً في شعر العقاد (...) فلا تجد (...) شعراً ، بل نثراً موزوناً» وانتباهة السحرتي الى نثرية الشعر ذات خطر خاص في تاريخ النقد الادبي ، ويكفيه ان «اجتاح» بها «حمى» العقاد !

ومطلوب من الالفاظ أن تأتي موحية «لاعهد للعربية» بها ولكن «من التعسف القول بأن الكلمات الموحية هي التي يرقد فيها الفن الشعري ، لأن هذا القول يخرج أجمل قصائد المتنبي والبحتري وشوقي من دائرة الفن الشعري» و «وحدة القصيدة هي الرباط الذي يضم التجربة والصور والانفعالات والموسيقى والالفاظ في وشاح خفي أثيري» «أن للشخصية أثرها الخفي في بناء الوحدة» «ان تجربة القصيد إذا اتواءمت مع الصياغة اثمرتا لنا وحدة في موفقة ، اي ان العبرة في نقل التجربة الشعرية ..» «ومن الظواهر الجديدة في شعر بعض شعراء الغرب المحدثين ، عدم اهتمامهم بالوحدة الشعرية» «... الفن كالحياة لانظام ولا انسجام فيه» .

قال السحرتي هذا الرأي ليدل على أنه يزود القارىء بما هو من رأيه ، ما هو ليس من رأيه . وليس من وكدنا ـ هنا ـ المناقشة ، ولا

الاستمرار في استعراض فصول الكتاب ـ وهي مترابطة : الانفعالات ، الفكر في الشعر ... الخ فللمناقشة مجالها خارج الصدد الذي نحن فيه ، وخير للقارىء من استعراض الفصول الرجوع الى الكتاب نفسه ويكفينا ـ هنا ـ أن نرى السحرتي متوازنا ، رصينا ، هادئا يلتقي عمله في شخصه بالمذاهب والاتجاهات التقاء تمازج وتكوين فلا ترى تفككا ولاتحس انفصاما لطول ما تأمل ولكثرة ما أخلص ولما له من بصيرة وسعة أفق ، وعن سعة الافق هذه ترحيب بالجديد وليس عن عقدة او على تهور .

ومن ثم فما المانع من «الشعر الحر» حيث «يتنوع النغم» وتتجدد التفعيلات وما المانع من الترحيب بالنزعات الجديدة التي «تمد الأدب برؤى جديدة وتجارب طريفة وأخيله جريئة وتحفز الأديب والشاعر الى الجرأة والتحرر والخلق الجديد ومن ثم كانت عنايته بالرمزية وبالسريالية ولكنها عناية العارف بما يأخذ وما يدع ، الواقف على الامثلة العربية الممتدة الى الأمثلة الغربية .. واتزانه هنا هو اتزان لدى معالجة المذاهب ولدى استيعابه المهم من علم النفس ، ولدى أية معالجة ، وليس هذا بالقليل في تكوين الناقد الحق .

وها هوذا يتقدم لموضوع يعد شائكا جداً في مصر : نقد الشعر في مصر ، وهو شائك لأنه متصل بحرمات مهمة وشخصيات متنفذة وكتب خطرة كان البارزون فيها متطرفين لدرجة الوقوع في دائرة الخطأ والف الناس الحديث المنحاز اليهم .

فهذا «الديوان» وعلى رأسه العقاد والمازني يصدر فيبلغ قوم في تعظيمه درجات عليا وينسبون اليه ما يشاءون من فتوحات خوفا او مجاملة او جهلا ولكن ناقدا اسمه السحرتي لايسقط هذا السقوط ، ويقول «عند تصفح هذا الكتاب نلمس مبلغ آثار التحامل ومدى ظلم هذين الناقدين اللذين جردا الشعراء الثلاثة من كل حسنة ، والشعراء

الثلاثة هم : شوقي وحافظ وعبدالرحمن شكري .

«وأعقب كتاب الديوان ، كتاب مصطفى صادق الرافعي على السفود .. فجاء ... نقداً عنيفاً لشعر العقاد ، نقداً يأباه العلم ، وهكذا تفعل المهاترات ..» .

«وثمة كتاب نقدي ثالث هو «رسائل النقد» ألفه الدكتور رمزي مفتاح يحلل فيه شخصية العقاد ويكشف عن سرقاته من شكري .. الا أن هذا النقد .. لم يتوخ طريق التحقيق العلمي في موضوع السرقات التي دارت رسائله عليها» .

ويمضي السحرتي يوالي وقفاته مبدياً رأيه في صراحة لايخالجك شك وأنت تقرؤه ، في صدقه وصوابه وعدالته : ادباء معاصرون للزحلاوي ، حديث الاربعاء لطه حسين ، في الميزان الجديد لمحمد مندور ، مطران لاسماعيل أدهم «وربما عدت دراسة الدكتور إسماعيل أدهم لمطران من أقيم الدراسات النقدية» .

ويسير السحرتي على هذا الضرب من الاتزان والتوازن رصينا من غير جفاف ، طرياً من غير سيولة حتى ينتهي بأمل «أن يتوجه الأدباء وجهة تجديدية طريفة ، موضوعا وأسلوباً ، وأن يقدر النقاد المسؤولية الخطيرة الملقاة على كواهلهم وأن توأد الى غير رجعة ، تلكم النقدات الذاتية المنحرفة او الجزئية القصيرة النظر التي غابت على البيئة الادبية في الشرق المتوقد لنهضة شعرية باهرة» ويقصد بالشرق : العرب .

واذ تنتهي الى هذه الخاتمة البارعة التي تستشرف المستقبل تكرر الندم على أنك تأخرت في قراءة الكتاب ، وتخفف عن هذا الندم بالدعوة المخلصة الى قراءته ، فهو الكتاب النقدي الذي يجب ان يذكر بارزا في مسيرة النقد الحديث ، نذكر : الديوان ، الغربال ، في الميزان الجديد ، ولكن لابد من ان تذكر : «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» فهو

مهم وفيه من النظرات مايحفظ له البقاء الاطول ، ولصاحبه من الخلق العلمي مايزيده قوة على الزمن بمقدار ما كان في اسباب غمطه من قبل .

الجمهورية - ١٨/١/١٩٨٥



منذ نصف قرن توفي
طه أحمد ابراهيم



طه أحمد ابراهيم استاذي الكريم في كتابه الفذ :
«تاريخ النقد الادبي عند العرب» ، قرأته ودرسته ، وأقرأته ودرّسته ، ولم أمل يوما من الاشادة بعلمه والاحالة على منهجه والاقتداء بلغته والدعوة الى ذكره . لم أنل شرف التلمذة على المؤلف فوجدت بعض العزاء في كتابه .

طه احمد ابراهيم وصفاته العالية في الفكر والخلق ، وفي الثقافة والافق ، ما بين دار العلوم والسوربون ، وبين القديم والحديث ، والاستيعاب والتمكن ، والمنهج والتأليف . والصفات تتكاثر والنعوت تتزايد . واخيرا وأولا ابتكاره تاريخا للنقد الأدبي عند العرب من لاتاريخ ، وإيجاده «نوعا» معترفا به من لانوع .

طه احمد ابراهيم الرائد لجيل سلف والرائد لجيل خلف حاضر لم يغب ، ويبقى مع الخالدين .

عشق استاذي النقد الادبي فشد الرحال الى باريس وهو لايطلب شهادة وانما يطلب علماً ، ولايطلب علما وإنما يطلب فكرا ، ولايطلب فكرا غربيا لذاته وانما يطلبه لاثارة فكر نقدي عربي ظل مطموسا تحت الانقاض لاكثر من الف وخمس مئة سنة اشلاء مبعثرة ، شلوا في مكان وشلوا في زمان ، خبرا في كتب الادب والبلاغة . وخبرا في كتب الادب والتاريخ . وفي كتب عرفها الناس ولم يعرفوا اين يضعونها من نوع مستقل . أهي من البلاغة ؟ أهي من الأدب ؟ أهي افراد لاربط بينها

ولامرجع لها : طبقات الشعراء ، الشعر والشعراء . الموازنة . الوساطة ..

وطلعت انت طلوع البدر فأنرت الليل وحللت المشكل وألّفت بين المتباعد واستحضرت الماضي فاذا للعرب نقد وإذا للنقد العربي تاريخ : أعلام وكتب ، وهو قضايا ومسائل .. منذ العصر الجاهلي وعلى مر الزمن في تطور وتجدد عند الشعراء حينا وعند الادباء حينا وعند متقدمي النحويين واللغويين حينا ... تصله الخصومة بين القدماء والمحدثين بالانسان اينما كان .. ومعها مسائل اخرى منها في الطبع ومنها في الصناعة ..

لقد بقي النقد الأدبي العربي غائبا عن وجوده وكأنه يتعالى أن يحضر على يد من هب ودب اعتزازاً بمكنونه وانتظارا لشاب أديب عالم بعيد مدى الرؤية والرؤيا ، طويل النظر والتأمل قليل الكلام والكم ... إنه طه أحمد إبراهيم فيا أهلا وسهلا بالشاب الشيخ والباحث المنشىء . وأهلا ومرحبا بكتابه الذي سيصير في موضوعه «الكتاب» . وهيهات ان تجد مثله يعرض المعقد بسيطا ويعيد القديم جديدا ؛ وهيهات ان تخضع لغة لبحث باحث كما هي في طوعه فاذا البحث سلاسة ولطافة وشفافية وطراوة .

ومضى يصل الفصل بالفصل ويربط المحاضرة بالمحاضرة وجاس خلال القرن الرابع وعقد اواصر الالفة مع الآمدي والقاضي الجرجاني ... وماكاد يرفع قدمه لخطوة اخرى حتى امسك بها سبب قاهر ... فيموت سنة ١٩٣٥ .

يموت هذا الشاب الشيخ الذي نجهل تاريخ ميلاده ولانعرف مجريات حياته ..، أهكذا وفي اوج التألق يغور الضوء وتنتهي الحياة ؟ !

تنتهي ، ولاتنتهي لمن ادخر لاحبابه «عمرا ثانيا» .... ومن لن يعدم

بقية من «وفاء» لدى تلامذة او زملاء ... وها هي ذي الفصول ـ المحاضرات تجمع لتؤلف كتابا يصدر على هذه الصيغة :

تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع ـ تأليف المرحوم الاستاذ طه احمد ابراهيم المدرس بكلية الاداب (كان) ـ القاهـرة ، مطبعة لجنـة التأليف والتـرجمة والنشر ١٩٣٧ ـ ١٩٥ ص .

ولابد لكتاب يؤلف في مثل هذه الظروف النحسة من «تمهيد» يخفف الكرب ويهدىء الروع ، وكتب التمهيد «زميله» المدرس في كلية الآداب ، احمد الشايب في ثماني صفحات ، ذهبت الست الاولى منها الى مالاعلاقة له بالفقيد ، وجاء في الصفحتين الاخيرتين :

«عنيت كلية الآداب بهذين الدرسين ، فانشأ قسم اللغة العربية ، درسا للنقد الادبي من حيث هو فن جميل له اصوله ، ودرسا لتاريخ النقد العربي له مباحثه وميادينه ، فمنذ سنين اربع كان زميلي وصديقي المرحوم الاستاذ طه احمد ابراهيم يقوم بالقاء محاضرات في تاريخ النقد الادبي عند العرب على طلبة السنة الرابعة من قسم اللغة العربية ، وكنت بجانبه ادرس لطلبة السنة الثالثة بعض اصول النقد الادبي (...) .

اما بعد ، فهذه فصول (...) كتبها زميلنا المرحوم الاستاذ طه ابراهيم ، وهي كما يرى القارىء جزء من كتاب كان ينوي به إتمام هذا التاريخ ، فحال الموت دون ذلك (...) اشير الى ظاهرة كانت ابرز ميزات المؤلف ، وهي كذلك تتراءى للقارىء في جميع هذه الصفحات : الذوق الادبي الصادق ، فلقد بلغ من صدق الحس ، وصفاء الشعور درجة نادرة ، لم ارها مرة تخطىء في نقد الأدب وتقديره ، وكانت أعراض التكلف تصادف منه نفورا شديدا سواء في الطبائع وفي الاساليب ... ـ نوفمبر سنة ١٩٣٧» .

خير ما في هذه السطور اشارتها الى ان ابرز ميزات المؤلف «تتراءى للقارىء في جميع هذه الصفحات : الذوق الادبي الصادق ...» وانك لواجد في هذه الصفحات الكثير الكثير مما اختصره الشايب لدرجة الاخلال ... وكنا نتمنى عليه لو جاءت الصفحات الثماني كلها عن طه احمد ابراهيم لتعرفنا بالفقيد العزيز ، ولكن «الزميل» لم يشأ ان يتبسط لشأن دائم فيه من «الانقباض» فما خفف كربا ولاهدأ روعا ... فخسر هو حب القارىء وخسرنا نحن اخبار الراحل . ولابأس ، ونعود نتعزى بالكتاب نفسه ، وفي الاثر ما يدل على المؤثر وفي الصنعة ما يدل على الصانع ، وانك لاتعدم الفقيد في حروفه .

وتمضي في قراءة «الكتاب» فتزداد إعجاباً بهذه المسيرة الراقية ، الهادئة وهذه النفس المتأملة المتأنية ، وهذه اللغة اللدنة الطرية ... وإعجابا خاصا بهذه السهولة لدى الصعوبة ، وهذه البساطة عند التعقيد ، وهذا البناء الشامخ بهذه المواد الخادم ، وهذا الاستقراء والاستنتاج ... ولا ولن تجد لغة مطواعة دون ان تخرج عن شرائط البحث العلمي كلغة طه احمد ابراهيم .

صحيح هذا ... ولكن في نفس المحب توق لزيادة العلم بالمحبوب . فما العمل ؟

كنت في السنة الثانية من دار المعلمين العالية (١٩٤٢) حين اكتشفت تلقائيا الكنز الثمين ، وهب علي نسيم الحديقة الغناء وتتلمذت على كتاب «تاريخ النقد الادبي عند العرب» وكان لدينا استاذ مصري اديب منتدب (هو الدكتور ابراهيم سلامة) فخففت اليه ، واعجاب طاغ علي ، اسأله عن طه احمد ابراهيم من ؟ وماذا ؟ وكيف ؟ فمازادني الاستاذ المصري شيئا يذكر الا ماكان من ثناء عطر لم تكن بي حاجة من العلم اليه !

وحل الصيف واشتد الشوق ونهض القلم ليخط كلمة عن طه احمد ابراهيم تنبىء عن ثناء بين الفرح والحزن ، وتعرب عن حسرة بين

امتلاك العمارة وفقد بانيها .

وقرأت الكلمة مع نفسي لنفسي فوجدتها دون مايجب ، فعدلت عنها ولم يشغلني مصيرها .

وتخرجت في «الدار» (١٩٤٥) وكانت الفرحة التي تفوق فرحة التخرج ظفري بنسخة من كتاب طه احمد ابراهيم في مكتبة الفرات ـ الحلة فاقتنيتها وانا بين اليأس والرجاء ارختها ١٠/١١/١٩٤٥ .

ثم ظفرت بنسختين في سوق السراي ـ بغداد فاقتنيتهما على وجه من الخفة والجشع : واحدة لي على سبيل الاعتزاز والاحتياط ، وواحدة لزميل كان يبدو عليه الاهتمام بالنقد الادبي .

وحصلت البعثة الى مصر ، وبلغت جامعة فؤاد ودخل الصف (الفصل) علينا «الاستاذ احمد الشايب» فما حدثتني نفسي بسؤاله عن زميله القديم لما عليه الرجل من «انقباض» يرى المقبل عليه عبث الاقدام وجدوى الاحجام .

وبلغت باريس ، وعدت منها ادرس «النقد الادبي» وبدأت الحديث عن المصادر والمراجع فكان فيما كان التقدير والحب لطه احمد ابراهيم والاكرام والاعلاء «لتاريخ النقد الادبي عند العرب» ، وانتقل سر اللهجة الصادقة من المدرس الى طلبته .. وانما الحسرة كل الحسرة في موت المؤلف قبل الانتهاء من مسيرته . ولابأس ، ولابد من التقنع فان الاساس من النقد إطمأن خلال القرون الاربعة الاولى ...

وظل ذلك يتكرر العام تلو العام ، لمناسبة ولغير مناسبة . ولكن لابد من قرن الحديث الشفهي بالمقال التحريري واحضر الورق وامسك بالقلم واشرع في الكتابة عن طه احمد ابراهيم صاحب «تاريخ النقد الادبي عند العرب» ولايتوقف القلم ولاتتقاصر الاوراق ولكن الذي في الكلمات دون الذي في النفس فعدلت عنها ولم يشغلني مصيرها .

وتحين فرصة للعمل في جامعة الرياض ، والتقي في جامعة الرياض

باستاذ مصري كريم لي (هو الاستاذ مصطفى السقا) حتى اذا اطمأن المجلس سأل التلميذ استاذه عما في علمه عن طه احمد ابراهيم فجاء كلام الاستاذ ليؤكد مالدى التلميذ عن مكانة الفقيد وعلمه وفكره وخلقه . وليس فيه زيادة على مايذيعه «الكتاب» عن هذه الروح من عطر واريج .

وانما الزيادة في خبر نادر ذكره فلم يستثر استغرابا بقدر ما أكد تصورا . قال الاستاذ : حين تخرج طه احمد ابراهيم في دار العلوم كان يملك بستانا جاءته إرثا ، فرأى ان خير استثمار لهذه البستان ان يبيعها ويستغل ثمنها الحاصل من البيع في السفر الى باريس والوقوع هناك على جوهر النقد الادبي . وقد فعل .

قلت : طبعا كأن الامر مفروغ منه لدي ، وكأني اعرف طه احمد ابراهيم أكثر مما يعرفه الاستاذ الفاضل المتحدث ويدخل في الكلمة (طبعا) انه لو لم يسافر ويزهد بالمال لبقي حيث بقي الوف الدرعميين (خريجي دار العلوم) ؛ ويدخل في الكلمة كذلك ان الرجل وهو على الدرجة العالية من إدراكه لمهمته ووعيه لمنهجه لم يستغل علمه الفرنسي للعبث بالتراث العربي في التقليل من شأنه او النظر اليه خارج ظرفه ، ولم يتنطع ليزج بنظريات الغرب واسماء اعلامه في ثنايا تضيق بها او تمجها ، وانما استغل من علمه الجديد روحه ، ومضى يتأمل التراث الذي بين يديه من حيث هو ، وفي الافق ، والطريقة والاداء ... وقد وجد فاحسن الوجود وبنى فاحسن البناء ـ وهكذا يجب ان تكون الاشياء وقد كانت .

وامتلأت النفس بالتقدير والحب ورأت أن تسيل على الورق كما هي ولكن الحاصل جاء حبرا على ورق والذي في الكلمات دون الذي في النفس . فعدل صاحبها عنها ولم يشغله مصيرها .

إن شاغله «طه» و «الكتاب» ...

ويعود ثانية الى بغداد ، ويوكل اليه درس «النقد الادبي عند العرب» ، وطبيعي الا يجد غير الكتاب الذي هو «الكتاب» منطلقا له ولطلبته في الدرس . وطبيعي ان يبدأ درسه بالثناء على المؤلِّف والمؤلَّف . ويسعده مرة اخرى ان يرى التجاوب يزداد كلما تقدم الوقت .

- استاذ ، ماذا عن حياته ؟

- هذا الذي شيبني . وهذه خلاصة الذي لدي ... ثم شكرا للزركلي للقليل الذي زودناه في «الاعلام» : «طه بن احمد ابراهيم : اديب مصري . من قرية «ميت عفيف» بالمنوفية تخرج بدار العلوم (١٩٢٠) ثم بجامعة السوربون (١٩٢٥) وتنقل في التدريس الى ان درس في كلية الاداب بجامعة القاهرة (٢٩) وكان شاعرا خلف مجموعة من الشعر ضاع معظمها ...» .

- ولكن ، استاذ ، هل سد طه احمد ابراهيم باب تاريخ النقد الادبي عند العرب ؟

- نعم ، ولا ..

لا ، بشرط الاختلاف في الغاية والجديد في المادة والعثور على مخطوط والسعة في الرقعة والنفاذ الى زاوية ... وهذا قليل نادر ولكنه يقع .

ونعم ، لأن الذي حصل فعلا ان صدر بعده اكثر من عشرة كتب ادعى اصحابها التأليف وداعب عددا منهم الغرور ، ولم يتعدوا حدود طه ، ولو اكتفوا بكتابه مع إضافات وشروح وتعليقات ومناقشات لكان اجدى على الحبر والورق !!

اني على حنقي على «بيروت» وهي تعيد طبع «الكتاب» وتعيده «تزويرا» اذكر لها تيسير الظفر بالكتاب الذي صار الحصول عليه بحكم المستحيل ؛ واشكر لها انها ضيقت المجال على من يتصدى للتأليف بحجة غياب «الكتاب» .

ومابين الحنق والشكر اخف لاقتناء الطبعات الجديدة لاصفها في

جوار كريم من الطبعة الام .

ودق الجرس ، وانتهى وقت الدرس فأجل الاستاذ الجواب الى درس اخر ...

وتلوذ النفس رابعة بالقلم والورق وتجود من السر بما تجود . وينظر صاحبها في هذا الحبر الذي على الورق فاذا هو دون الذي في النفس .

ـ فما العمل ؟ أيلحق الاوراق بسابقاتها غير آبه لمصيرها ؟

ـ يلحقها ...

ـ أيتقنع بها لمناسبة مرور نصف قرن على الفقد الجلل ، والخشية ان يلقاه «غدا» ومابيمينه اليه منه كتاب ؟؟

ـ يتقنع والفقيد الغالي رضي الخلق بعيد الافق ..

الجمهورية ـ ١٩٨٥/١٢/٢٧

بعد نصف قرن
طه أحمد ابراهيم في الخَلَفْ !!!



الرائد المبدع في «تاريخ النقد الادبي عند العرب» ويصعب ان تحصر مزاياه او تحصي فتوحاته منهجا وفكرا ومادة واستنباطا ورصانة، وتكتفي اخيرا بانه الاول الذي جعل النقد الادبي عند العرب نقدا وكأن لم يكن لهم شيء منه قبل كتابه، والاول الذي عمل للنقد الادبي عند العرب تاريخا ولم يكن لنا منه تاريخ قبل ذلك.

عظيم ايها الفاتح ...

عظيم ايها الفاتح ...

لم يترك طه احمد ابراهيم مجالا واسعا بعده في الموضوعات التي حاضر فيها سمحة حلوة واضحة بعد خوض مصادرها وتصفية متناقضها واستخلاص زبدتها وتحويلها كيانا من القول والفعل والواقع ومجلى من النظر والعقل والقلب ولو عاش خمس سنوات اخرى فأعاد النظر فيها واحتاز ما بعدها من زمن وحصل على مالم يكن متهيأ من مخطوط ومطبوع واخرجها كتابا بعلمه واشرافه ...,لو ... لسد الباب الذي فتحه بوجه الذين يأتون بعده سدأ حميدا يجنبهم الخوض مرة ثانية فيما صفا له وعذب عنده.

ولكن الموت اقسى على «النقد الادبي عند العرب» من ان يرحمه. فبقي هنا وهناك مجال للقول، والشرح، والتعليق في عصر او علم او فئة او كتاب او مسألة. واذا كان ذلك الذي يتقدم للقول بعده مجهزا

ببعض ما كان له من دراسة في الغرب ومنهج واناة ودعاه الى التأليف داع يختلف قليلا عن داعي المؤلف الفقيد بأن يكون قصده الاول الحصول على الدكتوراه برسالة جامعية ... اقصد محمد مندور ... إذا كان ذلك كذلك ، امكن ان يجد شيئا يقوله فيطيل فيما اوجزه سابقه الكريم ويكمل مالم يفسح العمر فيه لذلك السابق الكريم ... لقد امكن لمحمد مندور الذي سيصير دكتورا من جامعة القاهرة أن يقول في كتابه ما يسوغ في جملته التأليف مجددا في «تاريخ النقد الادبي عند العرب» .

ويسوغ لمحمد مندور انه فكر اول ما فكر في ان يجعل موضوعه «تيارات النقد العربي في القرن الرابع الهجري» وطبيعي ان وقفة جامعية مطولة تزود صاحبها بالمنهج والفكر الغربي تستطيع ان تسوغ وجودها . ولكن محمد مندور رأى لزاما عليه ان يتحدث عن جذور نقد القرن الرابع ، فرجع ، وحصن نفسه في رجعته بما جعله اساسا جديدا لجملة رسالته ، وهو «المنهج» ..

ثم يحل مسوِّغ ثالث ، وهو تتبع «تحول النقد الى بلاغة على ايدي ابي هلال العسكري مؤلف [كتاب] الصناعتين (...) بل وانحدرنا به قرنين اخرين لاقينا ابن الاثير في المثل السائر» .

أجل ، وكل بحث في موضوع بحثه طه احمد ابراهيم يوجب ، على المتصدي الجديد أن يفتش لنفسه ما هو خارج عالم طه احمد ابراهيم ... حتى ذاك الذي زعم فيه محمد مندور لنفسه الابتكار والتجويد والملاحظة الخاصة اي تاريخ النقد قبل ابن سلام . ابن سلام الجمحي ، ابن قتيبة ، قدامة بن جعفر ، الخصومة بين القدماء والمحدثين : وكثير مما جاء في صميم موضوعه عن الآمدي والقاضي الجرجاني ... انه لم يبلغ فيه مدى الفاتح الاول ، ولم تكن له سيطرته وسماحته وانسجامه . ولم ينج من التأثر وما هو اكثر من التأثر-

وصدر كتاب الدكتور مندور بأسم «النقد المنهجي عند العرب» ١٩٤٨ .

ولابد للباحث في تاريخ تاريخ النقد الادبي عند العرب من ان يأسف لباحث كمندور ان يتجاهل الارض التي مهدها له طه احمد ابراهيم فيسمح لنفسه ان يتناساه في المقدمة ، ويمنع نفسه من النص على اسمه وفتوحاته وان يجرؤ فيقول : «هذا ، ولقد كان الموضوع حقلا بكرا فسرنا فيه وفقا لما استقر في نفوسنا من خطوط ...» .

كان مناسبا ايها الاستاذ الباحث العائد من فرنسا مزوَّدا بالعلم والمنهج والفكر ، الساعي بجدارة الى الدكتوراه في رسالة جامعية ... ان تحفظ الحق لأهله وتحي الرائد الذي لم يكذب أهله على ريادته ، ولكنك لم تفعل ذلك ، وتلك نقطة عليك (مع احترامنا المكنون لك) ، وزدت انك حين عددت «مراجعك» وجعلتها (٤٧) مرجعا سمحت لنفسك ان تجعل الفاتح الرائد الذي مهد لك السبيل السابع والاربعين ، مع «تشويه» ارجو الا يكون مقصودا فقلت :

٤٧ ـ تاريخ النقد عند العرب للمرحوم طه ابراهيم .

قلت «تاريخ النقد عند العرب» وانت تعلم انه «تاريخ النقد الادبي عند العرب» ، وقلت «طه ابراهيم» وانت تعرف انه طه احمد ابراهيم .

ثم أنك لم تثبت تاريخ صدور الكتاب (١٩٣٧) ..

واني لأعجب ان تجعله على هذا البعد في التسلسل وكأنك اضمرت من قبل إهماله فما وجدت الى ذلك سبيلا . لقد قدَّمت عليه ما هو دونه وما انت في تمام الغنى عن ذكره في المراجع ، اقصد «اصول النقد الادبي للاستاذ احمد الشايب ، وقدمت كذلك : مع المتنبي لطه حسين جزءان ، وذكرى ابي الطيب للدكتور عبدالوهاب عزام . اخشى ان يكون ذلك حسابا سابقا لمن سيكون عضوا في لجنة المناقشة !

وذكرت فيما ذكرت كتابا لك بعنوان «في الميزان الجديد» وكتابا ترجمته عن ديهامل باسم «دفاع عن الادب» .

والا فقل لي ايها الناقد حقا (واقولها صادقا) على اي نظام من منهج سرت في تعداد المراجع ؟

انتهى محمد مندور من كتابه سنة ١٩٤٧ وحصل به على الدكتوراه - ولانقاش في اهليته للدكتوراه . ونترك تفصيلات اخرى ..

وتبقى التجربة البائسة ، تجربة الاستاذ احمد امين وقد نشر كتابه «النقد الادبي» في الناس سنة ١٩٥٢ بعد ان كان للناس في النقد الادبي عند العرب كتابان يخجل المرء ان يؤلف بعد الاول منهما ، في الموضوع نفسه ، ويخجل ان يؤلف في موضوعات الثاني كذلك .

ولكن الذي يسوغ لاحمد امين هذا البؤس تبكيره بالدرس ، فهو يقول في المقدمة : «عهد إليَّ تدريس البلاغة في كلية الاداب من جامعة فؤاد الاول حول سنة ١٩٢٦ .. فأقترحت ان يدرس علم النقد في كلية الاداب على ان يطبق ذلك على الادب العربي وبدأت بذلك (...) فكان هذا الدرس (درس النقد الادبي في عمومه) اول درس في النقد الادبي على النمط الحديث فيما اعلم» ، انه مسوغ فقط . ولعله عدل وبدل في محاضراته في ضوء الكتابين او اول الكتابين في الاقل . لعله ، ولكنه لم يذكر شيئا من ذلك . ولابأس .

لابأس . والذي لاشك فيه ان كتابي طه احمد ابراهيم ومحمد مندور سدّا الباب على من تحدثه نفسه بأن يؤلف مجددا كتابا في «تاريخ النقد الادبي عند العرب» ... ويزداد السد إحكاما اذا جاء الخلف على خط ملحوظ من الجمود وضيق الافق وجاءوا يغترفون من بحر طه احمد ابراهيم مادة ورأيا ... ولا يحول فخرهم باعمالهم دون بقائهم متخلفين ... ودون فضيحة «الاقتباس» !

ويعجب المرء للعدد الذي صدرت به الكتب (في مصر مثلا) وعنوانها «النقد الادبي عند العرب» وما كان لأي منها حق في الصدور ، وفي هذه الكتب ما نال به اصحابها الدكتوراه بدرجة الامتياز ، ومنها ما كان

عليه اسم الاستاذ مع لقب الاستاذية الكامل .. وها هي ذي كتب وقعت علي مؤخرا ... فكان خير ما فيها مستمدا من خير طه احمد ابراهيم ، اما الذي هو ليس بخير فكثير !... هذه الكتب ، او من هذه الكتب اذا كان لابد من الاستشهاد : معالم النقد الادبي للدكتور عبدالرحمن عثمان . في النقد الادبي للدكتور عبدالعزيز عتيق . النقد الادبي عند العرب للدكتور حفني محمد شرف . دراسات في النقد الادبي لحسن جادالله . قضايا الشعر في النقد الادبي للدكتور ابراهيم عبدالرحمن . اتجاهات النقد الادبي من الجاهلية حتى نهاية القرن الرابع الهجري للدكتور منصور عبدالرحمن . في النقد الادبي عند العرب الى نهاية القرن الثالث الهجري للدكتور محمد طاهر درويش . الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم للدكتور عثمان موافي . قضايا النقد الادبي والبلاغة عند اللغويين في القرن الثالث الهجري للدكتور عبدالواحد حسن الشيخ ـ هذا ولم نذكر كتباً اخرى ، قبلها ، مثل «دراسات في نقد الادب العربي» للدكتور بدوي طبانة ١٩٦٥ و «تاريخ النقد الادبي» للدكتور محمد زغلول سلام ١٩٦٤ ...

ومن العجيب ان هذه الكتب المتكاثرة لا تقتدي بالرائد عندما تطرق ارضا جديدة او تتهيأ لها مادة جديدة ، لاتقتدي ولاتتأمل عمله ، ولعلها لو فعلت وطمحت لما وجدت في نفسها المؤونة اللازمة لتحقيق الطموح ولتكون خير خلف لخير السلف .

ارجو وآمل واتمنى الا تطول القائمة بعد اليوم ... ولايتقدم للتأليف من لم يكن لديه ما لدى الاستاذ إحسان عباس من مادة وتجربة وفكر ومناطق غير مكتشفة وامتداد في الزمن عرضا او طولا ... ومن هنا ارتفع بكتابه (تاريخ النقد الادبي عند العرب ـ نقد الشعر ، بيروت ١٩٧١ ....) الى الصفوف الاولى .

ان كتابك اخي الاستاذ الدكتور محط تقدير ومناط إعجاب ، مع

ملاحظة صغيرة ـ كبيرة هي غضك الصريح وغير الصريح من شأن رائد مبدع خالد تعرفه جيدا مثلما نعرفه . ولقد اطلت سرد «مصادر البحث» ولم تتزيد ، ولكنك حين وقفت عند «المراجع الحديثة» غاب عنا فيها طه احمد ابراهيم وكتابه «تاريخ النقد الادبي عند العرب» .

واشهد مرة اخرى ان لولا ريادة طه احمد ابراهيم وجلال كتابه لما تهيأ للاستاذ الدكتور إحسان عباس ان يكتشف غير المكتشف مع علمنا بما للاستاذ الدكتور من مؤهلات نادرة ..

ثم ننتظر ، ولاننتظر ...

وتحية ليست اخيرة للرائد الفائح طه احمد ابراهيم لمناسبة مرور نصف قرن على غيابه «وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً» .

الجمهورية ـ ١٩٨٦/١/٣

العرب في عامها العشرين







أنت ، أخي العزيز خارج الجزيرة ، بل خارج الجزيرة وداخلها ، لاتعرف «العرب» ولاتعرف «الجاسر» . اقولها بهذه الصراحة ، وهذه الجرأة ، وأبدأ بأبناء الجزيرة نفسها ، وبنَجْد وبالرياض ، وبالبرود . الجاسر ، الشيخ حمد الجاسر معروف جداً . هذا صحيح ، ويقترن اسمه لإعجاب بما عمل، والتقدير لما قال ، والحب على ما سلك ، وتمتدُّ ألقابه من الشيخ والاستاذ الى العلامة وعلامة الجزيرة العربية

وما للمتحدث بذلك من فضل ، لأنه لم يزد في تعريف الجاسر ، ولم يبالغ في تحديد منزلته ؛ وإنما الفضل ، كل الفضل ، للجاسر نفسه وقد جدَّ واجتهد ، وكافح وناضل ، ومهَّدَ السبل وشقها واجتاز عقباتِها ، مُضَحِّياً بالوقت وبالمال وبالجاه ، مطمئنا الى ان مكانه الطبيعي المقترن بزمانه الطبيعي المتفق مع الجاه الطبيعي إنما هو بالصبر الطويل والدأب المتصل ؛ هو بالبحث والتنقيب ؛ وهو استغلال الثروات الفطرية الكائنة فيه ، هو بالصبر والدأب في شوق وارتياح وحب وأُنس وبُلَهْنِيَةٍ ونشوة . وهذا هو الذي حدث ، وهو الذي اجدى ، والا فكيفً يبلغ امرؤ (معدم) هذه المنزلة العلمية مصحوبة بالمنزلة الاجتماعية مقرونة بالإعجاب والتعجب ؟ كيف تنصاع لامرىء فلَّاح في زاوية ضائعة من العالم هذه الحضارة التي تتحدى حضارة الغربي وتبذها عمق بحثٍ وسعةَ افق ، وجمال سلوك . كيف ؟ وكيف يستوعب

هذا المرء ـ على وجه الدقة والوعي والذكاء وحسن التصريف ـ اسرار جزيرة مترامية الاطراف عريقة الميلاد . في مواقعها مذ كانت ، وفي احداثها مهما توالت ، وفي قبائلها على تشابكها .... يستوعب الجزيرة فيما هو بداخلها ، وفيما هو في خارجها ، وفي اي امر يمت اليها باية صلة . وله في كل ذلك الموقف الحازم الجازم ، والرأي الراجح الحاسم ، مع كياسة الصلات ونضج المحاورة . وانه ليمجِّدُ السليم من النظر والصحيح من العلم في أيِّ موضوع كان ويكون ، وفي اية صورة من الايجاب والسلب ؛ ويفضح الخطأ من اية جهة صدر ، وفي اي بحث استقر . الاستيعاب لديه ذكاء ، والذكاء خلق ، والخلق حضارة .

عجيب أمر هذا الصبي المسمى حمد بن محمد الجاسر مُذْ هَجَر البرود إلى الرياض ، الى مكة : ومذ صار معلما وقاضيا ومشرفا ومديرا للتعليم ، ومديرا لكليتي الشريعة واللغة العربية ، فهو استاذ الجيل بنجد بانتظار المدى الاوسع والتقدير الاجمع وقد هجر الوظيفة نحو ما هو اجمل منها واجدى ، الى صحافة رائدة في الرياض «اليمامة» ، ومطبعة اولى (مطابع الرياض) والى تصحيح الخطأ في الكتب والمناهج والتقاليد ، تقعيداً للقواعد ورياضة للأعصاب وتنويرا للاذهان ... وتوسيعا للآفاق . وهو في كل ذلك هو المخلص لقومه حتى لو ساء ظن فلان به وفلان ، وما أسرع مايعود سوء الظن حسنا ، ويعرف الضال خطأه ، ويتعذر علنا او سرا ....

يصل مايكتبه حمد الجاسر الى من يقدره داخل الجزيرة فيعجب - وقد يحسد ويغتاط ، والى من يفهمه خارج الجزيرة فيبلغه احترامه بوجه من الوجوه ، ومن هذه الوجوه الرسالة ، والمساءلة ، والاستزادة ، والاستعانة على اعلى المستويات . وهل اعلى من المجامع العلمية في القاهرة ودمشق وبغداد ، وما جد ويجد بعدها . يتحدث فيستمعون

اليه ، ويأخذون عنه ، ويملأون بعلمه فراغا لايسده غيره ، والواحا تبقى عاطلة بغير حُلِيِّهِ .

ويهتبل ، هو نفسه ، إقامة هنا وهناك لاكتساب علم جديد ، لأنه يطلب، ما بقي فيه رمق ، ويسعى الى التعلم قبل التعليم ، وهكذا تراه حيث اقام ، قصيراً او طويلا ، يقرأ ويقتبس وينسخ ويصور ويقتني ، وشغله الشاغل الجزيرة ، وما الجزيرة بالبقعة الضيقة المساحة ، الحديثة الميلاد . انها ، والعالم كله يعرف ما هي .

يقيم في القاهرة كما يقيم في بغداد ، كما يقيم في استانبول .... ولا ولن تبعد عنه مكتبات أوربّة او أمريكة في مطبوعاتها ومخطوطاتها وفي وقوف عليها حيث هي ، واهلا بالمشاق في سبيل ذلك ، وما أحلاها ! وسهلا ومرحبا !!

وينشر المقالة هنا وهناك ، داخل الجزيرة وخارجها في مجلات الوزن العالي من البحث والمكانة ، ويلقي المحاضرة هناك وهنا في المنتديات الرفيعة التي تعرف وزن الرجل ووزن العلم الذي يحاضر فيه .

أنت ، أخي العزيز ، خارج الجزيرة ، بل خارجها وداخلها لاتعرف «العرب» ولاتعرف الجاسر . ستقول : كيف لاأعرف الجاسر وقد ذكرت من خبره ماذكرت . وأقول : جرى كل ذلك وانت ـ انت المثقف القارىء المتابع للجرائد والمجلات فتعرف امورا كثيرة ، وتعرف اعلاما كثيرين ـ ولكنك لم تعرف رجلا اسمه حمد الجاسر على وجه الشيوع والذيوع ، وعلى الدرجة التي هولها . اما الذين ذكرتهم ممن عرفه حق المعرفةفقلة محدودة معدودة خارج الجزيرة متصلا بداخلها ، ولم تكن انت ـ وانا وملايين مثلنا ـ من تلك القلة . لأنك لم تعتد ان تصل الى الحقائق عن سبلها ، وتأخذ العلم من مصادره ، وتميز من يدعو لنفسه ممن لايدعو . إن من شأن ثقافة ليست ثقافة ان تجهل رجلا اسمه حمد

الجاسر وربما استهانت بعلمه اذا وُصِف لها .

ولكن لننتظر ـ كما انتظر الرجل نفسه ـ فلن يضيع حق هو حق ، ولن يخفى قمر هو قمر . وها هي ذي الدائرة تتسع ، وتتسع فإذا حمد ابن محمد (حمد الجاسر) الشيخ حمد الجاسر ، الشيخ الجاسر ، الاستاذ ، العلامة ، علامة الجزيرة العربية . وليس لك ـ او لي ـ في ذلك فضل ، وإنما الفضل ، كل الفضل ، لحمد بن محمد نفسه ، بما سعى وطمح اليه ، وجد وطمع به ، وبما تواضع فارتفع ، ولما صبر فظفر ، إنه الآن ، ومنذ سنوات غير قليلة ملء نجد والحجاز ، وملء الجزيرة ... وملء السمع والبصر ...

ويبقى العتاب لدرجة الحساب مع قوم يقعون خارج الجزيرة ويهمهم العلم بالجزيرة ولكنهم ينتظرون ان يصل الخبر الى بيوتهم ، وان تزحف المعرفة زحفا وقصدا الى مآويهم ، فلا يخطون خطوة ، ولايكلفون أنفسهم قليلا . وليس المفروض برجل جليل كالجاسر ان يمر بهم بيتا بيتا معلنا عن نفسه : انا فلان ، كتبت في المجلة الفلانية ، حاضرت في المجمع الفلاني ، احدثكم بما شئتم عن الموقع الفلاني ، وعن القبيلة الفلانية ، والحادثة ، والشاعر ، والمؤرخ ، والفقيه ، والتشريع ، والمطبوع والمخطوط في يسر وطلاقة ، فيما ظهر من الامر وما بطن في هدوء ، وقد أَشتد لدى فضاحة الشد ، وفي لين وقد أَقسو لدى بلاغة القسوة . فأنا ـ كما اود ان تعلموا ـ معلم في بدء امري ، وسأظل معلما .... متعلما .

أجل ، ولابُدَّ من أن ندرك الفرق بين من يأتي اليك (يخدعك) ومن تذهب اليه (ينفعك) .

ولانطيل ، ولانماحك ، ولا نرمي بالذنب من لم يكن مذنبا ... ونبتعد عن المصدر وقد صار قريبا . فقد قرر الشيخ حمد الجاسر قرارا

متحضراً آخر ، بعد «اليمامة» و «مطابع الرياض» ، ونشر المقالات ، والقاء المحاضرات واقتناء المطبوع النادر ، والمخطوط الذي لايعرفه غيره ... قرر وهو في عَزِّ الكهولة ان ينشىء داراً يسميها (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) ويصدر مجلة يدعوها «العرب» ـ تعنى بتاريخ العرب وآدابهم وتراثهم الفكري . ولانستطيع ـ انا ولا انت ـ أن ندرك عظم المشروع ، وان قدرنا عظمه لم نقدر متاعبه ومخاطره ، وان قدرنا متاعبه ومخاطره لم نسبر غوره ونبلغ قعره . ويكفي الا تكون المملكة كلها ـ ونحن في ستينيات القرن الهجري / وثمانينيات القرن الميلادي ـ مكاناً للتنفيذ . فأين المطبعة اللازمة ؟ وهذا أول مايجب اما الكاتب فقد ضمنه الرجل في نفسه ، فهو الكاتب ـ على المفرد ، وهو الكتّاب على الجمع ـ . وبعد المطبعة الموقع المناسب للايصال ، فاين ؟ واين ؟

لتكن ـ اذن ـ بيروت المحطة المختارة . وهكذا صدر الجزء الاول من «العرب» في رجب ١٣٨٦ ـ تشرين الاول ١٩٦٦ ـ (مجلة شهرية جامعة) وتتابعت اجزاؤها . مقرونة بتوالي المنشورات : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ـ مدينة الرياض عبر اطوار التاريخ ـ بلاد ينبع . البرق اليماني في الفتح العثماني . المغانم المطابة من معالم طابة ـ القول السديد في اخبار امارة آل رشيد ... أبو علي الهجري. في سراة غامد وزهران ...

تتوالى الكتب مؤلفة او محققة وقطبها الاول الاساس المعتمد عليه منذ البدء هو الشيخ حمد الجاسر . وتتكاثر الاعداد فيها البحث والبحوث ، والتحقيق والتحقيقات ، والنقد والتعريف ولولبها الاول الركن الركين مذ طرأت الخاطرة هو الشيخ حمد الجاسر .

ان الشيخ ، حين عزم وخطا ونفذ لم ينطلق من ذات غير ذاته في عزمها وارادتها ولم يستند على قلم غير قلمه في علمه وفكره ، وكتبه

ومكتبته ، ما كان مبيَّضا لديه وما كان مسوّدا ، ماسينجز وما سيطرأ . وما كان اعتماده على نفسه سرابا بقِيْعَة ، وانما كان عذباً فراتا . ولك الدليل الساطع والبرهان الناجع في نظرة سريعة تلقيها الى الاعداد المتوالية ، ونظرة اسرع منها الى المطبوعات المتنامية . وانك لواجد اسمه في كل صفحة على المدى الذي لاينقطع . ومع الرصيد الذي لاينضب . ولكنه لا يعتذر ـ مع ذلك ـ عن مقالة رصينة تصل اليه ، وعن بحث عميق من باحث يعرفه . ولايصدُّ إسهام من هو اهل للاسهام وعون من يسعون بالعون ...

وهذا ماتراه في نظرة اخرى الى المجلة ـ ولاتجعلها سريعة ، رجاء ، ونظرة خاصة الى المشروع الضخم ذي المجلدات التي اقتربت من العشرين : «المعجم الجغرافي للملكة العربية السعودية» .

لقد خرج الشيخ حمد الجاسر عن حدود (الجزيرة) و (المجمع) الى العالم الواسع بمجلة ومنشورات في سرور وابتهاج ، وسعادة واطمئنان ... وانه ليهدي نتاجه المثمر هنا وهناك الى المكتبات والى من يهمهم الامر عن رضاً وارتياح ، وكرم واريحية ، فما أجلّه عالما في المجتمع العالمي ، وما أجداه (اعلاما) لبلاده وامته ـ وانه لكذلك عند الخاصة من العلماء والادباء ، وانه سفير من غير سفارة .

تقول ـ مستهينا بما لايستهان به : تعوض عنه الكتب والمصادر والمكتبات .

وأقول ـ مكبرا من هو اهل للاكبار : ان الذي يستوعبه الجاسر لايضمه كتاب بعينه او مصادر كثيرة ، او مكتبات عامرة . وانك لاتصل بالكتاب والمصادر والمكتبات الى ما هو حاضر عتيد في ذهن الجاسر دون كدٍّ ، منسجم دون حيرة وليس الجاسر مستوعباً فقط ، وانما هو مقابل مقارن مناقش ، بالغ بالذهن الى الصائب والاصوب ، فاضح بالثقة التلبيس والتدليس ، دون جهد ودون تردد .

وتقول : نشأ على القديم ، ولم يخرج في تعلمه عن طرائق تقليدية موروثة انحدرت من فترة خمول وانحطاط .

وقولك صحيح ولكنه خطأ . والخطأ فيه لأن الطريقة الموروثة اذا التقت بذهن صاف وذكاء واف ، استصفاها صاحبها فأخذ منها ما لم يتهيأ للطريقة الحديثة من استيعاب ، وقد رأيناه ، وحفظ ، وهو مالم نره ، وحفظ الجاسر عجيب ، وذاكرته أعجب ، ومن دقة وتأثم ومنطقية ، وهذا مهم لم تستطع الدراسة الحديثة بما فيها من منهج البحث ومنهج التحقيق أن توفره على الوجه الذي توفره الدراسة القديمة اذا التقت بذهن صاف وذكاء واف .

ومن شأن الذهن المتفتح والذكاء المتوقد الا يقفا بصاحبهما حيث وقف اهل القديم الخامد الجامد ، وانما يزيدان على خير القديم خير الجديد ، وهذا ما حصل للجاسر ، فلقد درس الكتب الحديثة في احسن ما فيها ، وتأملها مادة وطريقة ، وفكراً ولغة ، ومناقشة وعرضا ... زيادة على تجربة في الدراسة المعاصرة لم تكن على غير شأن فاحتاز الاحسن ، وانساب في نفسه اكثر مما انساب في نفوس اهل الحديث الذين يدرسون المنهج ولايوفرون المادة ، ويجمعون المادة ولا يملكون المنهج . وقد تتهيأ لهم المادة والطريقة ولاتتهيأ الثقة اللازمة ، واذا فقدوا الثقة اللازمة تظاهروا بها تظاهرا ينطوي على الخداع وفساد الذمة والسرقة المباشرة حينا ، والمستورة احياناً . اما الجاسر فقد تمثل في نفسه خير القديم وخير الجديد ، مع ثقة وامانة ، ومن هنا كان علمه حاضرا ورأيه حاسما ، واستحال - اي صار مستحيلا - ان يستعاض عنه بكتاب او مصادر او مكتبة ... او لجنة او مجمع علمي ، واستحال ان يغني عنه كتاب او مكتبة ، ولجنة ومجمع ...

واذا كنت في شك فانظر في عدد واحد من اعداد «العرب» لترى البحث وترى المنهج والمادة ، وترى الرجل يرضيك اذ يفكر واذ

يكتب ... ويبحث ويحقق وينقد ، ويرتأي ويقترح . فيلتقي التعجب لديك بالاعجاب .

هذا هو الجاسر ضمن ظروفه بين قديم درسه وحديث استلحقه ، وقد بذَّ كثيرين ممن درس في الغرب وعلى مناهجه في اعلى الجامعات . تُرى ـ ولك أن تسأل ـ كيف كان يكون الجاسر لو تهيأ له ان يدرس ـ مع قديمه ـ جديدا في السوربون او كمبرج من مواد الفلسفة وتاريخ العالم ، وادب العالم ، الى جانب ما وعاه وتمثله من شؤون الجزيرة تاريخا وجغرافية وادبا . ؟ لقد رأيت الرجل ، دائما وابدا ـ اكبر من البيئة التي تحتويه ، واوسع أُفُقا من الدائرة التي تحيط به ، ولو كان في السوربون او كمبردج لما اختلف الامر ولما حالت الحال ، وربما ضاق استاذ في باريس او كمبردج بأفق تلميذ جاءهم من البرود ... أجل ...

ونعود الى ما كنا فيه من سياق المجلة .... والعتاب مع من جهلها خارج الجزيرة ، والعتاب لدرجة الحساب مع من بقي يجهلها داخل الجزيرة يجهلها او يجهل قدرها ، او يعرفها نصف معرفة ! وما زال في تدارك الفائت مندوحة ، وما لايدرك كله من الوقوف على (منشورات اليمامة) كلها ، ومجلدات «العرب» كلها يمكن التعويض عنه بعُشْر من هذه وعشر من تلك ، وبكتاب واحد ومجلد واحد ، والمنشورات متوالية ، والاعداد متتابعة ... ومن المجلدات الاولى ما اعيد طبعه تصويرا ، والتصوير مستمر حتى يتصل السابق باللاحق .

تدخل «العرب» عزيزة (كريمة) عامها العشرين ، وكل عدد منها كتاب ، وكل بحث كتاب ، اما البحوث المتسلسلة فهي مجلد او مجلدات على ان نتذكر ان محررها الاول الاساسي المعتمد عليه ، هو قلم الشيخ حمد الجاسر . ولو قلت : ان ثلثي مطبوعات «اليمامة» من قلمه لما ابعدت ، وربما عوتبت . وقلت ان ثلثي مجلدات «العرب» من قلم

الجاسر لأصبت ، وطولبت بما يزيد على الثلثين .

ولاأحدثُك عن الصعاب التي لقيها الرجل في سبيل المضي على صراطه المستقيم . وطبيعي ألاَ يرِد هنا العنصر المالي لأن الرجل لم يضعه في مخططه ، وانما ترد مصاعب لبنان الذي سمح له بأن يفتح مكتبا ويستأجر بيتا وان يطبع في مطابعه المجلة والمنشورات لما في ذلك من مردود مادي للدولة ، ولم يسمح بأن تكون للمكتب سمة تجارية في التصدير والاستيراد . وما كان الحصول على السمة صعبا لو (تَسَهَّل) الشيخ قليلا وقبل الاساليب الملتوية .

وترد كذلك الحرب الاهلية ، وحرق المكتب بما فيه من مخطوطات ومبيَّضات ومسوَّدات ، ونوادر لايعرف قيمتها الا صاحبها الذي عانى في سبيلها ماعانى . وتحمل كارثة سقوط الطائرة الجيكية في عرض البحر الابيض المتوسط وهي تحمل ـ فيمن تحمل ـ ولده البكر ! محمداً . فتظلم الدنيا ، وترهق الاعصاب ويستحكم اليأس .

ويمضي الرجل على تلك الحال ، وما بطن منها اكثر مما ظهر ، مدةً غير قصيرة انتهى خلالها ، وعلى التدرج ، الى احتمال المصاب ، والخضوع للامر الذي لامرد له ومخادعة النفس ، وتلقي التعازي ... ويصير استئناف الهواية شيئأ فشيئا ضربا من معاني التناسي وشيئا من التآسي وهكذا تعاوده العافية ، ومع العافية منشورات اليمامة ، ومع منشورات اليمامة مجلة العرب متخذأ مقره ـ هذه المرة ـ في الرياض ، وكفى غربة ! وقد تهيأ في الرياض من المطابع مايمكن تدبر الامر معه .

لا أحدثك عن الصعاب لأني لاأعرفها جيدا ، واذا لمحت الظواهر فإني عاجز عن البواطن ، وانما الذي لاشك فيه انها لو استمرت واستعصت واستحكمت فحالت دون الاستئناف ، لكانت الخسارة بها مضاعفة والفجيعة متصلة والمصائب ضخمة ، واضخم منها من يعتليها .. فتكون له منشورات ومؤلفات ومجلة ...

ونعود ، مع المجلة ، الى السياق ، والسياق عجب واعجاب ، واحترام وتقدير لظاهرة تتصف بالفرادة والفذاذة ... وهي أنَّ رجلا واحدا (لايعرف تاريخ ميلاده الا تقريبا ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩) خرج من اعماق قرية ضائعة في طوايا جزيرة شاسعة - ينهض وحده بمجلة رصينة راقية نادرة ، يغذيها - اذا تركنا المنشورات - ويشبعها ويسمنها ورصيده قلمه ؛ ويسهر عليها وماله من نصير ، ويتقدم بها وما يكون لها من نظير ... مدى عشرين عاما ، وعلى مدى مايتمتع به من صحة ونظر وقلب ، وعلى الرغم مما انتاب الصحة وعكر النظر وفاجأ القلب .

وبعد ...

فلقد امضى الرجل اكثر من خمسين عاما من عمره المديد استعدادا لمشروعه المتميز في مجلة «العرب» ، وأمضى اكثر من عشرين عاما بعدها يُغَذِّي المشروع ويشبعه ويسمنه من صحته وبصره وقلبه . وهو اليوم اذ يبلغ - او يتجاوز الخامسة والسبعين ميلاديا (السابعة او الثامنة والسبعين هجريا) فإنه يطلب الصحة العامة بكل الوسائل ، وسهما يكلف الامر من اجل ان تبقى «العرب» كما يريد ، وكأنه لايرى الحياة تطيب بدونها حتى لو دعاه محبوه الى ان يخفف من غلوائه ، والا يدع مجالا لحب ان ينهض على حساب حب .

حب ينهض على حساب حبٍّ - ما معنى هذه العبارة ؟ اشهد انها غامضة لاتوصل ولاتبلِّغ ، واعترف كذلك اني صرفت في صياغتها وقتا طويلا ، وشغلت بها واعيا وغير واع وكأن شيئا يعترض الوضوح ، وإنه لكذ لك ، ولكنه ليس بغيضا ، لأنه يدخل في باب (الأدب) ، وربما حالت حصافة دون فصاحة ، ومنعت لياقة لباقة !

ومضى يوم كامل وحسبتني (وجدتها) كافية شافية إذ فهمت منها : أننا وقد أحببنا الجاسر بـ «العرب» لانريد أن نحب العرب بالجاسر ! فما وجدتها إذ وجدتها ، ومازال الغموض يكتنف العبارة ، ولاتكاد

اللاحقة تختلف عن السابقة ، ولابد من شرح جديد فقد بات الجاسر عزيزا علينا ، ولا نريد ان تجور مجلة على صاحبها ، لقد ادى الرجل الواجب وتعداه الى تضحيات الهواة «الغواة» ، وعاد حُرا في اتخاذ القرار بين تكليف فوق الوسع ، وتمهل مع الرفق او ادنى جزء من معنى التسلية .

ـ أتراني بَلَّغْتُ ؟

ـ أشك !

ولنعد الى (ثُمالة) ما كنا فيه من سياق ، ونحكم على الشيخ حمد الجاسر في محصلة ما عرفنا عنه في اخباره وتجاربه ، في علمه وخلقه ، فيما كان له ولم يكن ، في منشورات اليمامة ومجلة «العرب» فإذا هو المثل الذي يتخذ في قياس (المتحضر) الحقيقي . واذا عددتني مبالغا ، فأنت أحدُ اولئك الذين يشملهم العتاب ـ وحاشاك .

ولنقف قليلا نهنىء الرجل على سعادة تهيأت له ، ونشكره على خير هيأه لنا . (وقيمة كل امرىء ما يحسن) ، وقد احسن الجاسر كتابا ومجلة ونشرا ، فلنحسن نحن قراءة وتعلما وشكرا .

العرب ، الرياض ج١ ، ٢س٢٠ رجب / شعبان ١٤٠٥هـ ـ
نيسان / آيار (ابريل/مايو) ١٩٨٥م ـ قدم لها الشيخ الجاسر بفقرتين ....





على طريق الاحتفال بألفية الشريف الرضي
طبع ديوان الشريف الرضي





الشريف الرضي شاعر كبير وشخصية ضخمة في تاريخنا ، و «نابغة» في جملتها كذلك . ولايقل شعره عن علمه ، عن أثره في الحياة في عصره ، عن أثره الادبي والفكري في العصور التالية ، وانه لمدرسة في الشعر ... لم ينقطع ذكره او التأثر به على مدى اجيال واجيال ، وللعراق الحظ الاوفى في ذلك ، ولكنه لم يتفرد ... فذكره ـ واثره ـ في كل مكان . وانظر في الاقل مختارات البارودي ومايرويه شعراء العصر الحديث ممن حفظوا له وتأثروا به ـ تبدأ مدرسته الشعرية بمهيار ولاتنتهي بالسيد حيدر ..

وهذه المرة الثانية التي ترتفع الدعوة الى الاحتفال بذكره ، واخشى ان تكون كالاولى ، وآمل الاتكون وآمل ...

وقد طبع ديوانه في الهند سنة ١٣٠٦هـ وطبع في بيروت سنة ١٣٠٧ ـ ١٣١٠هـ ، واعيد طبعه في بيروت مرة بل مرتين . وطبعة بيروت الاولى لابأس بها . ولكن الديوان يبقى وكأنه لم يحقق ، بل انه لم يحقق على الوجه العلمي . وادرك الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد اهمية الديوان والحاجة اليه فعزم على شرحه ـ دون تحقيقه ـ ونفذ عزمه بأن اصدر الجزء الاول وتوفي وانتهى الامر عند ذاك .

ونبقى ننتظر الطبعة العلمية المحققة المعتمدة على المخطوطات ، القائمة على جهد علمي مخلص ... وننتظر حتى قارب الامل ان يتحقق ،

وتحقق بوجه ولم يتحقق بوجه .

تحقق اذ انبرى له رجل اديب عالم فاضل «صحب الشريف الرضي وخلطه بنفسه» هو المحقق الثبت الاستاذ عبدالفتاح محمد الحلو وقد حصل على الدكتوراه سنة ١٩٧٤ برسالته : «حياة الشريف الرضي ودراسة شعره» حتى اذا أجيز «عاد ادراجه الى الديوان يتم تحقيقه وشرحه» وقد تهيأ له من العلم الكثير ، ومن ألفة الشاعر الغزير ومن المخطوطات مالم يتهيأ لغيره ... ومضى يعمل بجد ونشاط وارتياح حتى انجز مشروعه الضخم على خير مايكون . لقد ادى الرجل واجبه ، وبقي واجب الاخرين . فهو محقق لاناشر ، وهو باحث لا صاحب مطبعة ، لديه العلم وليس لديه المال . والكتاب ضخم ينوء به الجهد الفردي ، ولاتهش له الدور التجارية التي تبغي ربحا كثيرا وعاجلا في ان واحد .

فما العمل ؟

لقد احسن ـ وارجو ان يكون كذلك ـ اذ توجه الى العراق ـ اعرف بلاد الله بالشريف الرضي ، وفضله ، ومدرسته في الشعر .... وتوجه الى وزارة الاعلام فأودعها جهده ، واحسنت الوزارة الاستقبال وقررت ان تطبع الديوان ـ ديوان الشريف الرضي ـ محققا مشروحا ، في احسن تحقيق واجود شرح ـ على نفقتها .

ومضت الايام رخية متوانية حتى صدر الجزء الاول سنة ١٩٧٧ مرتبا على القوافي منتهيا بانتهاء حرف الدال . ولابأس ، وننتظر الحروف الباقية وهي الاكثر ، ستكون جزءين في الاقل . وننتظر ، ويطول الانتظار ومرت سبع سنوات . ولم تبد أية اشارة ، او تظهر في الافق اية غيمة ممطرة ..

واليوم ، وقد نهضت الدعوة الى الاحتفال بالذكرى الالفية لوفاة الشريف الرضي على الوجه الذي نهضت فيه ، تجدد الامل بطبع الجزءين الباقيين (والامل باعادة طبع الجزء الاول وقد نفدت نسخته) ،

وليس معقولا ان يكون الامل سرابا ، وان يطول الانتظار سبع سنوات اخرى .

المنتظر الاكيد الواجب من اللجنة المشرفة ـ وهي لجنة ضخمة ـ ان تأخذ قضية طبع ديوان الشريف الرضي مأخذ الجد والاولية ، ويمكنها ـ وليس ذلك صعبا ـ ان ترجع الى مخطوطته في مسارب لجنة التعضيد فان وجدت الجزءين الباقيين فبها سارت تنفذ الطبع ، والا راجعت الاستاذ المحقق وادخلت الطمأنينة الى نفسه ـ بعد ان تزعزعت وكادت تتقوض ، ان بقي منها ذماء ـ وحصلت عليهما منه مقابل عقود ومواثيق ـ انه يعمل الان استاذا في الجامعات السعودية ـ وفي الرياض على الوجه الادق ، وربما في جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية .

وبعد فقد عني الدكتور عبدالفتاح محمد الحلو عند الشرح ـ اكثر ما عني ـ بالمفردات ، ولكن صعوبة شعر الشريف الرضي ـ بعد المفردات ـ بمعنى الابيات ، بحل تركيبها ، وللشريف نمط خاص في بناء ابياته . وخير من يصلح لهذه المهمة ، مهمة شرح معاني ابيات الشريف الرضي هو الاستاذ الشيخ محمود محمد شاكر ـ عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ وهو من محبي الشريف الرضي ومن كان في عزمه شرح ديوانه ، ويملك من مخطوطاته اكثر من نسخة ـ فيما اعلم .

فهل تخف اللجنة المحترمة لمفاتحة ـ الشيخ واقناعه ! ارجو وارجو !! .

الجمهورية ـ ١٩٨٤/١١/١١



مختارات
من الشعر الرومانتيكي الانكليزي



■ **اختارها وترجمها وعلق عليها : د . عبدالوهاب المسيري ومحمد علي زيد**

بعد الاهداء ومقدمة المترجمين يأتي الباب الاول : الدراسات التأريخية وفيه الرومانتيكية بقلم هارولد م . مارشي ، الاطار الاجتماعي بقلم اوجل رُيكورد ، السمات الاساسية للأدب في الفترة ما بين بليك الى بيرون بقلم د . و هاردنج .

الباب الثاني : القصائد والدراسات النقدية وسير الشعراء وموجز اهم اعمالهم : توماس جراي . وليم بليك . وليم وردزورث . صمويل بتكر كولردج السير والتر سكوت . جون كيتس . جورج جوردون بيرون . بيرسي بيشي شلي . المصادر ..

الكتاب قيم ، جهد المترجمين بيّن والحاجة الى مثله ماسة ، وقد حوى من القصائد مالانجده في مكان كما وكيفا ، وياحبذا لو ملكنا مثله لمختارات من الشعر الرومانتيكي الفرنسي ، ومثله الالماني .. الخ ، ومثله للمذاهب الادبية الاخرى ..

ليس في ذلك نقاش .. وانما النقاش على بساط اخر .. ، ويقتضي البساط الماْمة خاصة بمقدمة المترجمين ، وقد بينا فيها قيمة الترجمة في الحضارة ، واهتمام العرب قديما بها ، وما يجب ان يكون من اهتمام في العصر الحاضر . والكلام سليم ، ومعروف ثم قالا : «... ان

الرومانتيكية رائد اساسي في التفكير الاولي الغزلي المعاصر بل وفي التفكير السياسي الحديث ذاته سواء في الغرب الرأسمالي ام الشرق الاشتراكي . ولعل الحركة الصهيونية ذاتها (تماما مثل النازية) قد اشتقت بعضا من موضوعاتها الاساسية من الحركة الرومانتيكية . فالعودة لأرض الميعاد هي اشتقاق من فكرة العودة للطبيعة وفكرة ارتباط الشعب بالارض وتوحده الكامل بها وارتباطه بها ارتباطا عضويا لافكاك له منه نابعة هي الاخرى من المركزية التي تحتها الاستعارة العضوية في التفكير الفلسفي الرومانتيكي .ولعل شخصية ـ مارتن بوبر هي احدى نقط التلاقي الاساسية بين الرومانتيكية والصهيونية . فهو فيلسوف الصهيونية الاول ، وهو في ذات الوقت من اهم المفكرين الدينيين الرومانتيكيين (ومما له دلالته في هذا المضمار ان كل مفكري الصهيونية ورواد الاستيطان الصهيوني هم من مواليد القرن التاسع عشر في اوربا ، وهو عصر الرومانتيكية) وهذا لايعني من قريب او بعيد دمغا للرومانتيكية او هجوما عليها .» .

كلام في المقدمة «خطير» لم اسمع به يوما ، ولم اقرأ مثله ، ولست مقياسا له ، ولكنه يحمل الرومانتيكية ماهو فوق طاقتها ، وان فيه من التناقض ما فيه ، ومن تكلف «الاستيطان» الكثير واذا كان «رواد الاستيطان الصهيوني هم من مواليد القرن التاسع عشر في اوربا» فالذي نعرفه جيدا ان الميلاد الحقيقي للرومانتيكية يرجع الى الثامن عشر ، واذا لم تذكر جان جاك روسو وشاتوبريان ، وجب ذكر مولد الرومانتيكية الالمانية اما في انكلترة ، وفرنسا .. وفيما سواهما ... فلم تشغل القرن التاسع عشر كله ، بل ان الرومانتيكية الفرنسية تضعضعت منذ عام ١٩٣٠ وانقلبت الى ضدها تدريجا ، ومنذ اواسط القرن التاسع عشر خاصة : الم يكن مبدأ «الفن للفن» ضدها ؟ الم تقع «الواقعية» نقضا لها ثم توالت اتجاهات وتيارات ومذاهب خلال القرن

نفسه ... ولا اخالك تجهل الرمزية ! ..

اننا نقرأ كتاب المترجمين الفاضلين فلا نرى رائحة للصهيونية فيه ، فاذا كان مكان الصهيونية من الرومانتيكية كما ذهبا اليه ، اما كان الحس القومي فيهما كافيا لأن يقلل من اهتمامها بالرومانتيكية وتوفير الجهد المبذول لميدان من ميادين الكفاح ؟ .. اما كان مناسبا ان يبينا جيدا للقارىء العربيِ بالدليل والمثال والحكم مكان الرومانتيكية في خدمة الصهيونية او مكان الصهيونية في خدمة الرومانتيكية مع ذكر الشعراء الرومانتيكيين الاعلام الذين اسهموا في الحركة الصهيونية ، والوقوف عند قصائد بارزة تعلن الصهيونية ؟ اخشى ان يكون المترجمان الفاضلان قد اضفيا على الصهيونية قيمة لم تكن في قصدهما .. وربما كان قصدهما دارا للنشر فلسطينية (المؤسسة العربية للدراسة والنشر) يملكها فلسطيني (الدكتور عبدالوهاب الكيالي) في بيروت وراء استنباطاتهما ، في زاوية من زوايا العقل الباطن ..

المترجمان مختصان بالادب الانكليزي .. وليس المكان مكان مناقشة مسهبة وانما هو دعوة الى المناقشة ، يدلي فيه العارفون بالرومانتيكية وبالصهيونية بارائهم صريحة مخلصة للحقيقة وللقومية - لأننا لانريد ان نخسر من حيث نفكر بالربح ، ولانريد ان نقع في نتائج لاتقف على مقدمات وطيدة ... فيتلقف الاعداء هذه النتائج الهشة ويجسموها ويذيعوها عنا - نحن الاساتذة في الجامعات انموذجا لمنهج البحث العلمي لدينا ! ..

نترك الموضوع ، اذا للمختصين الحريصين فعلا على الامة والفكر .. ونعود الى ماكان فيه اساسا من شأن المقدمة ، او شأن خاتمتها حيث قال المترجمان الفاضلان : « .. هذا وقد قامت احدى المؤسسات الحكومية الثقافية بتكليفنا باعداد هذا الكتاب وحينما انتهينا منه احجمت المؤسسة عن نشره بحجة انها لن «تحقق» اية ارباح مالية ،

وكأن الوظيفة الاساسية للمؤسسات الثقافية في بلادنا هو مضاعفة راسمالها ، وكأن الاستثمار الوحيد النافع في بلادنا هو الاستثمار الذي له عائد مالي سريع ومباشر ، وقد قام الدكتور عبدالوهاب الكيالي ،.وهو ناشر خاص ، باصدار الكتاب فله الشكر والتقدير» ..

كلام المترجمين هنا واضح لالبس فيه ولاتناقض ولاتكلف : كلفتهما جهة رسمية (في مصر ؟) باعداد هذا الكتاب ، وبعد ان جدا وكدا احجمت بحجة «واهية» ..الخ . والكلام واضح في انهما ينشران الكتاب للمرة الاولى ، وانه لم يكن قد طبع من قبل ، ولم يكن الناشر الطابع مؤسسة حكومية ثقافية (مصرية) . الكلام لالبس فيه ولاتكلف عليه ، وتقرأ في الكتاب الذي بين يديك انه «الطبعة الاولى ..» الكلام لاتناقض فيه بمنطقهما ، والافقد يكون فيه تناقض بعلم غيرهما ..

وها هي ذي معلومات يمكن ان تخدم القارىء للاستدلال على التناقض .

وفي هذه «المعلومات» ان الكتاب هنا ، في بيروت طبعة ثانية ، وقد كانت طبعته الاولى في مصر سنة ١٩٦٤ ، عن جهة رسمية ثقافية برقم (٥١٥) من سلسلة «الالف كتاب» التي يصدرها «المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية» ، باشراف الادارة العامة للثقافة لوزارة التعليم العالي . الناشر : مؤسسة سجل العرب ، دار شوسة للطباعة ـ ٣٧٨ ص + صفحة للمصادر ..

اني انقل هذه المعلومات ، عن الطبعة الاولى نفسها . وطبيعي ان القارىء لايقتنع بصحتها بدون ذكر مواد هذه الطبعة الاولى ، وها هي ذي المواد : الرومانتيكية (بقلم هارولد م . مارش) . الاطار الاجتماعي بقلم اوجين ريكورد .

السمات الاساسية للادب في الفترة ما بين بليك الى بيرون د . و . هاردنج .

وليم ورد زورث . صمويل تلير كولريدج . وليم بليك . برسي بيش شللي ..

جون كيتس . جورج جوردون بيرون . السير والترسكوت .

الكلام الوارد هنا هو هو الوارد هناك . القصائد المترجمة الواردة هنا هي هي القصائد المترجمة الواردة هناك . وتسأل عن الفروق ، ولابد من شيء من فروق هاهي ذي : زاد المترجمان في الشعراء : جراى (فقط) ، وقدما وأخّرا قليلا في السبعة الدائميين . ثم حذفا مما جاء في الطبعة الاولى التصدير وقد كتبه محمود محمود ، والصفحتين اللتين ضمتا «قائمة بأسماء وكتب ومراجع صدرت باللغة العربية عن الرومانتيكية» ، وحذفا كذلك ما جاء على الغلافين (الخارجي والداخلي) عبارة «راجعه الدكتور مصطفى بدوي ومحمود محمود» ..

الخلاصة ان «مختارات من الشعر الرومانتيكي الانكليزي» الصادر ببيروت ١٩٧٩ طبعة ثانية للكتاب الذي صدر من قبل في القاهرة ـ وفاتنا ذكر اسمه ـ «الرومانتيكية في الادب الانكليزي» ..

واشهد ان بعنوان الطبعة الاولى في القاهرة حاجة الى تعديل لانه لم يكن في واقعه «الرومانتيكية في الادب الانكليزي» وانما كان «الرومانتيكية في الشعر الانكليزي» وهذا اقصى مايحتمله من تغيير ، ان تأتي الطبعة الثانية في بيروت بعنوان «الرومانتيكية في الشعر الانكليزي» على ان يوضع تحت العنوان الرئيسي (الداخلي عادة) انه صدر في طبعته الاولى بعنوان «... في الادب» .. ويذكر المترجمان في مقدمتهما الدافع العلمي الى تعديل العنوان .. اما ان يصدر في بيروت على انه طبعة اولى ، ويحذف منه اسمي المراجعين ، وينكر امر نشره السابق انكارا تاما ، فلا . اما العنوان الجديد الذي اختاره ، المترجمان لطبعة بيروت وهو «مختارات من الشعر الرومانتيكي الانكليزي» فهو غير صحيح وغير دقيق لان الكتاب ليس مختارات من الشعر فقط ، وانما هو «دراسات

تأريخية» يكفي من اهميتها انهما جعلاها «الباب الاول» من كتاب يقوم على بابين فقط ، الباب الثاني «القصائد والدراسات النقدية وسير الشعراء وموجز اهم اعمالهم» ..

مما يزيد في الدليل على تصميم سابق للمترجمين في طمس الحقيقة حقيقة كون كتابهما الجديد طبعة لكتابهما القديم ماعلمت من حالة الشكوى التي توجه بها احدهم الى «المؤسسة» ببيروت والالم ظاهر على الوجه . والضيم شديد .. وكأن الحالة يرثى لها .. وطبيعي انه لم يوفر لنفسه جهد اعادة نسخ المطبوع مخطوطا بأن يقدم المخطوط مطبوعا ! ..

وبعد .

فالكتاب في حاليه ، قيم ، نافع .. ولكن القارىء يود للمترجمين موقفا ارقى من الوجهين اللذين قابلاه بهما ، ويفترض في انتقال المسيري من الماجستير الى الدكتوراه خطوة نحو الامانة العلمية ، وربما لاحظ غمطا خاصا لحقوق الاستاذ محمود محمود ، وسأل اين كان المترجمان عن مقدمتهما يوم صدرت الطبعة الاولى ؟ ! ..

الجمهورية ١٤/١٢/١٩٨٤

إعلان في «فصول» !



« فصول» مجلة النقد الادبي ، تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب : رئيس التحرير : عز الدين إسماعيل تتبعه هيئة للتحرير ، وهيئة ضخمة من مستشاري التحرير على رأسها : زكي نجيب محمود . أشهد انها مجلة راقية ، مهمة تسد نقصا في الفكر الادبي عموماً ، وتثبت قيما جيدة للمعاصرة صدر عددها الاول في يناير (كانون الثاني) ١٩٨٠ ومازالت توالي الصدور .

وكل عدد كتاب وربما كانت اعدادها الاولى اجدى من اعدادها التالية ، وربما كانت القوة فيها تعتمد على ماتنقل من الفكر الغربي او تتأثر به او تتمثله ـ ولابأس ، بل اننا نحتاج الى ذلك امس الحاجة . واصدرت اعدادا خاصة ، فيها مايخدم هذه الحاجة من النقد الادبي ومناهجه ، ومن الفن الروائي ، وفيها مايدخل في عامل «الوفاء» فقط على حساب القارىء فقط كالعدد القائم على صلاح عبدالصبور ؟

وفيها ما حسن ان يصدر في كتاب مستقل خارجها كالعددين الضخمين المتضمنين وقائع الاحتفال بذكرى «شوقي وحافظ» او «حافظ وشوقي» واصدرت عددين خاصين بالحداثة في اللغة والادب ..

وهي «تجند» عددا كبيرا من الكتاب ، وتمتد احيانا بهم الى خارج مصر .. وان كان الملاحظ ان العنوانات التي يتضمنها العدد الواحد اضخم كثيرا مما تنطوي عليه ، وانها ربما عولجت بغير مايجب ان

تعالج به وبغير القلم الذي عالجها ، فقد يكون قديما ويرى نفسه جديدا ، وقد يكون جديدا ولكن لايملك القديم ،، وقد .. وقد .. وتبقى المسألة اساسا بمقدار ماتتصل هذه المجلة بالفكر الغربي ترجمة أولا والحاجة اليها ضرورة محتمة ، او استيعابا وهذا مطلوب نحو خطوة التأصيل بشرط ذكر المصادر والرجوع الفعلي اليها عن جدارة لغوية مضاعفة جدارة بالعربية وجدارة باللغة المستفاد منها .

الفصول مجلة النقد الادبي ، مجلة مهمة ، نافعة ، يجب ان تنتشر في الوطن العربي ولاتبقى محصورة في قطر دون قطر ، ويجب ان توسع من دائرة تحريرها شكلا ومضمونا ، عمقا وصدقا ..

وهي حين تذكر ، تذكر بما توحيه شعاراتها ، وماتوحيه اسماء المشرفين الفعليين عليها الحداثة ، المعاصرة .. والمصطلحان من شعارات العصر لدرجة الابتذال والادعاء ..

وأول - أواخر - ما كنت انتظره من مجلة النقد الادبي ، القائمة اساسا على الحداثة والمعاصرة ان تتولى مهمة غربلة القديم قدر تبشيرها بالحديث الجيد والمعاصر الصالح ، مبينة هنا بالدليل والشاهد قيمة الحديث والمعاصر ، دافعة عنهما الغثاء والتنطع والفسق والفساد .

وفي غربلة القديم تدفع عن عامة القراء ، وسذجهم التمسك بالقديم لأنه قديم ، ومن ثم الثقة بأي جاء منه وورد فيه بما في ذلك التفكير السخيف ، والشعر الذي ليس بشعر ، والخبر غير اليقين .. ولاتتم الغربلة بكلام عام وإنما بأمثلة من الكتاب الفلاني والمؤلف الفلاني .. يقابلها بيان لما فيه من فكر سليم في الفلسفة او التاريخ او اللغة او النقد مؤيدا بأسماء صريحة من الكتب الفلانية والمؤلفين الفلانيين .

الفصول مجلة النقد الادبي تصدر عن اعلى هيئة في قطر مهم جدا من اقطار الامة العربية وقد تولى هذا القطر مبكرا في العصر الحديث اقامة النهضة على اسس من الوعي والذهن والجمال والابداع ،

ويحسن بالفصول ان تكون حلقة خيرة في مواصلة عوامل النهضة ، والنهضة لاتقف عند حد زمني لأنها تتجدد ، وما أشد حاجتنا اليوم بتجديدها ، ان نجدد القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ونحن في الربع الاخير من القرن العشرين .

لقد حدث انقطاع وخراب في المسيرة ، ونخشى استمرار الانقطاع ، ونرهب ازدياد الخراب .. واذا كنا دون اعمدة النهضة الاولى في قيامها واستمرارها ، فلنكن (في الاقل) تلاميذ لها ، نحفظها ، ونزيل الغبار عنها ، ونعلن الفكر الحر منها والمواقف البطولية فيها ونمسك بجدران البيت من ان تتداعى .

أشهد ان ليس فينا مثل رفاعة رافع الطهطاوي ، ولا مثل طه حسين ، ولا .. ولا .. ولكني ارجو الا يكون فينا السخيف او السخيف جدا ، ولا المغفل او المغفل جدا ، ولا الجشع او الجشع جدا .. اولئك الذين لايعرفون ماذا يريدون ، ويعجزون عن اولى الوسائل في الوصول الى اقل الاهداف الخيرة .

ـ الفصول مجلة للنقد الادبي ، وأراك تحملها اكثر مما تحمل مجلة ؟

ـ قد يكون في هذا شيء من شيء من الصحة ، ولكنها هي هي التي وضعت نفسها في الدعوة الكبرى ، وانها ليست مجلة فقط وإنما هي هيئة ضخمة ذات وزن في البقية الباقية ، وهيئة رسمية على مستوى التنفيذ ، وعلى من يضع نفسه هذا الموضع ان يتلقى الاقتراحات ويتقبل الملاحظات ويصدع بالواجب ايصعب على هيئة فصول ان تأتي فصول اكثر عمقا واكثر حداثة ومعاصرة ؟

ايصعب على هيئة .. فصول والهيئة العامة للكتاب ان تتولى اصدار سلسلة خاصة من الكتب الشهرية تنقل الى القارىء العربي ماينير فكره ، ويغذي روحه ويجدد قديمه ويحذره من جديد ليس جديدا اذا

كانت الحاجة الى مثل هذا الكتاب قائمة في كل حين ، فانها ولامفر منها ، ولاعذر عنها ، في هذا الحين ، الذي رأيناه فيه انقطاعا عن مسيرة النهضة ، وفترة من التخريب ، ولا اخطر من توقف النمو الا استشراء التخريب .

اترى الهيئة القائمة على فصول والهيئة العامة القيمة على الكتاب تدرك الهاوية التي يخطط فيها لارباك الفكر العربي في كل شيء وفي الادب والنقد الادبي كذلك ، قلت ارباك ، وقد حصل هذا الارباك منذ بدء الانقطاع وبدء الخطوة الاولى نحو الخراب ، وإلا فقد تعدى الخطر مرحلة الارباك الى مالاتدري مصيره ..

وليس الهيئتان وحدهما المسؤوليتين فيما حدث ، وفيما يجب تداركه ، ولكن الدعوة التي تنطلق منها فصول تشجع على تحميلهما المسؤولية ؛ واذا لم تكن الدعوة خاصة بالهيئتين وجب تعميم المسؤولية ثم التعاون على رأب الصدع بوصل ما انقطع ، وتشخيص عوامل التخريب ومن ثم حمل الواجب بالنهضة نحو مرحلة جديدة ـ ان امكن !

اما الذي جعل فصول ـ مجلة النقد الادبي في المباشرة من موضع المسؤولية ، فهو الكتب التي تخصص لها من اعلاناتها صفحات كاملة من صفحاتها الكبيرة وكأنها وحدها في السوق ، بل انها وحدها في السوق والا فاين هي الدور الاخرى ؟ واين الكتب الاخرى ؟ الكتب التي هي الزبدة الصالحة للبقاء من القديم ، الكتب التي هي رمز النهضة خلال اكثر من قرن ، الكتب التي تنقل لباب الفكر العالمي . الكتب التي تثري فكر القارىء العربي وتبعثه على الاصالة وتغذي روحه وتنير له طريق الابداع ؟ اين كتب الحداثة وكتب المعاصرة ؟ اين واين ؟ ولانتحدث عن اعلان طويل عريض بمؤلفات طويلة عريضة للدكتور داهش !! ولانتحدث عن الالحاح على قصص الانبياء ، ورياض

الصالحين ، والدعاء المستجاب ، والدعاء المقبول ، ولطائف المنن والاخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الاطلاق ، وعقد الدرر في اخبار المنتظر ، واغاثة اللهفان ، ومدارج السالكين .. الخ الخ فتلك كتب لها قراؤها المتزايدون المتكاثرون .

واذا لم يكن عتاب على ما اعلن عنه ، فانه كائن على مالم يعلن عنه ولو اجالت (فصول) نظرة في الاكشاك المنتشرة في القاهرة فرأت سيادة مطلقة لكتب الجنس الرخيص وكتب العقل البالي ، ولم تخصص عددا لدراسة هذه الظاهرة من التخطيط المضاد فان كثيرا من كلامها على الحداثة والمعاصرة يبقى سجينا طي اوراق مجلة محدودة التوزيع والنشر ، ويفقد جل مفعوله إزاء الوباء الطاغي والطواعين من كل نوع .

واذا طالبت مجلة كالفصول بدراسة الحال وادانتها وحربها فلأني احسبها ترى الداء وتغض الطرف او تستهين به ، وترى ان الذي لديها هو الذي لدي الناس . ثم انها ليست مجلة فقط وانما هي هيئة جزء من هيئة رسمية عامة للكتاب - ومن هنا مجال المطالبة .

واذا لم يكن عتاب على ما اعلن عنه لتفاهته ، ولم يكن على ماغضت الطرف عنه مع رداءته ، فانه كائن على مالم يعلن عنه اي الذي لم يعد موجودا ليعلن عنه . تنظر في المجلة وفي اعلاناتها وتنظر ما في المكتبات وما في الاكشاك فلا ترى ماكنت تراه في الاربعينات مثلا ، ولاشيئاً منه . فهل المفروض بنا التأخر ام التقدم ؟ فأين واين ماحققته دار الكتب المصرية من امهات كتب التراث ؟ كيف استطاعت وهي في عهد ملكي ان تغني المكتبة بذلك التراث الخالد ؟ ولم لاتستطيع اليوم عملا موازيا ؟ لم تقصر حتى عن اعادة طبع المحقق وقد صارت الحاجة ماسة اليه .

دار الكتب المصرية مؤسسة رسمية ، ومثلها الادارة العامة للثقافة ، والمجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ، واذا لم نذكر من عملهما الا مشروع سلسلة الالف كتاب لكفاهما فأين

المؤسستان في ايامنا هذه ؟ اقصد اين الالف كتاب ؟ وكانت دار المعارف اهلية فأغنت المكتبة العربية بالقديم والجديد ، المؤلف والمترجم ، الفلسفي والادبي .. ثم صارت رسمية فأين موقعها الان من خارطة الكتاب ؟ اين ما كانت تصدره في سلسلة (تراثنا) ..

ونترك المؤسسات الرسمية فنتذكر لجنة التأليف والترجمة والنشر وما اغنت به الفكر الحديث ، ولاينسى ناس : عيون الادب الغربي ، إذا نسي غيرها ؟ ودار الكتاب المصري مؤسسة اهلية فأين نحن مما اصدرت باشراف الدكتور طه حسين وتوجيهه من مؤلف ومترجم ؟ لم نكن راضين عن المكتبة التجارية والبابي الحلبي .. والان نتحسر عليها . نتحسر على الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد ، ومحمد ابو الفضل ابراهيم !!

الحديث ذو شجون بأي معنى من معاني (الشجون) اردته : الصحيح ام الذي شاع . وهذه الشجون هي التي جرت الى التوسع في الموضوع واذا كانت المسألة مسألة (الاعلان) فليكن من حقنا على الهيئة العامة للكتاب ، وعلى الهيئة المشرفة على المجلة ان نقرأ في اعدادها القابلة ـ الى جوار اعلاناتها التي اعتادتها ـ اعلانا من مطبوعات (دار الكتب القومية) فيما حققت من تراث ، واعلانا للأدارة العامة والمجلس الاعلى عن كتاب من الالف كتاب واعلانا عن نظير للجنة التأليف والترجمة ، واعلانا عن نظير للكاتب ، وعن الجديد في سلسلة تراثنا من مطبوعات دار المعارف ! ان مجلة كالفصول لها من النفوذ مالها ولهيئتها من القدرة مالها ولايصعب عليها ان تلبي طلب قارىء متشوق الى ان يقرأ بالاعلان عن الموجود ، فاذا عدم الموجود طالب بابسط الحقوق : الاعلان عن غير الموجود .

ـ اذا لم يكن موجودا ، كيف يكون الاعلان عنه ؟

ـ بفضح عوامل غيابه . وبفضح البديل السيء الذي طرده .

وبعد ، فأننا إذا حدثنا القارىء عن التراث والمعاصرة واعدنا في ذلك وابدينا كما هو الواقع فعلا الان ، ممثلا برسالة مجلة - فصول - مجلة النقد الادبي دون ان نوفر للقارىء روائع التراث وروائع المعاصرة نكون في افضل تقدير كمن يحدث الجائع الغرثان عن القيمة الغذائية لخلاصة عصر لحم الغزال !

- هذا في افضل تقدير وهو الواقع ، فما هو الاسوأ في التقدير ؟

- .. وهو واقع كذلك .

الجمهورية - ١٩٨٥/١/٢٨



حديث استاذ مختص بالمكتبات
عن «كتاب العين»



نحن في الساعة الخامسة وعشر دقائق من بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٢ كانون الثاني ١٩٨٥/ ٣٠ ربيع الثاني ١٤٠٥هـ . ونسمع معد البرنامج يثني على الاستاذ الدكتور محمد ماهر حمادة . ولابأس فالاستاذ معروف محترم وهو اليوم استاذ بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض . ويكتب في مجلة «عالم الكتب» التي تصدر في الرياض ، ورئيس تحريرها استاذ كذلك في جامعة الامام محمد بن سعود .

وموضوع الحوار كتاب «العين» للخليل ..

والموضوع جليل ، جدير بالاستماع اليه . والدكتور حمادة استاذ معروف يقترن اسمه بعلم المكتبات والكتب .

وطبيعي جدا ان يذهب الذهن اول ما يذهب لدى كلام على «العين» ونحن في عام ١٩٨٥/ ١٤٠٥ الى الطبعة الكاملة للكتاب التي تصدر اجزاء محققة تحقيقا علميا صنعه الاستاذان الدكتوران مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي ، فقد صدر الجزء الاول سنة ١٩٨٠ ، ونحن اليوم على ابواب الجزء الثامن (الاخير) .

طبيعي جدا لان هذه هي الطبعة الكاملة المحققة وقد اعتمد فيها المحققان على ثلاث نسخ مخطوطة . غير الرجوع الى المعجمات العربية كلها ، والى المظان المختلفة الاخرى .

طبيعي وقد جاء الرجل يحدث السامعين عن «العين» وانه مختص بالكتب والمكتبات ، واقل ما يشترط في مختص بالكتب والمكتبات ان يتابع ما يصدر في العالم العربي ، او يتابع اخبار ما يصدر في الاقل ، والدكتور حمادة أحد كتاب مجلة محترمة ابلغت قراءها بصدور «العين» محققا عن وزارة الثقافة والاعلام في العراق ، والدكتور حمادة والمجلة المحترمة في بلدة واحدة هي الرياض من المملكة العربية السعودية . فاذا كان الدكتور حمادة لم يتصل بالمطبوعات العراقية لسبب وسبب ، فليس من حقه الايعلم خبر المطبوع منها عندما يصل سهلا ويقع بين يديه . ولا بأس من ان نذكر له اسم المجلة فهي : عالم الكتب ، وله ان يرجع الى اعدادها ليتعلم شيئا صحيحا عما تم بشأن طبع «العين» الذي جاء الاذاعة ليحدث الملايين عنه في ثقة واطمئنان وكأنه العارف بكل شيء المتابع للصغيرة والكبيرة . ينظر العدد الاول من المجلد الثاني من المجلة .

وقد تشبث بالصغيرة وفاتته الكبيرة . ولو قلت : فاتته الصغيرة والكبيرة لما ابعدت كثيرا .

عرف الخليل للسامعين ، فما عرفه وما زادهم علما ، وما دل على علم .. وانما هو كلام عام ، ويكفي انه لم يحدد قبيلته في عمان ، ويذكر البصرة من العراق ، ولا ميلاد ولا وفاة .. ولا ولا وانما هو كلام عام .

وعاد به السؤال الى «العين» ... فعرفه ولم يعرفه ، وليس هذا مهما جدا وانما المهم جدا ، والموضوع موضوع كتاب يعالجه مختص بالكتب والمكتبات ..

ولم يتحدث عنه مخطوطا .. وليكن ، فما الموضوع في اساسه موضوع مخطوطات ، وربما كان الاستاذ الدكتور مختصا بالمطبوع دون المخطوط ..

أجل ان اختصاصه بالكتاب المطبوع ، وقد جاء ليحدثنا عن كتاب

«العين» مطبوعا ..

قال الاستاذ الدكتور محمد ماهر حمادة إن الكتاب بقي مخطوطا .. حتى تهيأ له من يطبعه كاملا ، اجل نص على طبعه كاملا ، واثنى على محققه ، وهنا عرفت سلفا الهوة التي سيقع فيها الاستاذ الدكتور ، وعرفت جيدا الخطأ الذي سيعانيه دون علمه وعن حسن ظن مطلق بالنفس وعلم النفس .

وقد طبع ائعين كاملا ، بتحقيق الدكتور عبدالله درويش ، فتهيأ للعالم ان يعرفه ويفيد منه .

والجواب صحيح وخطأ ، وخطؤه اكثر من صحته ثم انه لايخدم السامع تمام الخدمة اذ اخل بذكر مكان الطبع وتاريخه وهو بغداد ١٩٦٧ . ومكان الطبع وتاريخ الطبع من مهام المتخصصين بالمكتبات ، وذكرهما يدل السامع (او القارىء) على السبيل في الوصول الى المطبوع ..

ليكن ، فما همنا المكان والزمان .. وانما جوهر القضية ، وجوهرها هنا أن الاستاذ الدكتور عبدالله درويش ـ وقد تهيأ له ظرف ان ينتدب للتدريس في كلية الاداب من جامعة بغداد وتهيأ له ان يتصل بالمجمع العلمي العراقي .. فتصدى لكتاب العين . ولكنه لم يصدر الا جزءا منه . وعليه فيا ايها السامعون الكرام لاتصدقوا كل ما يوصله المذياع الى آذانكم . لان الاستاذ الدكتور عبدالله درويش لم يصدر لكتاب العين طبعة كاملة وانما اصدر جزءا فقط . ولو القى الاستاذ الدكتور حمادة نظرة عابرة على ما صدر باسم الدكتور درويش لقرأ . الجزء الاول . ولو تهيأ له الوقوف على العين مخطوطا لرآه في مجلدين ضخمين لايكاد يكون ما اصدره الدكتور درويش عشره !!

وبقي للحديث عن قيمة التحقيق ومداه مجال اخر . ونملك منه مقولة تروى للدكتور مصطفى جواد خلاصتها ان الاستاذ المحقق فقأ «عين»

الخليل .

ولكننا لسنا في هذا بشيء ، وإنما نحن من الجوهر بشيء وشيء من الجوهر ان الدكتور عبدالله درويش لم يصدر العين كاملا ، والشيء الاكبر ان يعلم ذلك استاذ دكتور مختص بالكتب والمكتبات جاء الناس ليحدثهم عن «العين» ، والاكبر من الاكبر ان يعلم ان كتاب «العين» يطبع اجزاء في بغداد منذ سنة ١٩٨٠ وانه على باب الجزء الاخير (الثامن) وهذا هو التحقيق المعتمد حتى هذه اللحظة ، الجدير بالذكر ، وإذا لم يكن الاستاذ الدكتور حمادة قد وقف على الاجزاء فالمفروض به ان يكون قد سمع بها ووقعت عيناه على خبر في مجلة للكتب والكتاب هو واحد من كتابها !

وسؤال اخر : وهل لكتاب العين مختصرات ؟
وجواب اخر : له .

وذكر له مختصرين مخطوطين . ولم يذكر مختصرا اخر . يرد اسمه ومعه اهميته ، هو المختصر الذي عمله الزبيدي - ابو بكر محمد بن الحسن .

وانتهت المحاورة بشكر جزيل ازجاه معد البرنامج . وكأنه فهم كل شيء ، وانه يفهم الاشياء قبل المحاورة فكتاب العين طبعه الدكتور عبدالله درويش كاملا ! **كأن** لم تكن في بغداد طبعة محققة في ثمانية اجزاء صدر الاول منها سنة ١٩٨٠ ونحن على ابواب صدور الثامن .

وعفوا استاذ حمادة ، فما كنت - هنا - مقصود الذات وانما المقصود اسم جنس لحالة قائمة وظاهرة مؤسفة .

وعذرا للعبقري الخليل بالحق المحفوظ وبالشمس الطالعة وبالحقيقة التي لاتخفى ورجاء للمتحدثين الى الناس بالتثبت ، واستكمال شرائط المنهج واحترام الاخرين لدى احترام انفسهم .

عذرا او نذرا انما توعدون لواقع ..

الجمهورية - ١٩٨٥/٢/١٠

الحواجز .. متى ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟



استعير الكلمة (الحواجز) من ناقد امريكي (م . ل . روزنتال) عبر مترجم عربي (جميل الحسني) . رأى الناقد الامريكي حواجز هائلة قائمة بين الشعر والقارىء العادي ، ولم يكن الوحيد الذي رآها واستنكرها ولكنه الوحيد - او غير الوحيد - الذي سعى الى تحطيم هذه الحواجز وكان من سعيه ان الف كتابا سماه : شعراء المدرسة الحديثة - دراسة نقدية» جدير بالقراءة والتأمل والافادة .. (بيروت ، منشورات المكتبة الاهلية ١٩٦٣ - ٤٢٣ص) .

قلت الافادة ... وحواجزنا تتفق حينا مع حواجزهم وتختلف حينا .. وهي على اية حال تلتقي في كونها حديثة النشأة ، كانت لديهم قبلنا ، وحين صارت لدينا - بعدهم - صارت في اساسها تأثرا بهم وتقليدا لهم . وطبيعي ان يصحب التأثر والتقليد افتعال ازيد وادعاء اكثر وانقطاع في سلسلة التطور اعمق ... ومن ثم فحواجزنا اسمك من حواجزهم واصعب تحطيما من وجه وايسر تحطيما من وجه اخر ... اصعب ، لأن الناقد يواجه اسوارا وهمية ويواجه شعراء ليسوا شعراء ، وايسر لأمكان التخلي عن جملتها وخرقها في عمومها ، ويبقى بعد التخلية والهدم قليل لايصعب التعامل معه لأنه واقع ولأنه طبيعي ..

ويحسن بمن يتصدى منا لتحطيم الحواجز ان يقف طويلا عند

عبارة «الانقطاع عن سلسلة التطور» ، فأولئك تطوروا تدرجا نحو مابدا صعوبة او غموضا وعد حاجزا بين الشاعر والقارىء . فبودلير عند الفرنسيين لم يأت منعزلا عما قبله وبعده ومعه ألم يكن يوما رومانتيا ويوما بارناسيا ثم كان الذي كان ممهدا كبيرا للرمزية وفاتحة للشعر الاوربي الحديث .. وقس على ذلك اخرين قبله وبعده ومعه ..

أما نحن فلم يكن لدينا هذا التطور ، واكبر تطور طبيعي كان في البارودي وشوقي في مصر والرصافي والشبيبي في العراق ، وبشارة الخوري في لبنان .. وبدوي الجبل في سورية .. وهكذا تسير والى نزار قباني .. مع مادخل في التطور من «نفحات» اجنبية جاءت مباشرة او غير مباشرة عن قصد وغير قصد .

وليس لدينا حواجز ، في ذلك ، بين الشاعر والقارىء ... وإنما الحواجز جاءت بعد ذلك وفي غير ذلك ، عندما اريد لها - ادعاء ، وبحسن نية او سوء نية - أن تقفز - أو تُقَفَّز ، بتشديد الفاء - من أوج الرمزية والسريالية ، ثم من اوج «إليوت» الى شعر لم يتدرج في ذلك تدرجا .

والى أمة غير مهيأة لاختلافها عن صلب المذاهب الغربية ومسالك شعراء الغرب اجتماعيا ونفسيا وتاريخيا وذوقيا .. وبأشياء كثيرة اخرى .

أرأيت ، ياسيد روزنتال ، ان حواجزنا اخطر من حواجزكم ، واذا لم تكن اخطر فهي «اعقد» . ومن ثم كانت مهمة الناقد اصعب وواجبه اعلى واستعداده للخسارة اكثر ... ولكن «اجره» اكبر ..

ماذا يفعل ناقدكم ؟ يفعل ما تصديت انت لعمله مقتنعا بصحته ، ولك من واقع شعرك ما يقنعك . انك تعرف شعر المدرسة الحديثة جيدا وتعرف اعلامها كذلك ، وتعرف جيدا هذه الصعوبة - ولا اقول هذه الحواجز - التي تفصل بين الشعر المعاصر والقارىء المعاصر ... واذا

عرف السبب بطل العجب ، وبدأ العلاج ، وها أنت ذا تقول : «إن ابرز مظاهر الفرقة بين اسلوبي الشعر القديم والحديث ، ليست **ناجمة** ، كما هو الاعتقاد السائد ، عن التحول من التعبير الواضح الى لغة الاحاجي ، وإنما هي ناجمة عن انتقال من الصيغة الشكلية نسبيا الى البساطة وصراحة التعبير ، ومما ادخل على الشعر «ألفة» لاصنعة فيها ولاتكلف وإدراك الحقائق اليومية بصورة لم تكن معهودة من قبل ...» .

وهذا مالا نستطيع ان نقوله نحن لأنه لم يحدث لدينا على الوجه الذي حدث لديكم ، وإنما حدث ـ كما اخبرتك منذ قليل ـ تقليدا وتكلفا وادعاء ... وأزيد ، فراغا وجهلا ، وكأن كثيرين ممن طبلوا وزمروا فيه كانوا «شطارا» ولم يكونوا شعراء ... كانوا رجال «سوق» ولم يكونوا رجال «عكاظ» . إنهم تمسكوا بالاحاجي واعتصموا بها وعجزوا عن البساطة وصراحة التعبير ..

واقل ما يتحمل هذا الناقد من مسؤولية الانتقال من معنى تقريب الشعر من القارىء الذي هو لكم لأنكم إزاء شعر وشعراء ، الى عمل ضخم هو القضاء المبرم على كل من يدعي الشعر ويرى في نفسه الشاعر الجديد محتميا بالأحاجي معتصما بالشعوذة .

ثم ، ماذا تفعلون انتم لتحطيم الحواجز ؟ انكم تسلكون سبيلا طبيعية لاتكلفكم كثيرا لانكم تعملون في دائرة واحدة هي دائرة بمعنى الكلمة ، وليست كدائرتنا قائمة على الوهم والانقطاع .. والافتعال .

وها أنتذا تقول : «والواقع ان اقوى دفقات شعرنا الحديث لاتزال تنهل من اشعار وليم بيتس وعزرا باوند والیوت ، معتمدة على صلتهم بالتقاليد وانجازاتهم الجمالية من ناحية وعلى طبيعة نقدهم الثقافي من ناحية اخرى . ونحن بمعرفتنا لهؤلاء الشعراء نكون اقدر على فهم د . هـ . لورنس .. وهارت كرين والحركات الثورية التي ظهرت في العقد الرابع من هذا القرن (...) كما ان الشعراء المعاصرين لم يفقدوا تلك

الروح المرحة التي كانت ظاهرة في الشعراء القدامى ... الخ» .

لك ان تقول ذلك لانه لك ، ومالي ان اقول او اقول كلمة منه لأنه ليس لي فلا يتصل شعرنا بتقاليد شعرية لنا ، وانما جاء عبر حدود وبدون جواز سفر ، والا فما فهموا من إليوت ليزيدنا فهم اليوت فهما لهم ، وكيف نفهم نحن اليوت . وقد ذكرت اليوت على سبيل المثال ، والا فان شعراءنا وقعوا تحت عشرين اليوت ، دون ان تكون لهم اللغة الاجنبية او الصبر على فهم اليوت ، وانما هو كلام على كلام وادعاء مضروب بادعاء ... والويل بعد ذلك لمن يسعى الى ان يحطم الحواجز ، وكيف يحطم امرؤ الحواجز اذا كانت هذه الحواجز شاهقة في الوهم راسخة الجذور بالكذب باسقة الفروع بالبهتان ـ ومع هذا فلابد من عمل وفرز وتمييز !

هذه حواجزنا وتلك حواجزكم ، وقد قست مالدينا على مالديكم .. او على ماذكرتموه من حواجزكم والا فهنا وهناك مالم يدخل في الحساب ... ولا ادل على الامر فيكم انكم لم تستطيعوا رفع الحواجز حتى في القدر الذي عانيتموه وحسبتم النقاد قادرين على رفعه ، فأين يكمن العيب ، اذا ، في رسوخ الحاجز ام في هوان النقد ؟ ام في كليهما ؟ أم في امور اخرى ؟

لاأشك في اخلاصك في البحث والتشخيص ووصف الدواء ، ولكني اراك ضيقت الدائرة كثيرا ، ولم تغص الى الاعماق كثيرا ... فنسيت - فيما نسيت ـ فساد ماسميتموه حضارة ، واقل ما في الفساد انها ليست حضارة بمعنى الكلمة ولا بالكاف وحدها من الكلمة والحاء من الحضارة ، والا لكانت مع الشعر والشعراء ، الشعر الصحيح طبعا ، والشعراء الموهبين طبعا .. ولما كان هذا التكالب الغريب العجيب على «المادة» وقد كان البدوي في الصحراء القاحلة الماحلة خيرا منكم واعقل واكثر طبيعية وافضل فطرة ... واية حضارة هذه التي تدعونها وهي

قائمة على الحرب والسلب واستغلال من سميتموهم عالما ثالثا ووسمتموهم بالمتأخرين ؟ وأي استقلال واية بشاعة في الباطل والجريمة ؟ ولو كان فيكم شعراء لفضحوا ماسميتموه حضارة . ولو كان فيكم نقاد لرأوا في هذا الواقع التافه حاجزا سميكا بين الشاعر والقارىء .. ولضموا اصواتهم الى اصوات فلسفية دعت الى ردم الهوة بين المادة والمعنى ، واصوات خيرة فضحت البون الشاسع بين من يدعي الانسان قولا ويحتوي الضاري فعلا ... ثم خفتت اصوات هؤلاء اولئك ... وجئتم انتم ولم تروا من الداء الا عرضه الخارجي .

ذلكم حاجز كان يجب ذكره ، وكان يجب العمل على إزالته ... واذا كنتم قد «تميزتم» به دوننا ، فان لنا حواجزنا الاخرى ايضا ... حاجز هؤلاء الذين بدأوا من حيث انتهيتم ، ويا حبذا لو كانوا على علم حقيقي بالذي انتهيتم اليه في النمط الشعري ، وانما هو تصور زائف بالعلم ، وغرور سراب شأن كل غرور .

وحواجز اخرى اخبرتكم شأنها كما اخبرتكم شأن هذا الحاجز من قبل ، وجاء اخرون يرون في انفسهم جيلا جديدا مجددا ، مبتكرا ... وهم أكثر جهلا من اولئك بحقائق الامور ، فأعلوا من بناء الحاجز وزادوا في سمكه ضعفين ثم جاء اخرون ... واخشى ان يأتى اخرون ..

وتهون هذه الامور ازاء استهانتنا بلغتنا ، وازاء جهلنا تراثنا الشعري ... فاذا كنت تدعو لرد الناس الى اليوت فاننا ندعو برد الناس الى مابين امرىء القيس والشريف الرضي ، وبين شوقي والجواهري وبين عمر ابي ريشة والسياب ... وندعو الى ما هو ابسط من هذا الى ان يكون لأذن المتصدي للشعر - او النقد - غشاء طبلي سليم ... وان يكون الشاعر شاعرا فعلا ، ويكون الناقد ناقدا فعلا كذلك - إن حواجزنا - ياسيدي - في جهل البديهيات ، واخشى ان تجركم حضارتكم الى ما نحن فيه من هذا الجهل ... فنلتقي مرة اخرى على صعيد واحد من الحواجز

فنقرأ ـ انتم ونحن ـ على الشعر السلام ـ والكلام يطول ، ولم نقل شيئا ، لاننا نبحث عن ديوان المتنبي في السوق فلا نجد له اثرا !!

ـ ماذا نجد ، إذا ؟

ـ ولم هذه الضجة المفتعلة التي تقودها الاقطار المتخلفة بين التراث والمعاصرة ؟ ويرفع عقيرتهم بها فهم من يرى الحق في الباطل ؟

فمن ومن ؟

هل استمعت يوما إلى اذاعات اقطار متخلفة ؟ لكرة القدم اهميتها ، ولكن لديوان المتنبي اهميته كذلك !!

ـ تريد ان تقول اين التراثيون ـ وقد صاروا مبدأ من السوق ؟ واين اصواتهم العالية في المجالس ومن وراء المكبرات الحديثة جدا ؟

ـ وتريد ان تقول ان الحواجز كثيرة ، اكثر مما تصورها الناقد الامريكي ، وهي تختلف في عدد منها من قارة الى قارة ، ومن قطر الى قطر ، ويكون في عدد اخر منها «المتحضرون» سببا في الجناية على غير المتحضرين ، ولهم في ذلك من الوسائل ما لايعد ولايحصى ...

ـ لقد اطلت !

ـ صحيح وغير صحيح ! والبقية لاتأتي .

الجمهورية ـ ١٩٨٥/٣/١٧

التلميذ والاستاذ



أو الاستاذ والتلميذ .. وتكاد تكون القضية واحدة .. إذ تقوم على شكوى متبادلة ، وليست الشكوى هذه المرة ذات علاقة بالجد والاجتهاد ، فالاستاذ يلوم تلامذته على كسلهم ، والتلميذ يرمي استاذه بالتقصير ... في الجد .. والتحضير .

وإنما هي في باب آخر ، لايقل خطورة واهمية وجدارة بالبحث ... فالتلميذ يرى خطأ في قول أو رأي أو علم لاستاذه ، وهذا ممكن ، وممكن جدا ويتمنى لو اعلن لاستاذه ذلك الخطأ مباشرة او غير مباشرة ، شفها او تحريرا . ولكن الاستاذ لايسمح بمجال لذلك ، وربما ذهب التلميذ الى ما هو ابعد من ذلك ، وهذا ممكن ايضا ، كأن يرى استاذه اغتصب بحثا له ، جد واجتهد فيه فلما رآه الاستاذ ناضجا ادعاه لنفسه ونشره باسمه . وكأن يرى انه عمل عملا مشتركا (لسبب وآخر) ولكن الاستاذ انكر على التلميذ جهده ، ومن الاساتذة من لايعملون في بحث اي شيء ولكنهم يستسيغون نسبة الحصة الكبرى من البحث لأسمهم حين لايجدون مناصا للانكار التام .

المسألة تطول ، وهي مهمة ، تقابلها شكوى الاستاذ من تلاميذه اذ يراهم يتصرفون بآرائه وكأنهم يتصرفون بإرث خلفه لهم ابوهم . او بسرقة يستحيل ان تكشف ، وهم يختلسون هذه الاراء والنتائج والاشارات والاحالات النادرة من درسه ، ومن حديثه ، ومن تعليقاته ،

في قاعة الدرس مرة . ولدى زيارته في بيته مرة ، وفي الرسائل العلمية عندما يكون مشرفا عليهم في الماجستير او الدكتوراه مرة ..

والمسألة تطول ، وهي مهمة ..

وبالمسألتين حاجة الى دراسة ، وبالطرفين ضرورة الى الوعي والصراحة والجرأة وإذ اقول الوعي فدفعا لما يداخل المسألتين من حسن نية او سهو ، واذا دفعنا ما من حقه الدفع فالذي يبقى معلقا بالباطل كثير .. ومؤسف ، ويذكر الذاكرون ـ كلما جرى حديث «سرقة» الاستاذ من «التلميذ» ـ اسماء ذات شهرة ومكانة وانتفاع ، منهم من كان في مصر ومنهم من كان في لبنان ومنهم من كان في غيرهما .. ومنهم ومنهم ... على اختلاف في سعة «السرقة» بين التعميم والتخصيص .

فما العمل والسكوت يضيع كثيرا من الحقائق ويهدر كثيرا من الحقوق ؟ لابد من الصراحة في سبيل العلم ومع الصراحة جرأة .. ومع الجرأة حرص على الواقع بعيدا عن التشهير والخلط واللفظ .. والباطل ..

ترى اين نجد سقراط في كتب افلاطون ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ ولا مؤاخذة في الامثال .

جرّ القلم الى هذا الموضوع ما لابد من ان يكون ظاهرة واقعية جديرة بالذكر إن صعب البحث .. والا فانه تحرك للكتابة في امر اخر .. حين اراد ان ينقل خبرا قديما ذا دلالة قرأه في الجزء السابع من كتاب «شذرات الذهب في اخبار من ذهب» لعبد الحي الحنبلي وهو يتحدث عن حوادث سنة ٨٠٧هـ فيقول .

«وفيها نور الدين ابو الحسن على بن ابي بكر بن سليمان بن ابي بكر الهيثمي ، الشافعي الحافظ ولد في رجب سنة خمس وثلاثين وسبعمائة (...) وكتب وجمع وصنف ، فمن تصانيفه : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (...) وجمع ثقات ابن حبان (...) وكذا ثقات العجلي

ورتب الحلية على الابواب وصار كثير الاستحضار للمتون جدا لكثرة الممارسة . وكان هينا لينا خيرا محبا لأهل الخير لايسأم ولايضجر من خدمة الشيخ [زين الدين العراقي] وكتابة الحديث : كثير الخير ، سليم الفطرة .

قال ابن حجر قرأت عليه الكثير ، قرأنا للشيخ ، ومما قرأت عليه بانفراده نحو النصف من مجمع الزوائد له وغير ذلك . وكان يشهد لي بالتقدم في الفن جزاه الله عني خيرا . وكنت قد تتبعت اوهامه في كتابه «مجمع الزوائد» فبلغني ان ذلك شق عليه متركته رعاية له ...» .

وهنا ، في السطرين الاخيرين بيت القصيد . فلاستاذ شيخ عالم فاضل سليم الفطرة ، والتلميذ محب لشيخه محترم مقدر عارف بالفضل ... ولكنه ـ شأن كثير من التلاميذيتنبه لأوهام عند شيخه ، ولم ير بأسا ـ وهو في عنفوان حبه لشيخه وللحقيقة ـ من تتبع تلك الاوهام ، وما كان على ضلال . ولكن الشيخ لم يرتح للخبر ـ وكان المفروض ان يهش له ويبش ، المفروض ـ فطوى التلميذ اوراقه وآثر إرضاء الشيخ على ما كان يحسه في نفسه من الواجب ، وكانت النتيجة الاخيرة : ضياع مجموعة من الحقائق ، فما كان ضرّ الاستاذ ـ وهو الشيخ الجليل ـ لو لم يشق عليه الامر ؟ وما كان ضرّ التلميذ لو ارضى الحقيقة ؟ قد نفهم موقف التلميذ ، ولكن الصعوبة في موقف الشيخ !

ذكرني هذا ، والشيء بالشيء يذكر ، بحثا مطولا «تتبعت فيه اوهاما» في كتاب لأستاذ لي ، كتبته وأنا في اوج الاحترام والتقدير لذلك الاستاذ ، وربما كنت احسب ـ صادقا ـ انه سيبتهج إذ يرى تلميذه يعلم وينبه ، ولكن الذي حدث ... ان استاذي الفاضل تدخل لدى رئيس التحرير وحال دون متابعة نشر حلقات البحث في الصحيفة واذ «بلغني أن [النشر] شق عليه تركته رعاية له» واكتشافا لحقيقة ، وسكوتا على غير مضض ، وقد قيل إن الرحمة للميت والحي .

الجمهورية ١٩٨٥/٥/٢١



تأهد المازني .. وطبعة ثالثة لكتاب في الطريق ...



يقع لك كتاب هكذا : ابراهيم عبدالقادر المازني ـ ناهد ، دار المعارف بدمشق ١٩٦٢ ـ ٢٨٨ص .

وتعجب : أيكون للمازني كتاب بهذا العنوان (ناهد) ولا أعرفه ! ليس ذلك معقولا ، فاننا قراء الاربعينات والخمسينات نحترم كتابنا ونحبهم ولايفوتنا كتاب من آثارهم .. ويأتي المازني ، ابراهيم عبدالقادر المازني ، في القائمة المفضلة ، من كتابنا .

وكيف يطبع في دمشق ، وكتب المازني كلها من مطبوعات القاهرة ! ثم إنك تذكر عام ١٩٦٢ للطبع والمازني توفي سنة ١٩٤٩ ، فلابد من ملابسات ! فأقرأ لنا المقدمة ـ ان وجدت لمثل هذا الكتاب مقدمة ؟ واقرأ ماكتبه اسماعيل اليوسف المشرف على دار المعارف بدمشق : (تقديم .. حتى الادب .. تطرق اليه الخداع .. فدار المعارف بدمشق حين اضطلعت بمهمة النشر .. قطعت على نفسها وعدا . ووعد الحردين عليه ـ ان تزود القراء والمكتبة العربية ، بما راع وخلد من الفن القصصي الصحيح .. وهذا كتاب تقدمه لقراء العربية اسمته (ناهد) وهو اسم لاحدى الاقاصيص التي يحتويها بين دفتيه ..) .

لم تتطوع الدار باختيار الاسم ؟ الم يكن له اسم من قبل ؟ الم يكن له صاحب ؟ اهي التي الفته جمعا من بطون الجرائد او المجلات او الكتب ؟ اقرأ .

ـ وأقرا :

وضع هذه الاقاصيص شاب اديب عاجلته المنية قبل ان يخلف الشيء الكثير من فنه القصصي .. هو المرحوم ابراهيم عبدالقادر المازني ..

ايقال هذا عن ابراهيم عبدالقادر المازني الكاتب الكبير ، الشهير ذي المؤلفات السائرة والقصص ..؟ القول غير معقول ، وصحيح انه مات قبل الاوان ، ولكنه مات ، وهو على ابواب الستين ..

ثم اين وجدت الدار الكتاب ؟ وفي اية حال ؟ وماذا كان عملها فيه ؟ وما فاتحت به ورثة الكاتب ؟ ماذا عن الكتاب نفسه ؟ لاشيء .. ولننظر وقد خلا من فهرس للمحتويات .. وليكن . انه مجموعة اقاصيص ونحن نعرف جيدا المجاميع القصيصة التي أصدرها ابراهيم عبدالقادر المازني ، نعددها ولانقع على (ناهد) ونستعرض محتويات ناهد لاستنهاض الذاكرة : ناهد ، ليلى ، العقد الضائع ، الدكان ، تفيدة ، عاقل ، المريض ، الملاكمة ، كيف كنت عما ، الخيانة .

وشرع صاحبي يتذكر ، ويهم بالكلام ثم يحجم لأنه يكره المجازفة والمسارعة ، ويحب التوثيق والتأكيد .

ـ ألديك كتاب عن المازني ؟

ـ لدي ، انه كتاب الدكتورة نعمات احمد فؤاد في طبعته الثانية ـ مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٨ سلسلة الاعلام (١٩) ـ ٤٠٣ص ـ

ـ هاته .. يقرأ ويورق ، ويصل الصفحة ٤٠٣ حيث قائمة كتبه في القصة والاقصوصة ، ابراهيم الثاني ، في الطريق ، ع الماشي ، اقاصيص (بالاشتراك) من النافذة .

انه يتذكر قصص المازني كلها جيدا ، الا الكتاب الذي بعنوان (في الطريق) فماذا عساه ان يكون ؟ لعله مما صدر قبل الاربعينات . وليس

هذا المهم ، لأن المهم قد اتضح وهو انه لايوجد كتاب (قصصي) للمازني بعنوان : ناهد . ومع هذا ، ألديك نسخة من (في الطريق) .

أجل ، لدي ، وها هي ذي :

ابراهيم عبدالقادر المازني ـ في ألطريق ، الحقوق محفوظة للمؤلف ـ الناشر : مكتبة النهضة المصرية ١٥ شارع المدابغ بالقاهرة ـ ٤١٥ ص .

الاهداء الى (حياة) وهو نحو من اربع صفحات دامعة ، باكية يتذكر فيها ابنة له احبها وفقدها .. تاريخ المقدمة يوليه ١٩٣٧ .

ولاتوجد هذه الصفحات في الكتاب الذي عنوانه (ناهد) ثم نستعرض القصص .

الاولى : التدريب الاول . ولاتوجد في الكتاب الذي عنوانه (ناهد) الثانية : الدكان وهنا يقترب السر من الانكشاف فقد رأينا (الدكان) في الكتاب الذي عنوانه (ناهد) وهذا يمكن ان يعني ان (ناهد) يحتوي على قصص اختارتها دار المعارف بدمشق من مجموعة قصص (في الطريق) ونسير : الكآبة ، العقد الضائع ، الجارة ، البحث عن الذهب ، تفيدة ، الهارب ، النسيان ، فتاة الحارة ، في رأس السنة ، الذي يضحك اخيرا .. عقاب اللص ، ثمن سيجارة ، الكناريا ، القطط والبغاء ، عايدة ، السيارة المسروقة ، ميمي ، الشيخ مبارك ، الخادمة ، الخيانة ، الملاكم ، ليلى ، حواء والحية ، العقلة ، الوطواط ، الرهان ، ورطة ، ارواح متآلفة ، ناهد ، يعملها الصغار ، التائه .

لقد اتضح الامر منذ بدء تلاقي عنوانات من (ناهد) مع عنوانات من (في الطريق) ان الذي عملته دار المعارف بدمشق انها استلت قصصا معينة من جملة قصص كتاب (في الطريق) وكونت من المستلات كتابا اسمته (ناهد) وكان اقل حقوق القراء ان يحاطوا علما بذلك ، اما الذي وجد في (ناهد) بعنوان (المريض) وعنوان (كيف كنت عما) فقد

يرجع الى تصرف الدار ، وان لم يؤيد البحث ذلك .

قلت : أقل الحقوق ، وتبقى حقوق اخرى .. للقراء والباحثين .. وغيرهم ..

ـ اقل الحقوق .. والعبث مستمر .. يرثه اللاحق من السابق ..

ـ كيف .

ـ رأينا ان (في الطريق) اصدره صاحبه المازني بمقدمة (إهداء) مؤرخة يوليه سنة ١٩٣٧ وفيه (ثلاث وثلاثون قصة) ثم رأينا عبث دار المعارف بدمشق ، سنة ١٩٦٢ . وتمضي بعد ذلك ثماني عشرة سنة لنقع على عبث وريث حين اصدرت «دار الشروق ـ بيروت ـ القاهرة» (في الطريق) (الطبعة الثانية ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠ ، مطابع الشروق ـ ١٩٨ص) واذا عزوت فرق العدد في صفحات هذه الطبعة عن الطبعة الاولى ووجدته اكثر من النصف فقد تعزو ـ لأول وهلة ـ الفرق الهائل الى صغر الحرف في الطبعة الشروقية قد .. وليس من الصحيح الاسراع بالحكم !

وأثنت الطبعة الشروقية في غلافها الاخير على كتاب (فقيد الادب) فالمؤلَّف نفيس ، والمؤلِّف (قد برهن في كتابته للقصة على انه من نوابغ القصصين) .

ولكن لم حذفت الطبعة الشروقية التاريخ الذي وضعه المؤلف للاهداء ، لتحذف التاريخ فهذا اهون ما في الامر ! اما الامر الكبير فان دار الشروق وهي الحريصة على (مكتبة المازني) سمحت لنفسها ـ اذا شئنا الاختصار وقد ادركنا الليل ـ سمحت لنفسها وهي الحريصة على المازني وعلى فنه القصصي ومكتبة المازني ، سمحت لنفسها ان تحذف من الكتاب ثلثه ، وزيدا على الثلث ، دون بيان او تبيين .

ـ !

ـ لاموجب للعجب ، فنحن في عصر العلم ، وفي عصر السرعة ، وهاك ما حذفت من قصص الكتاب : الكناريا ، عايدة ، عاقل ، الشيخ

مبارك ، الخادمة ، الخيانة ، الملاكم ، الوطواط ، الرهان ، ورطة ، ارواح متآلفة ، ناهد ، يعملها الصغار ، التائه .

ـ !! ولماذا ؟ و وكيف ؟

ـ اسئلة لست المؤهل للتصريح بأجوبتها ، وقد يكون استغفال القارىء والباحث في اساس الفكرة ، فمن يملك الطبعة الاولى ؟ ومن له (الخلق) ليعود ويقابل ويخبر .. ويستنكر ؟!

وبعد ، فيا ايها القراء الكرام اعرفوا مايجري في ساحة الطباعة والنشر ، ويا ايها الباحثون الكرام كونوا على حذر .. ويا ايتها الحقيقة المرة سلام عليك يوم ولدت ويوم مت .. ويوم نحسن الظن فننتظر الميلاد الثاني !! قبل صدور طبعة رابعة للكتاب "في الطريق" عن دار الجهل او دار الغروب !!

قال قائل منا :

ليس من مات فاستراح بميت

إنما الميت ميت الاحياء

«وقال قائل منهم لاتقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين»

الجمهورية ـ ١٩٨٥/٥/٣٠
اختار لها المحرر ـ لدى النشر ـ عنوان :
عبث مستمر وميراث دائم



كتاب في «قواعد اللغة العربية»



لاأشك في علم القائمين على تأليف الكتاب وانهم اساتذة ومتخصصون ومجربون ، وان الكتاب الذي خرج من ايديهم الف بتكليف وطبق منهج وعلى غرار السائد من الكتب المدرسية ، ويبقى مجال للملاحظة قائما على أية حال وفي اي زمان ، من كان المؤلفون .

الملاحظة ضرورية مطلوبة في سبيل كتاب احسن وعمل انفع وخدمة اعم ، واذا لم يتطوع بها كاتب ، حسن ـ او وجب ـ مطالبته بها فقد يكون فيها مايجدي وما ينبه الى سهو او يدعو الى فوت ..

ولنتفق سلفا ، على ما لايمكن الا الاتفاق عليه ، بأن «القواعد» ليست غاية ، وان الاساس هو التطبيق ، واساس الاساس ان نعين التلميذ على ان يتكلم سليما ويكتب صحيحا ، ولايكون ذلك الا في مراعاة «مستواه» وفي تقديم ما هو في حاجته من عمره لدى القراءة والكتابة والكلام .

واحسب اننا لو التزمنا بهذين الاساسين ، وهما اساس واحد . لحصلنا على نتائج جيدة ولما وضعنا التلميذ في موضع الكاره للغة ، الساخر منا ، الضائق بالدرس وبالكتاب .

احسب والمسألة بديهية معروفة لم يعد يدعي التفرد بالايمان بها احد .

وقد تألفت اللجنة وتألف الكتاب ، والمقصود هنا ، على وجه

التخصص كتاب للصف الرابع العام ، وجاء هذا التخصيص لانه وقع باليد دون غيره ، فكانت نظرة فيه ، ووقعت هذه النظرة اول ما وقعت على مقدمة للمؤلفين : «ان هذا الكتاب الذي بذل مؤلفوه جهدا غير يسير (...) لايمنع ان تأتيه وجهات نظر ، تربوية او علمية مناسبة (...) نرجو ان نتزود بها ..» .

وهذا الذي يجب ان يكون . أسواء جاء في المقدمة ام لم يجىء . فلا يمكن لكتاب - مهما بذل مؤلفوه من جهد - ان يولد كاملا مكتملا ولا بد من التعاون ، ولابد من التقدم بوجهة النظر ، ولابد من رحابة الصدر في تلقي وجهة النظر .

واحسب ان دراسة الكتاب المؤلف وبيان ما يمكن ان يستثير من وجهات نظر خير من تأليف كتاب جديد .. والا فالامثلة تكاد تكون هي الامثلة والعرض او البحث هو العرض والخلاصة هي الخلاصة ، وكذلك التمرينات . وتبقى العبرة بامتحان الكتاب في ضوء مستوى التلميذ وحاجته ... وفائدته . وهنا - يستطيع المؤلفون . والمدرسون - ان يمروا على الكتاب وبأديهم قلم «يشطب» ليلغي او ليؤجل ما من شأنه مخالفة المستوى والحاجة .

وإذا كان للمؤلفين قصد في الاحتفاظ الملزم - وهم يدرسون «الاسم الذي لاينصرف» - بسيفان وسيفانه - بمعنى الطويل والطويلة - فما القصد من النص لتلميذ في الصف الرابع العام على ان «الاسم الذي لاينصرف تكون علامة جره الفتحة بدلا من الكسرة (...) علامة جره الكسرة عند الضرورة الشعرية» .

وما الضرورة الشعرية في حياة هذا التلميذ ؟

وفي قضية التثنية ما حاجة التلميذ في تلك السن بتثنية حضرموت وبعلبك وشهرزاد ... وتأبط شرا .. علما ان قاعدة الكتاب تقول ان هذه الاسماء لاتثنى : واستعمالها محدودا جدا ، ويقف عند المفرد لأنه

لايوجد لهما ثان .

وصحيح ان التثنية في بناء : بناءان ، بناءين ، بناوان ، بناوين ، صحيح ولكن ما حاجة هذه للتلميذ ، وحاجة غيره احيانا الى «بناوان ، وبناوين»وفي اي نص ميسور وردا فيه هكذا ؟

ومثل ذلك ان نطلب اليه ان يثني سيبويه واردشير وجبال ليقول لنا ذوا سيبويه وذوا اردشير ، وجبال لايثنى لأنه جمع ، وبغداد لاتثنى لأنه لاتوجد «بغدادان» وما طلبنا منه في التثنيه قد نطلبه في الجمع ليقول ذوو سيبويه وذوو اردشير ، واحسب ان في موضوع الجمع اشياء هو في غنى عنها ، نلغيها او نؤجلها الى مرحلة متقدمة اخرى .. فمن ذلك جمع «زكرياء : زكرياوون ، زكرياوين» ، وسؤاله عن جمع «خمارويه» وكم خمارويه في الحياة ـ والتأريخ ؟

وهل يحتاج العربي ـ اي عربي حتى في ايام سيادة العامية ـ الى درس خاص مهم «للمضاف الى ياء المتكلم» . ان اي عربي يقول في الاضافة الى ياء المتكلم اي الى نفسه وهو يتكلم في : قوم : قومي ، وسهم : سهمي ، وعظم : عظمي فاذا كان الامر لايحتاج الى تعليم فلم نعلمه ؟ ولم نشغل انفسنا بما لايحتاج الى تعليم . عما يحتاج الى تعليم ان ذلك يضيع وقتا وجهدا .. ويثير وساوس في جدوى الدرس والكتاب والمدرس . وتشتد الحال عند تفصيل حالات الاعراب ، ومن ذلك ما في هذين البيتين .

قومي هم قتلوا ـ أميم ـ أخي فاذا رميت يصيبني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جللا ولئن رميت لأوهنن عظمي

«تأمل كلمة» «قوم» و «سهم» تجد ان كلا منهما مرفوعة ، لأن الاولى مبتدأ ، والثانية فاعل ، ولكن علامة الرفع وهي الضمة لم تظهر على

اخرهما ، بل ظهرت بدلا منها الكسرة ، لأنها مناسبة لـ «ياء المتكلم» .

نفهم من ذلك ان كلمة «قوم» مبتدأ مرفوع وعلامة رفعة ضمة مقدرة منع من ظهورها الكسرة المناسبة لياء المتكلم . «قوم» مضاف و «ياء المتكلم» ضمير مبني على السكون في محل جر . ومثل ذلك يقال عن كلمة «سهم» الا أن سهم «فاعل» .

اما كلمة «أخ» فهي من الاسماء الخمسة ، وقد علمت ان هذا النوع من الاسماء يعرب بالحروف اذا اضيف الى غير ياء المتكلم ، فان لم يضف اعرب بالحركات الظاهرة . (...) وان اضيف الى «ياء المتكلم» اعرب بالحركات ـ الا ان هذه الحركات لا تظهر وانما تقدر على ما قبل الياء .. ـ فكلمة «أخ» هنا مفعول به منصوب ، ولكن علامة نصبه وهي الفتحة مقدرة على آخره ، وقد منع من ظهورها وجود الكسرة المناسبة لياء المتكلم (...) .

وكما وردت «أخ» هنا مضافة الى «ياء المتكلم» ومنصوبة بفتحة مقدرة ، كذلك يمكن ان ترد مضافة الى «ياء المتكلم» ومرفوعة ، فيقول : (يحب اخي الحق ..) فكلمة اخ هنا فاعل مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدرة على اخره وقد منع من ظهورها الكسرة المجانسة لياء المتكلم (...) وكما تقدر الضمة والفتحة على اخر الاسم المضاف الى «ياء المتكلم» ، تقدر الكسرة كذلك فتقول : (اخلصت في عملي) ... فكلمة «عمل» اسم مجرور بـ «في» وعلامة جره الكسرة المقدرة على اخره .. منع من ظهورها الكسرة المناسبة لياء المتكلم ..» .

ويمضي الكتاب يفصل اضافة المثنى الى ياء المتكلم ، وجمع المذكر السالم ... ويتحدث عن حالات المثنى والجمع عند الرفع والنصب والجر ...»

اذا تركنا هذه القواعد المهمة جانبا ، والتفصيل المتعب كذلك نرى ان التلميذ العربي يلفظ المضاف الى ياء المتكلم لفظا صحيحا فيقول :

قومي بكسر الميم ويقول قومي واخي وعظمي ومدرسيّ ومسعاي .. دون اية حاجة الى هذه القواعد التي وضعت يوما ما لحاجة الاعاجم اليها .

ونرى ان هذه القواعد والشروح تربك التلميذ وتشككه في نفسه ... وربما زهد بالقواعد والكتاب ... او احس بقصور في ذهنه عن المتابعة والادراك ...

هذا الى اننا كان يمكننا ان نستغل الوقت الضائع فيما الحاجة اليه امس ، والنفع التطبيقي اكبر - ولا بأس ، بعد ذلك - بادخار القواعد والتفصيلات - الى مراحل قادمة من التخصص ، اما الان ، فنحن في وضع لانحسد عليه من مواجهة طلبة لايجرون - في جملتهم - المجرور بحرف الجر ولايرفعون الفاعل ولا ينصبون خبر كان . واحسب ان السادة المؤلفين يعرفون ذلك جيدا وان تعليم الطالب جر المجرور بحرف الجر اولى من تعليمه مالا يثنى ، وجمع مالايحتاج الى جمعه ، واعراب مالا يخطىء في لفظه .

وبعد

فهذه امثلة مما بدا انها فوق مستوى التلميذ او خارج حاجته المباشرة وانها لذلك تثقل على التلميذ ولاتؤدي الى الغرض المطلوب من الدرس .. وسواء اقتنع بها السادة الاساتذة المؤلفون أم لم يقتنعوا فان القصد الاول - والاخير من ذكرها اعادة النظر - كل عام - في الكتاب المقرر في ضوء القاعدة التي لاشك في صحتها من ضرورة تعليم ماينفع ويجدي والبدء بالأهم في حدود المرحلة .

واذا كان الكاتب هنا قد وقف ، عند كتاب واحد ، فلأنه الذي تهيأ لديه ، وانه يمكن ان يرجع الى غيره اذا جدت حاجة واتضح ان التلميذ والقارىء يريان من حاجتهما ما لايراه المؤلفون - والتعاون بين الجهات المختلفة كفيل بالكتاب الاحسن ، وما المؤلفون الا طرف من اطراف فيها المدرس وفيها التلميذ وفيها اي قارىء من القراء : وتلتقي الاطراف

كلها للتعاون وفي سبيل الاحسن والانفع :

اريد ان اقول ـ ايضا ـ ان ليس بنا حاجة الى تأليف جديد ، فقد توالت التأليفات والحال هي هي ، والذي يتغير في الكتاب الجديد لايكاد يذكر ، ورب قديم خير من جديد ... زيادة الى ما قد ينسب اليه الحرص على التأليف الجديد من منافع مالية وانما هي دعوة الى اعادة النظر والتنقيح المتصل في ظل القاعدة السليمة ... وسنبقى على هذا حتى يتهيأ للامة من هو اهل للتيسير ، ولا بد من ان يتهيأ ، وما في كل يوم يولد فينا الخليل بن احمد الفراهيدي .

الجمهورية ـ ١٩٨٥/٦/١٠



ماذا عن «ألف ليلة وليلة» ؟

العراق كله ، بحضاراته ، بمكانته في التاريخ والجغرافية يلخص لدى الغرب بـ(ألف ليلة وليلة) وبغداد وهارون الرشيد وكل شيء أخاذ ، ساحر ، فاتن ، جميل ، حبيب من خيال وتصوير ، وحقيقة كالوهم ووهم كالحقيقة ، وعجائب وغرائب ، وبدائع وروائع ، كل ذلك وغير ذلك خلال مجتمع ضخم مما بين الحرامي والخليفة من كل لون وصنف و (سندباد) .. وفي طي اولئك افكار وآراء وملاحظات وتنبيهات وآمال ومطامح وانتصار لمظلوم ومطالبة بالعدل وصبر بانتظار فرج وامنية بحق ممكن . ومع الافكار وما يثيرها ، ومع الاراء ما ينيرها ، ووراء الحروف مالا يدركه الا اللبيب الطيب .

هو عالم متكامل ، ودنيا لاتنتهي ، وانسان بعينه في ناس وناس بأعيانهم في انسان من كل مكان ولكل زمان في الافراح والاتراح . ويلتقي في ذلك الصغار والكبار ، الصغار بالعمر كالصغار بالتصرف ، والكبار بالعقل كالكبار بالعاطفة ، والامم كلها بأجناسها ومللها ونحلها لدى الجذر والجوهر والصميم الطيب واحد ينفي الخبث والخبيث .

وليس عبثاً ان يصير كتاب واحد كناية عن بلد عريق كالعراق ومدينة عريقة كبغداد وامة كاملة حتى استعاضوا في بعض اللغات عن (الف ليلة وليلة) بالليالي العربية .

هو كتاب تاريخ ان شئت ، وكتاب جغرافية ان شئت ، وفلسفة

واجتماع وسياسة .. ان شئت وهو كلها ومايزيد لأن فيه ما فيها ، وما فيها فيه .

ولم يكن عبثاً ان يعنى (الغرب) هذه العناية كباره وصغاره ، ابناء القرن الثامن عشر كأبناء القرن التاسع عشر كأبناء القرن العشرين كأبناء القرون الاتية . فهو عصارة حضارة ، وخلاصة تاريخ في نسق جميل واطار بديع ، وسرد رائع لايمله سامع ولايقصر في طلبه قارىء .. ولولا السرد لما كان الكتاب ولولا الكتاب لما كان السرد .

ليس عبثاً ولا يكون العبث هكذا . وانما المسألة جد ، وعلى الغاية من الجد ، والا لما اعجب به (الغرب) وترجمه الى لغاته واعاد ترجمته فنشره مرة كاملا ، ومرة مجزءاً ومرة كما هو ، ومرة بتصرف ، غير ما تأنق به في فن الطباعة وفن الاخراج وفن التزيين ، غير من تأثر به من الادباء ومن استوحاه من الفنانين ، غير ماصدر من بحوث ودراسات ، وغير وغير .

وماكان اعجاب الغرب (لخاطر) الشرق او العرب او لغة من اللغات وأمة من الامم ، فهو من هذه الناحية ومنذ القرن الذي ترجمه له فيه انطوان گالان (١٧٠٤ ـ ١٧١٧) لاول مرة لايعرف «الخاطر» و لايعرف غير نفسه في نفعها وامتاعها فيما ليس له مثله وما لايزيد من اخذه . فأخذه وليس ذلك عيبه ، ولانريد ان نشتد معه في الحساب لأنه احسن الاخذ واحسن التصرف ... ونبهنا الى كنز اكتشفته العامة منا وجهلته الخاصة ، وفتح عيوننا بعد غمض طويل ، واذابنا نرى مالنا خلال ماله ، ونفم مافهمه . وهذه احدى حسناته ـ على كثرة سيئاته ـ ولم تكن بالقليلة .

ليس قليلا ان يعجب غريب بما لنا اعجابا مجردا من الجشع والاستغلال ، وليس قليلا أن يتصرف بما اخذه منا تصرفا بعيدا عن الظلم والجور . واحسب ان الفضل (بذلك) في المادة نفسها ، مادة

الكتاب الخالد بما فرض على البعيد قبل القريب والغريب قبل النسيب من احترام وتقدير وتعظيم - وليس شيء من هذا بسهل !!

وشرعنا نفرك العيون باصبع واحد اول الامر ، وبالكفين كلتيهما في نهاية المطاف ، فصحونا ، وطفقنا نعني بعض العناية ونهتم بعض الاهتمام ونرى الحقيقة من بعض وجوهها ويخالجنا الواجب بعض المخالجة .

ماذا ؟ ألنا هذا التراث الخالد ولاندري ؟ ايعرف قدره فولتير فيقرؤه مرارا ، (ويحفظه) ستندال فيتمنى نسيانه لمعاودة قراءته ؟ وتسير القافلة في اوربة وفي الامريكيتين واستراليا ، ويحدو القافلة حاد ذواقه نقادة مثل اندريه جيد ... ولانذكر عظماء امم تلك القارات فيما فعلوا وما قالوا .. ونكتفي بعظيم واحد على سبيل التمثيل ، وهو اهل لذلك لانه صاحب دعوة (الادب العالمي) ، (گوته) حين قال (من الصعب جدا الظفر بعمل ادبي اكثر اهمية من الف ليلة وليلة ، هذا الكتاب الذي يستمتع به العالم والجاهل على حد سواء) .

اتريد ان اعدد لك الترجمات ؟ الفرنسية ، الانكليزية ، الالمانية ، الايطالية ، الاسبانية ، البرتغالية ، الروسية ، التشيكوسلوفاكية ، البلغارية .. اما تدل هذه على غيرها ، اما يشير الحاضر على المستقبل ، ومن اللغات ماترجمها مرتين ومنها ماترجمها ثلاثا ... مع رجاء قبول الاعتذار عن الاستمرار في التعداد لصعوبة الحصر ، والاعتذار عن مدى التأثير لان الكتاب صار مادة اساساً في الادب (المقارن) .. والاعتذار عن الاعتذار .. وعن خبر لايسرك كثيراً وان سرك قليلا ، خبر عناية الغرب بالنص العربي جمعاً وتحقيقاً واستدراكاً .. وطبعاً !..

والسلسلة تطول والوديان تتفرع وتتلاقى وانت تقول : هذا غير معقول ، والمعقول هو العكس ، هو ان نعنى ، نحن بتراثنا وان نقدر نحن كنزنا . ان ندرسه ، وان نحسن طبعه ، ونحسن تقديمه للكبار كما

نحسن تقديمه للصغار .. ولابأس من الاستفادة من الغرب و (الغيرة) من الغرب .. و(الحسد) احياناً !

وها نحن اولا في مصر ، حيث مطبعة بولاق ومن يشرف عليها من العلماء والشيوخ ، وحيث تتهيأ نسخة يعتمد عليها هي نسخة (زوتمبرك) فتتولى بولاق الطبع سنة ١٨٣٥ .. وتتوالى الطبعات تجارية وغير تجارية ، كاملة ومنقحة ... وتتبع الطبعات قراءات تعم الوطن العربي كله وكأنه وجد ضائعا واسترد حقاً .

ونأخذ عن الغرب (ولابأس) عنايته في دراسة الكتاب ، وكان من ذلك دراسة مبكرة لامين الريحاني وقد وجد نفسه وجهاً لوجه مع نيويورك .. ثم الدراسة الرائدة القيمة التي القاها الاستاذ احمد حسن الزيات ببغداد سنة ١٩٣٢ في محاضرتين عامتين نالتا الاعجاب والثناء والتقدير . الاستاذ المتحدث اديب مصري فاضل والمعجبون ادباء عراقيون فاضلون .

وتستمر الدراسات وابرز مايذكر من اوائلها رسالة سهير القلماوي للدكتوراه ومن اواخرها رسالة محسن الموسوي للدكتوراه (ونظرة الى مصادرها تريك صورة من اهتمام الدارس الغربي بها) .

ثم كان اخرها (او من أواخرها) رسالة للماجستير عملها طالب جزائري نابه هنا في جامعة بغداد (اثر الف ليلة وليلة في الرواية الفرنسية في القرن الثامن عشر) تقدم بها شريفي عبدالواحد سنة ١٩٨٣

وفي القرن الثامن عشر (غير فولتير) مونتسكيو اعتذر عن الاسترسال في الدراسات في حاضرها ومستقبلها عابراً لأشير الى تنبه الاديب العربي (متابعة للاديب الغربي) باستلهام الف ليلة وليلة ، وأمر طه حسين وتوفيق الحكيم معروف ، ولم يشتهر امر نجيب محفوظ ، غير ماتعرف واعرف ، ولكن لابد من لفت النظر الى مسرحية رائعة يسر المرء

منا ان يرى كاتباً عربياً يستلهم بها (الف ليلة وليلة) على هذه الدرجة من الاصالة والابداع ان الدنيا بخير مادامت (الف ليلة وليلة) بخير .
وهكذا صنع هذا الكاتب الفلسطيني اثراً مبدعاً على الاثر المبدع فجعله (الليلة الثانية بعد الالف) - وقد نراها على المسرح .

والسلسلة تطول والوديان تلتقي وتتشعب .. وتستحيل الف ليلة وليلة وصلا بين الغرب والشرق . ولابد لنا من ان نثق (لأول مرة) بعمل الغرب في خدمة الاثر الخالد خدمة نزيهة ، واذا كان الجامع بيننا والغرب هو العنصر الانساني في الاثر الخالد ، فلا بد لنا من اداء واجبنا فيما نحن احق به من شأن اللغة وبغداد وهارون الرشيد والبصرة والصائغ والمزين والحرامي .

وقل اعملوا ..

وادرك شهرزاد الصباح .. ولم يدركها الصباح ، ولم تسكت عما يباح ولايباح .

قالت انه بلغني ايها القارىء العزيز ان بلداً عربياً يعيش في منتصف العشرة التاسعة من القرن العشرين رأى فيه (مفكروه) مالم يره غيرهم من المفكرين الحقيقين . لم ير المفكرون الحقيقيون في (الف ليلة وليلة) ضيراً وعيباً اذ نظروا (كما يجب) الى الابداع والبعد الانساني فأحلوه عالياً وعدوه احد عشرة كتب تتصدر الابداع العالمي وترجمه اليونانيون الى لغتهم وهم اصحاب الالياذة والاوديسة .. واستلهمه النابغون في القصة والمسرح والاوبرا والموسيقى والتصوير وبلغوا في استلهامه درجات عالية من الابداع الفني . والقاعدة المعقولة المقبولة ان اثراً شريراً لايلهم الجمال .

وأدرك شنهرزاد الصباح ، ولم يدركها الصباح ولم تسكت عما يباح ولايباح ..

هلا توقفتم (سادتي) لحظة عند هذه (الاكشاك) المنبثة في الطرقات

المتسقة على الارصفة ، تتوقفون لحظة وتنظرون (ان كانت لكم عيون) في هذه التي تسمى تجاوزاً كتباً .. وما هي بكتب وانما هي السموم والافاعي ، والاثارة في الجنس والانامة للذهن .. انها تملأ الاكشاك ولاتكاد تجد في الاكشاك غيرها وعلى اغلفتها من الصور السخيفة مايراها الاعمى قبل البصير !

وطفقت تودد الجارية تضرب بالطبل وتغني : ليت للبراق عيناً !

ترى ماذا كان يفعل طه حسين لو كان حياً ؟ ومارأي الحكيم ونجيب محفوظ والقلماوي ؟ ومجلة (أما قبل) في الموضوع ؟ !

وفي (الف ليلة وثلاث ليال) قالت شهرزاد : بلغني أيها القارىء العزيز أنّ ..

الجمهورية ١٩٨٥/٦/١٣
اختار لها المحرر لدى النشر عنوان :
بلغني ايها القارىء العزيز ، أن ...

الشيخ أمين الخولي .. يشنأ المتنبي



تقول وكيف كان ذلك ، تسأل وانت لاتدري ، او كأنك لاتدري .. والسؤال في نفسه وجيه والدراية فيه واجبة فللشيخ قدره ، ومكانته حتى كان يطمع ان يؤسس مدرسة من «الامناء» وسعى ووضع المبادىء وحصل على عدد من «المريدين» ولكن المدرسة لم تتكون ، والمبادىء لم تثمر ، وفيها الصالح دون شك ، وفي الصالح كلا او جزءا ما هو وريث التبني اولا وقبل كل شيء وفي الحقيقة والواقع ، ولدى البحث والتنقيب ، او لدى الوعي والتيقظ .

والخولي استاذ في قسم اللغة العربية من كلية الاداب من جامعة فؤاد الاول ، وهو ـ لمن رآه ـ في اواخر الاربعينات ـ مثلا ـ ذو وزن في القسم واسم في الكلية ومكان في الجامعة .. ويسعى ، وهذه اهم صفة فيه ـ أن يبدو متحررا جدا .. واسع الافق جدا .. ويبلغ في ذلك حد «السفسطة» في نظر عدد لابأس به من عارفيه .

وهو غريب في باب من اواخر الاربعينات في قسم اللغة العربية من كلية الاداب من جامعة فؤاد الاول ، وقد غاب الكبار وفيهم طه حسين مثلا ، او شاخوا وفيهم احمد امين مثلا ، وشرع يدب الصغار وفيهم سهير القلماوي ، وشوقي ضيف ـ مثلا .

وفضيلة الشيخ الخولي الفكر او إثارة الفكر ، ولكن هذه الفضيلة تذهب نفخا في رماد حين تبذر في ارض صلدة لاماء فيها ولا هواء . فاذا

الطلبة منه ومن درسه شأنهم من غيره في الصمت عما يجري حولهم «والصم» اي «الدرخ» للاوراق المكتوبة في نهاية الحساب ومن اجل النجاح المضمون .

وصفة «الشيخ» هذه ليست لان الخولي بدأ شيخا وظل يلازم العمامة والجبة ، وذهب الى ايطالية بمهمة الشيخ فعرف الايطالية ووقع على كتب محدودة في البلاغة والاسلوب ، وليست ، وليست .. ولكنها اساسا - في احتفاظه بتكوين الشيخ في الايساغوجي ، وفي رؤية الاشياء ، وفي الحرية التي يمنحها للمقابل مع احتفاظه المطلق برأي لايتزحزح عنه .

والمنطلقات التي استقرت قناعات لدى الشيخ كثيرة وقليلة في آن واحد ، هي لديه قبل ان يلم بالدرس الايطالي في الادب وفن القول .. وهي لديه بعد ان الم معفـارق في الطلاء الخارجي والسند المتكأ عليه .

والشيخ الخولي مصري جدا ، والاقليمية قناعة لاتتزعزع في اسس شخصيته والامر معروف .. ولولا موقفه من ابي الطيب المتنبي لما جرى القلم فيها .

- وماذا عن الشيخ امين الخولي والمتنبي ؟

- لقد تحدثت قليلا - او كثيراً - عن فكر الشيخ ، ولم اتحدث عن «ذوقه» لاني لم ارد ان اقول ان من «ذوق» البحث في شاعرية مصرية ليست من الشعر في شيء ، ومن ذوقه وفكره مجتمعين : السيوطي ، لا لشيء الا لانه «سيوطي» .

والامر معروف .. ولولا موقفه من ابي الطيب المتنبي لما جر القلم اليها -

- وماذا عن موقف الشيخ امين الخولي من ابي الطيب المتنبي ؟

- انه يجهد بعرق في الجبين ، وضجة في الحركة واسترسال في الصوت ، ان يجرد ابا الطيب المتنبي من الشاعرية .

ـ عجيب !

ـ وليس عجيباً .. والامر منسجم تمام الانسجام ومتسق كمال الاتساق .. مع القليل الذي ! ألمحنا اليه ووقفنا عنده .. فكيف بالكثير الكثير مما لامجال الى ذكره ولا موجب لاثارته ـ والشيخ الخولي ـ فيما عدا ذاك ـ استاذ قدير جدير بالاستاذية وكان خير من رأيت في قسم اللغة العربية من كلية الاداب من جامعة فؤاد الاول . ويكفي مايتميز به من شخصية وما يثيره من نقاش ويتسم به من مزاج .. اجل . وما نحن في شيء من هذا هنا .. لأننا في شيء غيره لايبعد عنه كثيراً او كان اللازم ان يبعد عنه كثيرا .. والا فما ذنب المتنبي . اعظم شعراء العربية بالاجماع ليلقى «الهوان» على يد استاذ قدير جدير بالاستاذية ؟ !

ـ اتراها الاقليمية ؟

ـ ربما ، ولعل ، وقد .

واذا كان شاعر شاعر قد حل بمكان ما في زمان ما بظرف ما .. فهجا هجاء يجب ان يربطه الناقد بسببه .. فهل يدخل ذلك في اقليمية تاتي بعد اكثر من الف عام .

ـ تأتي او لاتأتي ، اهي ضخامة في الاقليمية او استفهام على الذوق ، ام اي شيء اخر من حسن او قبح .. فان الذي حصل ولاشك في حصوله موقف غير محمود للشيخ الخولي من ابي الطيب المتنبي ، ولانطيل .. واليك مثالين :

قال ابو الطيب المتنبي .. وهو في قمة من قمم ثورته على مايرى من فساد بني الانسان حوله :

كلما أنبت الزمان قناة ... ركب المرء في القناة سنانا

جميل !

ـ لاتستعجل .. فلست اول ، او اخر ، من استجمل البيت منفصلا من القصيدة النونية متصلة .. وانما الموضوع موضوع شيخنا

واستاذنا الخولي اذ يعد البيت تافها ، سخيفا ، لاقيمة له ولا دلالة ، فساده في اللفظ فساده في المعنى الى ما هنالك من عيوب وافات في الكل والجزء والعرض والجوهر والكيفية والماهية .

يستقل الشيخ الخولي منطقيا وعلى مذهب القياس الارسطاليسي .. الحال ويراها هنة في البيت فاية شكوى هذه من الانسان في ظلمه وعدوانه . ان الشاعر يريد الكثير السريع فوقع في القليل البطيء .. فانظر الزمن الطويل بين ان ينبت الزمان القناة .. حتى تصير قناة يختارها الانسان ليركب فيها السنان ليطعن بها ... انظر ، ويمضي الاستاذ الشيخ في تجسيم مارآه تقصيرا ليصل الى سخف البيت لفظا ومعنى .. ومن ثم هوان الشاعر وهزاله ، لقد كان الاستاذ الشيخ يريده من «المبالغة» بحيث يختصر الزمن .. ويمضي وحده ، وهذه ظاهرة ملموسة في الفصل «الصف» .. اذا تحدث الاستاذ ـ اي الاستاذ ـ فلنفسه ومع نفسه .. وليقل ما يحلو له من خطأ او صواب .. ولم ينتبه احد ـ او ينبه ـ الى ان بيت «القصيد» المضام ـ ولايضام ـ وقديما قال ابن جني «هذا البيت (...) احسن ما قيل في الزمان .» مالنا وابن جني ، والمسألة اوضح وادل وابين من الحاجة اليه .. انما الذي لم ينتبه اليه احد ، او ينبه ، هو ان البيت المضطهد ولايضطهد من قصيدة ذنب صاحبها فيها انه قالها في مكان معين من زمان معين لظرف معين .

والاستاذ الشيخ الذي عاب البيت بما عابه به .. ربما استهجن بيتا اخر لخلوه من ذلك العيب .. كأن مسألة الاستهجان بأي ثمن لسبب خفي بمنطق ظاهري .

قال ابو الطيب المتنبي ، وهو في شدة الازمة من البحث عن صديق صدوق حيث يجب البحث ، وحيث يستحيل وانما يلجأ الى المستحيل بيانا لعمق ألمه ودلالة على عظم مصابه ، وهل اعظم على شاعر طامح

حي كالمتنبي من ان يتمنى الموت بسبب من خيانة الصديق ؟ قال ابو الطيب المتنبي :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا

وحسب المنايا ان يكن امانيا

تمنيتها لما تمنيت ان ترى

صديقا فأعيا او عدوا مداجيا

والشاهد في البيت الثاني ـ لان الشيخ الاستاذ الخولي اقتطعه وحده ، ولم ينبه احدا او يتنبه احد الى انه من قصيدة ـ كان الحق كل الحق لصاحبها أن يثور ، وان يتأزم ، وان يلعن ، ويقول كل شيء يريد او لايريد .. فقد قالها وقد «فارق سيف الدولة ورحل الى دمشق وكاتبه .. كافور بالمسير اليه» فسار ووصل . وقال : واذا عرفت ان البيت قيل في مكان معين وزمان معين لظرف معين فقدت حجتك في المهاجمة بشعور ـ او مبدأ ـ أقليمي ، وجاءت حجة عرضا بغير جوهر ، وسمعها السامعون كرها لاطوعا واستهانة لااهتماما .

المهم .. ان الاستاذ الشيخ الخولي يرى في البيت غاية السخافة والاضطراب وفساد المنطق فهل هناك عاقل يتمنى المنية ؟ واذا وجد هذا العاقل فهل يوجد الذي يتمنى العثور على الصديق في العدو المداجي ؟ اجل في العدو على ان يكون هذا العدو مداجيا . فياله من سخف في الدلالة ويالها من فيولة في الفكر .. وهكذا يمضي الشيخ الاستاذ وكأن عظيما مضاما كأبي الطيب المتنبي مصابا في اعز صديق حبيب لديه ، يبحث فعلا عن الصديق في العدو المداجي ، وكأن لم يكن ذلك منه عظمة في الدلالة النفسية وفي الدلالة على جلال الموقف ، ولايشفي النفس ـ في هذه الحال ، غير العمق والاستغراق وهكذا فعل ابو الطيب المتنبي ـ ونحن ازاء شعر هو القمة في الوجدانية ولسنا في شعر تعليمي بارد يسير على المنطق الشكلي .. حسب «مواصفات»

خاصة .

ومن يدري .. فربما عاب الاستاذ الشيخ بيت المتنبي لوجاء على غير الصورة في غير هذه الحال ؟ من ؟ ويقول قائل : انا ، انا ادري .. لان المسألة ليست مسألة ذوق او شاعرية وانما مسألة شاعر بعينه ثم انها ليست مسألة نظريات حديثة في الادب . ورأي لـ تين (Taine) وكلام في الجنس والبيئة والعصر .. لانها لو كانت كذلك لما كانت لدى الاستاذ الشيخ كذلك .

والا .. ومن باب نظرة اوسع ورأي اصوب .. ونفس أسمح .. اذكر صديقا لي سودانيا اديبا .. استاذا . دكتورا .. لايفارق لسانه المتنبي ، ولايبعد عن مكتبه ديوان المتنبي .. كل هذا وهو يعلم تمام العلم ويعرف كمال المعرفة الذي قاله المتنبي في «كافور» «العبد» «الاسود» يعرف ، ولكنه يضع الامور في نصابها ويزن الاشياء ولا علاقة .. لو كنت مكان المتنبي وكانت لي عظمته لما عدوت ما قال .

اجل والشيء بالشيء يذكر - ويبقى لاستاذي الشيخ الخولي فضله ومكانه .

الجمهورية ١٩٨٥/٧/٩

عقب على هذه المقالة الاديب رمضان عبدالحميد الصفار في الجمهورية بتاريخ ١٩٨٥/٨/١٢

مختارات من أدب الارض المحتلة



الادب العربي الحديث عريق في فلسطين مذ كانت في العهد العثماني جزءاً مما كان يعرف بسورية ، إداريا .

وفي الفلسطينيين رواد للنهضة الادبية الحديثة .. ويبدأ أدب فلسطيني بموضوع جديد حين صارت من حصة الانكليز و «بلفور» ومضى يشتد ويحتد كلما تقدم الزمن حين يشتد الاستعمار وتشتد الصهيونية وتقع الحروب وتحل النكسات ـ والعرب ، عادة طرف في تلك النكسات . ويكون عام ١٩٤٨ بدءاً فظيعاً في تاريخ العرب وتاريخ فلسطين وتاريخ الادب عربيا وفلسطينيا .

وأراني بدأت من بعيد ، واخشى ان امضي بعيدا مع الضيم والخيانة مما هو معروف جدا ، وبعيدا عن الادب والشعر والقصة .. وقد صارت فلسطين فلسطينين : واحدة محتلة يعاني اهلها الاحتلال ويقاومونه ، وواحدة خارج الحدود .

وعرفنا غير قليل من الادباء **الفلسطينيين** خارج حدود الاحتلال شعرا وقصة ونقدا ودراسة وصحافة .. تضحية وعملا مخلصا ، وانتهازا ومتاجرة .. في الحياة كما في الادب ، او في الادب كما في الحياة ، لان مسؤولية الاديب اكبر ، وحسابه اشد ، واذا كان جانب الاخلاص قد نال حقه من التعريف والنشر والدراسة ، فسيأتي يوم ينال فيه الجانب الثاني حقه من التعريف والدراسة والحساب .. وقد

ينبري اليوم من له علم بالظاهر والباطن ليؤلف لنا كتابا او رسالة فيه كما كتب الكاتبون والف المؤلفون في الجانب الاول ـ وكل ما هو آت آت .

ولسنا الان بصدد من هم خارج الحدود من مخلصين وغير مخلصين عرضة للاغتيال او سببا في الاغتيال ... حتى ما دخل ذلك في ميدان الادب فقد عرفنا منه الشيء المناسب ، وفي هؤلاء الذين يعيشون أدباء مرموقين وغير مرموقين خارج الحدود من كان أمس داخل الحدود ويأتي في طليعتهم محمود درويش وقد حظي من النشر حقا وباطلا بما لم يحظ به أديب فلسطيني كان داخل الحدود وصار خارجها بين بيروت وباريس .

الحاجة الماسة ، والضرورة الحادة ، والطلب العاجل .. اذاً ... الادب العربي الفلسطيني داخل الحدود ، في الارض المحتلة : حاله وحال حاملي القلم ، اجياله ، اتجاهاته ، لغته ، انواعه ؟؟!!

ولقد صدرت اكثر من دراسة عنه ، ولكن الدراسات لم تكن على العمق المطلوب ، ولانطلب العمق ان طلبنا الاطلاع والالمام ، وانما السؤال في فتور هذه الدراسات عن المتابعة ، عن اعلامنا بما جرى ـ ويجري ـ بعدها ـ واننا بانتظار هذه الدراسة او المتابعة .

وكان طليعة العلم بأدب الارض المحتلة ، الكتاب الذي جمعه وقدم له يوسف الخطيب بعنوان «ديوان الوطن المحتل» ـ تموز ١٩٦٨ وتوالت نصوص ضافية من الشعر بدءاً بمحمود درويش (وهذه فرصة للدراسين لتتبع محمود درويش فيما كان ويكون) وتثنية بسميح القاسم ثم يأتي : توفيق زياد ، وسالم جبران ، واخرون .

لقد كان «الديوان» خدمة ادبية جليلة زامنت دراسة غسان كنفاني عن «الادب الفلسطيني المقاوم» . وربما كانت اولى الدراسات الصادرة بعده ، دراسة رجاء النقاش : «محمود درويش شاعر الارض المحتلة» ـ أترى الاستاذ النقاش يكمل مشروعه بجزء ثان ..؟ لعله ... ودراسات

وتعليقات اخرى ، وطبع واعادة طبع للدواوين ، واقبال شديد من القراء حبا بالاطلاع ، ومؤاساة لزملائهم ، واعجابا بهذا الشعر الذي يجمع بين البساطة والعمق ، والخيال والواقع ، والصورة والانفعال ، وهو كله في «القضية» ، وفي قاعدته الصدق . وتكاثرت الآراء في الثناء على هذا الشعر وفي الثناء صدق ، ولكن في قاعدة الصدق العطف والتشجيع و «القضية» حتى بلغت الآراء مبلغ المبالغة التي اعتذر عنها شعراء الارض المحتلة انفسهم .

تلك قصة اخرى .. وتكاثرت الدواوين و «تكاثر» من يخرج من الارض المحتلة وينظم الشعر ويجمعه في ديوان .. ولكننا ـ مرة اخرى ، لعلها الثالثة ـ لسنا بصدد الفلسطيني خارج الحدود او الفلسطيني الذي كان داخل الحدود وصار خارجها وانما نحن بصدد امر واحد . واحد فقط الحاجة ماسة اليه ، والضرورة حادة به والطلب مستعجل له ... امر واحد فقط وقد عرفته : الادب العربي الفلسطيني داخل الوطن المحتل : حاله وحال حاملي القلم أجياله : اتجاهاته ، لغته ، انواعه ؟؟ !! واسهل الموقف وابسط الحال .. فابعد «الدراسة» عن الطلب .. فقد دلت التجربة ـ تجربة «ديوان الوطن المحتل» ـ على ان النصوص هي الاساس ، ان القصائد التي يعرب بها شعراء الارض المحتلة عن معاناتهم هي الاساس ، القصص التي يكتبونها في عرض همومهم هي الاساس ؟ فماذا فعلنا بعد «ديوان الوطن المحتل» ؟ لم نفعل شيئاً ، مع اننا بقينا على أمل جزء ثان ، وثالث !

وخلال الامل ، وقبله وبعده كنا نتابع نشاط «دار العودة» ، وهي مؤسسة فلسطينيةفي بيروت . نشرت لنا ـ فيما نشرت دواوين كاملة ، قبل ان ينشر الخطيب مختاراته ، وبعد ان نشر الخطيب مختاراته ، فشكرنا سعيها واشدنا بذكرها .. وانتظرنا امرين : الزيادة ، وقد حصل شيء منها وان لم تطّرد وتؤد اللازم ؛ والتخصص اولا وقبل كل

شيء بأدب الارض المحتلة فتعيد لنا طبع الدواوين التي طبعت هناك ولم تصل الينا ، وتطبع للذين لم يجدوا وسيلة للنشر هناك ، وتزودنا اجزاء متوالية للمختارات .

ولم تقصر «دار العودة» كثيرا ولكنها لم تحقق المنتظر وجعلت من نفسها دارا تجارية للنشر شأن عشرات الدور في بيروت ، ونشرت ما يمكن ان ينشره غيرها .

وما زلنا نطمع من الدار بما اطمعتنا به .. وبأجزاء متوالية من المختارات أجل المختارات ايتها الدار ، فهي دليل صادق وهي الدراسة التي يمكن الاستغناء بها عن الدراسة .

ولاتثمر الارض المحتلة شعرا فقط ، لانها كتبت ـ وتكتب ـ القصة ، فماذا عن القصة في الوطن المحتل ؟

وللقصة الفلسطينية تاريخ ، ورواد .. وفيها رواية وقصة قصيرة ، ويطلب العلم بذلك التاريخ في مراجعه من دراسات حديثة عملها الدكتور ناصر الدين الاسد ، والدكتور هاشم ياغي ، والدكتور عبدالرحمن ياغي وصالح ابو اصبع وغسان كنفاني وشاكر مصطفى واحمد ابو مطر .. وربما غيرهم ، وغيرهم .

أجل فليست الدراسات همنا هذا اليوم ، وانما الهم ـ وقد عرفته ـ هو المختارات ، المختارات الشعرية وقد مضى حسابها ، والمختارات القصصية وهذا يومها ، ولايغضب الدارسون اذا زعمنا ان النصوص أدل من الدراسة وأن قراءها اكثر وحاجتنا اليها امس ، اقول هذا وانا اعي ما اقول واتحمل مسؤولية ما أقول وأصدر ـ في ذلك ـ عن برهان ساطع ودليل ناصع .. ففي يدي كتاب فخري صالح ـ «القصة الفلسطينية القصيرة في الارض المحتلة» ـ اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطنيين ـ فرع لبنان ، دار العودة ، بيروت ١٩٨٢ ـ ١٩٢ ص . وهو دراسة ومختارات ، احتلت الدراسة منه ١٣٢ صفحة ، والمختارات

اقل من ٥٠ صفحة ، قرأته وهو نافع مخلص جيد ولكني تمنيت لو جاءت آية الصفحات معكوسة ، وتمنيت اكثر من ذلك لو جاء مختارات فقط ، لا لهوان بالجهد المبذول في الدراسة ولكن لحرص على المواجهة المباشرة ، ودفعا لما قد تخيّله الدراسة للقارىء ، تهوين للنصوص وتقليل من شأنها - وما هي كذلك فيما دل قليله على كثيره !!

ثم يكفي هؤلاء من قصاصي ما بعد ١٩٦٧ ما بذلوه من جهد خاص ودلوا عليه من طموح معين وما اعربوا عنه من رسالة خالدة .. حين عملوا وكأنهم يكوّنون انفسهم ، ويبنون مجددا ، وينطلقون عن غير جيل سابق في الميدان ، لقد فضل الجيل السابق الذي توطد قلمه في الارض المحتلة ان يهاجر خارج الحدود حيث الحرية والعالم الواسع والمعيشة الرضية ووسائل النشر والشهرة ولهم من ماضيهم القريب بالتراب المحتل سند وعون وتكأة .

«لاشك ان القصة القصيرة تحت الاحتلال ، خسرت بخروج عدد من القصاصين الفلسطينيين سنة ١٩٦٧ ، او بعد هذه الفترة بقليل او كثير ، جيلا مهما من اجيالها القصصية - فخرج الجيل الذي اقام اسس الحركة القصصية الفسطينية في الضفة الغربية ، ونشر معظم نتاجه في مجلة الافق الجديد ضامّا عدداً كبيراً من خيرة الاقلام الفلسطينية الشابة : محمود شقير ، يحيى يخلف ، رشاد ابو شاور ، خليل السوامري ، وغيرهم كثيرون ، اثر على مسيرة القصة القصيرة في ظل الاحتلال ، اذ حرم القصة الفلسطينية من تجربة متواصلة خاضها هذا الجيل الادبي ، وبالتالي فان الانقطاع بين جيل القصاصين قبل وبعد ١٩٦٧ ، بالاضافة الى غياب الصحافة الوطنية والمجلات الادبية المتخصصة قبل ١٩٧٥ ، باستثناء الفجر ، الاتحاد ، والجديد ، التي كان القصاصون يجدون فيها متنفسا وقتيا لهم .. ادى كل هذا الى ضغط الحركة القصصية الفلسطينية والحد من معطياتها - ص ٢٤ - ٢٥» .

يكون هؤلاء الذين خرجوا بعد ١٩٦٧ الجيل الثاني من ادباء الارض المحتلة ، او الفوج - كما يريد حبيب قهوجي - لاحقا بأذيال جيل سبقه الى الهجرة فيهم من هو اكثر كفاحا واستعداد للتضحية وفيه من فيه ، ويقف على قمته الشامخة غسان كنفاني ، ويدخل فيه رشاد ابو شاور .

وبقي على الارض توفيق فياض قاصا ، كما بقي سميح القاسم شاعرا . اما جيل هجرة ١٩٤٨ من أمثال اسحاق موسى الحسيني وجبرا ابراهيم جبرا فقد بعد العهد به ، وأبعد فهما في التأسيس القصصي ايام الاحتلال السابق : خليل بيدس صاحب «مسارح الاذهان» - اول مجموعة قصصية فلسطينية ، وقل صاحب مجلة «النفائس» التي كونت للقصة الفلسطينية كيانا وتبادلت الرعاية مع الرعيل الاول . ولم ينج الرعيل الاول من الهجرة فكان ان طوحت سنة ١٩٤٨ بقائدهم بين عمان وبيروت .. اما كلثوم عودة فقد ابعدت كثيرا .

نريد ان نقول ان الهجرة بعد ١٩٦٧ ليست الاولى وان ميلاد جيل جديد بعد هجرة جيل قديم ليس الاول بعد ١٩٦٧ ، ونريد ان نقول للجيل المتمسك بالتراب ما قاله لنفسه من جد واجتهاد وتدريب وتجريب واللجوء الى كل سبيل ممكن للاتصال بالتراث الذي تكوّن للقصة الفلسطينية خصوصا والقصة العربية عموما .. ثم ان لديهم مما يجب ان يتعلموه من اللغة الانكليزية ما يوصلهم الى المنبع ، وماذا يريدون اكثر من الفن القصصي وقد توفرت لديهم المادة القصصية على اعنف مايكون واشد ما يبعث على الكتابة !!

ونريد ان نقول للجيل المهاجر ، او الاجيال المهاجرة - اضطرارا او اختيارا - عليكم واجبكم ازاء ابنائكم في الارض المحتلة ، توصلون اليهم ادبكم وادب امتكم وادب العالم بكل الوسائل الممكنة وغير الممكنة وترعونهم رعاية خاصة كما لو كنتم هناك او كما لو كانوا خيرا منكم فلسطينية ودلوا على موهبة ابداعية لايبعد ان تبزكم ، ولكم في الاذاعات

العربية نافذة تزاد على النوافذ الاخرى .. ولكننا لم نسمع صوتا خلال هذه النافذة ولم نره ؟ !

النوافذ كثيرة لمن طلبها .. والمهم الطلب ، والطلب يوجد ما لايوجد .

ولا اذهب بعيدا ، لأني لم ات لأذهب بعيدا ، ولقد اتيت من اقرب مكان لأصل - واياكم - الى اقرب مكان وكل الذي اطلبه وارجوه واتمناه لهم ولكم ولي امر ميسور لايكلف غاليا : «مختارات ادبية من الارض المحتلة» واذا كنا انتهينا من المطالبة المشروعة بأجزاء متوالية لـ «ديوان الوطن المحتل» يدخل فيها جيل ما بعد ١٩٦٧ ممن تمسك بالتراب وتغذى به فخبر همومه وعانى ابعاده .. اجل ، لقد انتهينا من ذلك ، وليس من المنهج العودة الى ما تم الاتفاق عليه .. ولكننا لم ننته من المطالبة المشروعة للبدء بأجزاء كتاب يعضد الكتاب الاول هو «قصص الوطن المحتل» واسارع فأقترح البدء بالجزء الثالث او الرابع ان شئت ، وليس العدد هو المهم وانما المحتوى - ليضم امثلة - سمِّها مختارات من «قصص الوطن المحتل» بعد ١٩٦٧ لمن بقي يعيش الاحتلال ويتجرع غصصه ويقاوم في حدود امكاناته ، والقصة مما يدخل في هذه الحدود . واسارع واقول انها جيدة ، ومعبرة ، مؤثرة ، خير مما يحسبه الدارسون ، واولى بالتشجيع مما سواها ، وانها ان لم ترع قد تضمر وقد تنتهي هناك وينتهي معها الشعر والادب ويذبل - ولايموت ؟ ! - غصن تزهى به الشجرة العربية .

اقول هذا وانا اعي ما اقول ، واتحمل مسؤولية ما اقول واصدر عن برهان ساطع ودليل ناصع .. ففي يدي كتاب فخري صالح «القصة الفلسطينية القصيرة في الاراضي المحتلة - دراسة ومختارات» وقد انتهى من تأليفه سنة ١٩٨٠ ليعنى بالجيل الذي مكث على الارض بعد عام ١٩٦٧ . وقد احسن فخري صالح اذ ذيل «دراسته» بثلاث قصص مختارة ، ولم يحسن اذ هوَّن في دراسته ، من شأن الفن ، واذ لم يجعل

ثلاث القصص ثلاثين ، اجل ، وعفواً أخي فخري ، ففي الثلاث ما يدل على الثلاثين اي ما يغري بالطلب ويضعك موضع «البخيل» او موضع الذي يرى الدراسة اهم من النص . ان الدراسة - اخي فخري تقوم على هواء اذا فقد القارىء النص .

ان في القصص الثلاث ، اخي فخري - من الفن والحياة والمعاناة والقوة ... مع البساطة والتواضع والنقاء والطهر .. ماقلَّ ان تجده في الكثير الذي تقرؤه ، ان في القصص الثلاث معاناة والم وهم وجرأة وأنسانية ان في عرض الواقع المر وان في التمرد وان في السخرية من الخرافة - ابطال القصص - ومن حولهم اخوانهم - ابطال حقا ولكنهم تحت طائلة ظلم وجور وجوع يعانونه وحدهم ويواجهونه عزَّلا ، فاسمح لي - اخي فخري اذا لمحت وراء العزة انكسارا ، وخلال الاقدام احجاماً - وتعلم - ونعلم - ان للطاقة حدودا وانها ان سدت المنافذ الى تغذيتها تتضاءل ويميل بها المثال الى الواقع ، وقد تنفد - غير ما يقوله العلم من انها لاتنفد ولكن تتحول - ونفضل - هنا - النفاد على التحول والنهر الجاري الطامح اذا لم تمده الروافد ولم تمد الروافد الامطار ولم تذب الثلوج ، يجف وفي ماوراء القصص الثلاث ما وراءها من انذار لقوم يفقهون ، وتهديد لقوم يفقهون ولايعملون ، وسخرية بقوم يعملون ولايعرفون كيف يعملون !

وكم زجرت القلم - اخي فخري - عن الانسياب فأغفلني ، وقالت الشعراء : «ولكن تفيض الكأس عند امتلائها» وألوذ بك من انسياب جديد .. فكل ما اردته ورميت اليه وآمنت به الحاجة الماسة والضرورة الملحة والطلب العاجل لكتاب يضم المختار من «قصص الوطن المحتل» مبتدئا بالجزء الاخير ، والوطن الذي فيه مثل غريب عسقلاني يكتب مثل «الجوع» وطن يجيد كتابة القصة ، ويجيد الاعراب عن همومه ، واخبرك واخبر القارىء العربي حيث يكون والقارىء الفلسطيني

المهاجر ، ان هموم اخي المتمسك بتربته اليوم بعيدة عن افهامنا ومنطوقنا .. ولا تصل اليها الا من خلال ادبه ، ومن خلال قصصه وهي قصص ذات معنى ، وليست فراغا او ترفا ، انها اسئلة من غير اجوبة .

هذا هو الهم الذي يصنع الادب المؤثر ، ومن ثم تأتي الدراسة ، وماذا عسى الدراسة ان تقول في بناء محكم مقدر على الهم ، متحد معه ، في القصة دموع وليس لك ان تصفها بالرومانتيكية ، وفيها واقعية ، وطبيعية وليس لك ان تربطها بواقعية فلوبير او طبيعية زولا .. وفيها ضياع وليس لك ان تنسبه الى الوجودية والى ضياع مترف تشدق به الستينيون من اركان الوطن العربي ، وفيها فلسفة والفلسفة تفسد الفن ان لم تكن كهذه التي يبتكرها «سعيد» ويطبقها من حيث يدري ولايدري .

وانساب القلم - أخي فخري - مرة اخرى ، وزجرته مرة اخرى وانت السبب فقد اطمعتني القصص الثلاث بالثلاثين ، فلم لاترفع العتاب بجمع الثلاثين في كتاب ؟ واننا لفي الانتظار ، وتؤدي بذلك خدمة لاخوانك واخواني ، ولك ولي ، في الوطن المحتل والوطن غير المحتل . ولا تقل كيف اجمعها واين اطبعها ؟ فليس الجمع بصعب وها انت ذا تواكب وتتابع وبين يديك - فيما بين يديك - من المجموعات :

«السفينة الاخيرة» لأكرم هنية و «الخروج عن الصمت» لغريب عسقلاني ، و«العطش» لزكي العيلة ، و«الجسر على النهر الحزين» لمحمد علي طه و «ريحة الوطن» لحنا ابراهيم ، و«العودة» لجمال بنورة ، و «الوحش» لمحمد ايوب ، و«الاصيلة» لمحمد نفاع ، و«مجنون ياخواجة» لسليمان ناطور ، و «فصول» لعادل الاسطة .

هذا بعض الذي بين يديك قبل ١٩٨٠ ولا شك في ازدياده وتكاثره بعد ١٩٨٠ وربما اصدر القاص الواحد مجموعتين او ثلاثا .. فزكي العيلة - مثلا - له «الجبل لايأتي» ، وسليمان ناطور له «الشجرة»

ومحمد علي طه له «عائد الميعاري» .

وفيه ما طبع في عكا ، وفيه ما طبع في القدس .. او في غيرهما من المطابع العربية داخل الوطن المحتل . تجمع وتختار وتصدر «الجزء» ولابأس في مقدمة تمهيدية تعريفية تضع القارىء على «العتبة» بعيدا عن الاراء الشخصية او التهوين من السرد او الشاعرية او الرمز أو اللهجة الشعبية .. اجل دع القارىء وجها لوجه ازاء اخيه القاص الذي يعيش على تراب محتل .

وتتحدث في كتابك عن مجموعة صدرت فعلا بعنوان «٢٧ قصة قصيرة من القصص الفلسطيني في المناطق المحتلة» ضمت بين دفتيها نتاجا لاربعة عشر قاصا فلسطينيا يعيشون في ظل الاحتلال منهم : زكي العيلة ، وعبدالله تايه وصبحي حمدان وسامي كيلاني ومفيد دويكات ... فأين ومتى طبع هذا المجموع ، ولم لايعاد طبعه .. هو ومجموعات اخرى طبعت داخل الارض المحتلة ولم نسمع عنها شيئا ، وفي اعادة طبعها حياة لها ولكتابها ـ ونذكر في اصحاب المجموعة الثانية محمد نفاع في «ودّيه» بل انه من اصحاب المجموعة الثالثة في «ريح الشمال» ولعله صار ـ بعد ذلك ـ ذا مجموعة رابعة .

نوجه الخطاب مباشرة الى فخري صالح وكأنه المسؤول الاول والاخير عن الادب الفلسطيني في الارض المحتلة ، وقد دعا القلم الى هذا الخطاب السبب المباشر الذي اثاره ، وهو كتابه «القصة الفلسطينية القصيرة في الاراضي المحتلة» واعلان في اخر هذا الكتاب عن كتاب اخر له لايقل قيمة عنه في بابه : «القصيدة الفلسطينية تحت الاحتلال ، دار الاسوار ، عكا ١٩٨١» ، والا فيكفيه فضلا ما قدمه في هذين الكتابين ، وعلى الاخرين من هم اقدر على النشر واولى ان يتحملوا المسؤولية ويفهموا من الخطاب لشخص بعينه خطابا لهم جميعا .. وتأتي «دار العودة» على أسلة القلم تتبعها «المؤسسة العربية» فالداران من أجدر

المدعوين الى العمل والخدمة والتعريف والتشجيع دون ان تخسرا شيئا بل ان الربح حتى ما كان ماديا منه مضمون جدا .. ولو فرضنا المستحيل وخرجنا عن «المضمون» فأين هي «الفلسطينية» واين ؟ اين ؟ نرجو ان تعيد الداران النظر في رسالتهما وواجبهما .. ومع الدارين دور اخرى فلسطينية التأسيس كانت ام غير فلسطينية ومنها دار الحقائق ومؤسسة الابحاث العربية . ويكرر القلم ان المسؤولية المطلوبة - آنياً - هي الادب الفلسطيني على التراب المحتل ، وهي بمعنى اخر ادب ما بعد ١٩٦٧ ، وبمعنى ادق مختارات واسعة في القصص والشعر ... تتوالى فيها الاجزاء وتصل الداخل بالخارج اضافة الى مسؤولية وصل الخارج بالداخل .

واذا عدَّت الدور نفسها تجارية - وما من حقها ذلك - فماذا يقول «اتحاد الكتاب الفلسطينيين» ذو الامانة العامة ذات الفروع الخاصة ؟ ماذا فعل من أجل الجيل الذي مكث داخل الحدود بعد ١٩٦٧ ؟ اقل المطلوب واضعف الايمان مختارات واسعة من القصص - والشعر - اذا لم نطالب باعادة طبع ما طبع في القدس وعكا وغيرهما ، واذا لم نطالب بالسعي حثيثا لايجاد المنافذ بين الخارج والداخل نشرا وتعريفا وتوعية .. ماذا فعل «اتحاد الكتاب الفلسطينيين» ؟ لم أره فعل شيئًا مما نحن فيه والحاجة اليه ماسة والضرورة حادة والطلب عاجل . لقد بدأ بما يجب ان ينتهي اليه حين شرع في «سلسلة احياء التراث الثقافي الفلسطيني» لان هذا التراث تراث تداولته المطابع العربية منذ البدء .. ومع هذا فكم طبعت وكم استمرت ؟ لقد نشرت «مسارح الاذهان» لخليل بيدس ونشرت كتابين او ثلاثة مثله منشورة من قبل في العالم العربي ، ومع هذا وذلك فالجهد مشكور والسعي مذكور وانما المهم الاستمرار ، فمتى ومتى نصل الى جيل ما بعد ١٩٦٧ .

ليس الاحتجاج بالمال عذرا ! فدور النشر كثيرة ، ومنها المؤسسات

الفلسطينية الصرف ثم يمكن الاقتصاد قليلا من المصروفات التي تكلفها المؤتمرات والانتخابات والطيارات ، ففي بعض ذلك ما يطبع اوسع المختارات من القصة والشعر ، ولن يمضي هذا المطبوع من دون عائدات وبالانتظار !

الجمهورية - ١٩٨٥/٨/٣ .

موقف من «ابن قتيبة» !



من المواقف مايبدو غير محمود ـ وأخشى ان يكون الامر بديهيا ، وانه لكذلك . وقد جرني اليه موقف لي ، لعله غير محمود ، من ابن قتيبة ، او انه في اقل مايقال فيه غير قائم على دليل باهر وشاهد ظاهر ، من هنا يأتيه النقص ، ويأتي صاحبه الارق ..

ابن قتيبة : ابو محمد عبدالله بن مسلم ، وقد يوصف بالدينوري ، ومعروف انه توفي سنة ٢٧٦هـ ويذكر انه ولد سنة ٢١٣هـ ... وله المؤلفات الكثيرة ، المتنوعة الميادين ، تعدها فتزيد على الثلاثين ، تتقصاها فتجد له «اللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه» «وغريب الحديث .. والطبائع والعادات والخيل والميسر والقداح .. والتسوية بين العرب والعجم .. انه كثير التصنيف» محسن في التبويب . ولك ان تلقى نظرة على احد كتبه : «عيون الاخبار» فإذا هو واسع المعرفة يجيد الترتيب ... ولكنك لاتجد العقل .. والذهن ... والفكر ... وما الى ذلك من رأى أدبي خاص به .

وقد يكون لهذا شأن في شأن الموقف غير المحمود ، موقفي غير المحمود او غير المبرهن عليه ، من ابن قتيبة ، قد ، ولكنه ضعيف جداً ، لو اختزلته لما غيرّت شيئا من الحقيقة .

وتعرف جيدا .. ان لابن قتيبة كتابا مهما في بابه ، مصدراً للمؤلفين والدارسين على مر الازمان ، واني لآسف اشد الاسف ان يقف هذا

الكتاب عند «أشجع السلمي» وسر الاسف ما يذكر من ان الكتاب ـ وقد عرفته جيدا ـ كتاب «الشعر والشعراء» لم يصل الينا كاملا ، ولم نقف منه على نسخة أم ... ، الكتاب مهم ، وحسبك ان تعلم انه بدأ بامرىء القيس ، وانطوى ـ فيما وصل الينا ـ على ستة ومئتي شاعر ... وفي الكلام على أي منهم ما ينفع خبرا او شاهدا .

أجل ... واشتهرت من الكتاب مقدمته ، وسارت ، خاصة في العصر الحديث ، مسير المثل ، ونقلت الى لغات اخرى اعرف منها : الفرنسية . المقدمة مهمة جدا ، وانها لوثيقة لعصر المؤلف ، ووثيقة للفكر الانساني . ولاشك في ذلك .

قال ابو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة : «هذا كتاب الفته في الشعراء ، اخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم ، واقدارهم ، واحوالهم في اشعارهم ، وقبائلهم [...] وعما يستحسن من اخبار الرجل ويستجاد من شعره ، وما اخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في الفاظهم او معانيهم ، وما سبق اليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون ، واخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها [...]» .

«[...] ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له ، سبيل من قلد ، او استحسن باستحسان غيره ، ولانظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، والى المتأخر (منهم) بعين الاحتقار لتأخره . بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، واعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه» .

وهذا الرأي الاخير هو محط الموقف ، والرأي صواب تمام الصواب ، صحيح كل الصحة ... يدل في صاحبه على سعة افق وسلامة ذوق وطول تأمل ... ثم إنه يحل مشكلة إنسانية تتجدد على مر الازمان واختلاف المكان . هذا يتعصب للقديم ولاشعر غيره ، فيسد الطريق ـ ولايسد ـ

على الجديد ، ويستثير اهله من شعراء ومعجبين بهم فيحتدم الموقف وتتباعد الاطراف .

الرأي صحيح .. وهو الذي استكثره - في بابه - على ابن قتيبة ام استكثر عليه المرونة واستكثر عليه الذوق - وقد اكون ظالما ... ولكن هذا الذي حدث .

وفي عصر ابن قتيبة ما يبعثه الى مثل الرأي الذي ارتآه ، فهو يحدثنا - صادقا - عن الدافع الى رأيه او الى اعلان رأيه فيقول : «فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولاعيب عنده إلا انه قيل في زمانه ، او انه رأى قائله» فلا يرضى منهم هذه الحال ، ويعود ليبرهن على رأيه ويقول : «ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولاخص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره ، وكل شرف خارجية في أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والاخطل وامثالهم يعدون محدثين . وكان ابو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته .

ثم صار هؤلاء قد جاء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا ...» .

الرأي على الغاية من النضج ، ولم يرد اعتباطا وقد وضحه صاحبه ، وايده بالدليل المعقول المقبول السليم ذهنا وذوقا ... وهو يصلح ان يكون قاعدة في النقد الادبي على مر العصور وتباين الامكنة ، وانه لكذلك ، وجدير بأن يؤتم به ويحترز من الخطأ ... وجدير بنا ان نفخر به فما هو بقليل في عالم الحضارة .

ومع هذا ... ولهذا .... يبقى الموقف من ابن قتيبة على مالايحمده ابن قتيبة نفسه ، والمحبون له ، والمعجبون به ...

ـ لماذا ؟

ـ إحساس ... ولااستبعد ان انتهي فيه الى قرار ، ولا استبعد كذلك ان يأتي القرار طبقا للاحساس .. فأنا استكثر على ابن قتيبة مثل هذا الرأي ، أي استكثر ان يكون صاحبه الاول ، والاصيل ، مبتكره ومخترعه المتوصل اليه قبل غيره .

ـ لماذا ؟

ـ إحساس .. لايرى ابن قتيبة اهلا لهذا الرأي على هذا الوجه ، لانه لم يدل في مجمل اعماله على ذهن وفلسفة ومرونة ... وانصراف الى الشعر انصراف الناقد المتذوق .

انه غزير العلم ولانقاش في ذلك ، ويحسن ترتيب العلم ، وهذا كذلك ، وله فضل فيما صنف ، وفضله كبير ... وإنما هذه ـ وهذه ـ شيء ، والرأي الذي عرضه في مقدمة كتابه شيء آخر . قد تكون له من الرأي صياغته الجديدة ، قد ولكنه تحدث وكأنه صاحبه الاول .

ويبقى صاحبه حتى ينتهي البحث الى نتيجة ...

ويمكن ان نجد له مقدمة مهمة عند الجاحظ عندما ساءه ان يرى «أناسا يبهرجون اشعار المولدين [أي يرونها رديئة فيجورون في الحكم عليها] ويستسقطون من رواها» فقال : «ولم أرَ ذلك قط إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر مايروي ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان ، وفي أي زمان كان» ـ والجاحظ قدوة لابن قتيبة ، وما كان يضره لو ذكره في معرض تأصيل الرأي ؟

ان الرأي ـ الى هذا ـ في مألوف عقل العصر بعد ان استشرى الاختلاف بين قديم وحديث واتضح الحق وحاز انصار الحديث حجة بأيديهم . الم يقل ابو تمام ـ قبل ابن قتيبة ، وربما قبل الجاحظ ـ : «كم ترك الاول للآخر» ! أجاء ذلك عبثا ؟ لابد من الرجوع الى النصف الاول من القرن الثاني نستبق قليلا الاعتراف غير المباشر الذي اضطر

اليه عمرو بن العلاء ...

ان ابن قتيبة لم يذكر لنا في مقدمته رأيا للمحدثين ، فلعل رأيه ثمرة لرأيهم او لرأي المعتدلين في النقاش وهو على اية حال صيغة اخرى لرأي الجاحظ ، والجاحظ ـ مرة اخرى ـ قدوة لابن قتيبة وما كان يضر ابن قتيبة لو ذكره .

وبعد

فسوء ظني بابن قتيبة في باب الرأي الذي اورده في مقدمته قديم .. أثارته اليوم قراءة جديدة لرأي للمبرد يقول فيه : «ليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل مايستحقه» . وانك لو عصرت كلام ابن قتيبة وعصرته لرأيت ايجازه في قول المبرد «ليس لقدم العهد يفضل القائل» ـ والمبرد ، محمد بن يزيد ، ولد قبل ابن قتيبة بثلاث سنين ، ومات بعده بعشر سنين ، فهو معاصر في أقل تقدير . ولا اريد بذلك الى تزكية المبرد فأنسب اليه السعة في الافق والمرونة في الحكم والسلامة في الذوق ، وانما اكتفي من رأيه بالمعاصرة ، وتدل المعاصرة على شيوع الرأي وما لامرىء من فضل فيه غير اختلاف الصياغة ، وما ابن قتيبة فيه الا واحد من اصحاب صياغات فيهم من سبقه وفيهم من عاصره . ولاتعدم من يبحث عمّا وراء الصياغة !!

ويستمر البحث ـ وتبقى السيادة لروح العصر في جوهر الخلاف ، والخلاف عرضا اكثر منه جوهراً .

الجهورية ـ ١٧/٨/١٩٨٥



عفواً ... مورافيا !



عفوا مورافيا ، ولو كانت لي الالفة لقلت : عفواً البرتو ، أجل فقد تكون كما تريد ان يقال عنك او كما يريد الاخرون ان يقولوا عنك فينسبوك الى الفكر ، والفكر الثوري احيانا ، الثوري بمعنى الانتصار للضعيف المظلوم المستغَل «بفتح الغين» من اهل الثراء ورأس المال والربح الحرام ، ممن لايعرفون في قلوبهم رحمة ولايحسون في نفوسهم شفقة وقد اكلهم الدينار شر اكلة ، وعبث بهم الدرهم اسوأ عبث .

فانت انساني النزعة ، عالمي الهدف ، شريف القصد .. ومالي على ذلك اعتراض لاني لاعلم من سر الامر سرا ولم اسبر من غور الحال غورا .

والا ، فقد تكون احسن من ذلك درجات واعلى عتبات ، فأنت في اقل مايقال ، كاتب كبير ، وفي الطبقة الاولى من ادباء العالم المعاصر فضلا عما تكونه في ايطالية وريثة دانتي .

وليس الشأن خفيا ، والعالم كله يعرف ذلك من شرق الشرق الى غرب الغرب ، فانت البرتو مورافيا ، او مورافيا وحدها ، او البرتو وحدها ... مترجم مقروء .. مؤثر ..

ولايأتي ذلك اعتباطا ، في عصره على اقل تقدير ، اما في العصور المقبلة ، بعد نحو من الفي سنة ، او كالمسافة التي بينك اليوم وبين دانتي امس .. فذلك متروك للزمن ، وما نحن والمستقبل منه في شيء ،

فقد يكون اهل المستقبل اوسع افقا منا ، واكثر عقلا ، واعرف بما لم نعرفه منك اليوم ، انه متروك للزمن كما قلنا ، اما اليوم فأنت علم ، ولاشك في ذلك ، واخترت «الجنس» مدارا لعلميتك ولا اعتراض على ذلك والمبدع يميل الى الجهة التي هي له ويحفر في الارض التي يملكها ويشرب من النبع الذي يستعذبه . وللناس ان يقولوا في ذلك مايقولون ، واني لاراهم معك ايجابا وتفسيرا ، وقد يرجع ذلك الى قناعة منهم ، وقد يرجع الى انهم استطابوا الجنس ولايهمهم بعد ذلك صدق التفسير وكذبه ، مصدره ومرجعه ، انت ام النقاد انت ام القراء ، ايطالية ام اليابان ؟

- ترى لم ذلك الاختيار الصعب - السهل ؟

- يقول قائل انك في ايطالية ، والجنس فيها ليس سرا كما هو في غيرها من جهات متخلفة ، وشعوب في العالم الثالث ، انه فيها مثل اي شيء وللكاتب ان يتناوله كما يتناول غيره الماء او الهواء .

وفي هذا القول مبالغة كما تعلم ويعلمون - واشك في ان ابناء روما يقرأون البرتو مورافيا لأنه يرى الجنس كالماء والهواء او لأنه يتخذه سلما الى النقد الاجتماعي وللاصلاح الطبقي ، اشك ، لانهم لايختلفون كثيرا في الامر عن جهات متخلفة وشعوب من العالم الثالث . قد يختلفون ، ولكنهم كما قلت - لايختلفون كثيرا ، ومثلهم غيرهم من العالم الاول والعالم الثاني .

ومن ثم اشك في ان النجاح الذي لقيه - ويلقاه - مورافيا يكمن في فنه ، وان اهل روما يقتنون ويقرأون ويعجبون ويتحدثون حبا بالفن وتقديرا للفن . اشك وفي الشك كثير من اليقين .

واذا كان غيرك قد اختار الماء ، فلابد من ان يكون للاختيار سبب ، وهذا السبب قد يكمن في وفرة الماء لديه ، وقد يكمن في الظمأ القاتل فمن ايهما انت ؟ قد تكون من هذا وقد تكون من ذاك ، ولكن ايا من

الحالين قد يبلغ درجة «العقدة» لدى الطوفان او عند الجفاف .. ولاتعدم في الناس ـ سيدي الكاتب الكبير ـ من يصر على العقدة . ويصر ـ او يكاد ـ على حرمان ما ، ولو في وقت ما . لسبب ما . والمثل العربي يقول «لامر ما جدع قصير انفه» والفيزياء تقول «لكل حادث مسبب» والمسألة متروكة لك ولبساط البحث ، انما هي تقال فيما يقال وتقبل فيما يقبل .

وتبقى مسألتنا نحن ، الذين لسنا انت ، اقصد ـ على وجه الاختصار والدقة ـ المترجمين العرب والناشرين العرب والقراء العرب .. اتدري ، سيدي الكاتب الكبير ، واني لجاد في الخطاب ، ان العرب اكتشفوك مؤخراً .. ولنذكر «السأم» التي صدرت عن دار الاداب ـ وهي دار محترمة ـ ودلفت الرواية في هدوء يحدوه نقد صادق او غير صادق ، مأجور او غير مأجور في تكريم «الفلسفة» التي تقوم عليها وتمجيد الغاية التي ترمي اليها .

ويدب النشاط في الهدوء ، لالصدق الدعوة او كذبها ، ولا لفهم الفلسفة او جهلها . فلقد جاء النشاط من القارىء الواحد الذي صار اثنين ومن الاثنين اللذين صارا ثلاثة .. والوتر السائد في الحديث هو الجنس الجنس كما هو ، وليس كما يمكن ان يكون اصلاحا او فلسفة .. او علما . ويعاد طبع الكتاب ويسرق الطبع . وتلحقه ترجمة لكتاب اخر عنوانه «هو وهي» وسمعت بأم ، اذني تفسيرا لايسرك ـ او يسرك ـ للضميرين الغائبين .

وهكذا خرج الامر من يدك ..

وصرت مطلوبا ، وصرت بضاعة رابحة وسوقا رائجة ..

ولايخفى ذلك على دور النشر التجارية ، وينهض التزوير مرة بالترجمة السريعة ومرة بتغيير العنوان ، ومرة بتغيير صورة الغلاف .. ومرات بما هي ـ اي الدور التجارية ، وتكاد تكون كلها تجارية ـ اعرف

به منك ومني .

ايسرك هذا ؟

اجل ، سيدي قد تكون مصلحا اجتماعيا ـ ومثلك اهل لذلك ، وقد تكون حسن النية سليم الطوية لايعرف التعقيد الى نفسك سبيلا ، ولم يجد الحرمان الى ذاتك طريقا .. قد ، فما شيء من ذاك بمستحيل ، وما جئتك بكلمتي هذه للمحاكمة او الدراسة او النقد .

ـ تقول لم جئت اذا ؟ ولم العناء والوعثاء ؟

ـ فأقول : لقد راجت كتبك لدينا ، واقبل عليها القراء بشكل لافت للنظر ، وتفننت دور النشر في الاعلان عنها يسابق القديم منها الجديد ويلحق فيها العالم بالجاهل .

وقد يسرك هذا الخبر اذا وصل اليك ، بعد ان وصلت اليك اخبار سارة مناظرة من الهند ومن امريكا ، وربما من الاتحاد السوفيتي .

ولك ان ترتاح

ولي ان اخبرك انه لم يدخل «الفن» اساسا في هذا النجاح ، اقصد إن «التهافت» على المصباح لم يكن «لنوره» وانما لظلامه ، اقصد ماصار معلوما وخرج النص عليه منطوق البلاغة في مقتضى الحال .

آمل ان يأخذ النقاد والدارسون هذه الناحية بنظر الاعتبار لدى النقد والدراسة واذا كان لابد من فن فانه الفن في الجنس ، واذا كان لابد من الدراسة فانها الاجتماعية ـ السيكولوجية ـ الفرويدية ، اذا ، والا .

الجمهورية ١٩٨٥/٨/٢٠

مقال في الشعر لاديث سيتول



أديث سيتول شاعرة انكليزية (١٨٨٧ ـ ١٩٦٤) نفذ اسمها الى أدبنا الحديث بسبب من أعجاب بدر شاكر السياب بشعرها وتأثره اثرها . يقال في تعريفها انها «شاعرة ناقدة» وانك لواجد الدليل القريب على ذلك في مقال كتبته بعنوان «رؤيا شاعر» نقله الى العربية الدكتور محمد فياض فيما نقل من مقالات لكتاب مختلفين ، جمعهم كتاب ترجمه باسم «مغامرات العقل» (بيروت ، منشورات مكتبة منيمنة ١٩٦٢) وكان يمكن ان يكون عنوان المقال : رؤيا شاعرة ، هو مقال نقرؤه كلنا ، ويقف عنده الشعراء منا وقفة خاصة ، وما أحسب شعراءنا اكثر تجديدا من اديث سيتول في عصرها ، او اكثر جرأة .. مع شك يقيني في قدرتهم على قول الحقيقة ومعرفتهم حقيقة انفسهم ، ومع ارتياب صادق في تقديرهم مايجب ان يكون بين الشاعر والقارىء .

ان القارىء هو الانسانية كلها ، ولايمكن لشاعر شاعر الايحسب حساب الانسانية كلها لدى اعرابه عن خلجات ذاته ولدن مخاطبة الاخرين .. قالت اديث سيتول : «ان الشاعر اخ يتحدث الى اخيه عن «لحظة حياتهم الاخرى (...) ومن طبيعة الشاعر ان يسند خطى اخيه المرتعشة (...) ان الحب المكنون في روح الشاعر يسم الانسانية جمعاء دون تفرقة بميسم الجلال» .

هذا هو الشاعر الحق ، واذا تهيأ لامرىء ان يكون شاعرا حقا ، نفذ

الى قلوب القراء فجرى الحب متبادلا بين طرفين متكاملين . انك حين تقرأ شعر بدر شاكر السياب تحس بهذه القرابة التي تبلغ درجة الالفة والانسجام ، فهو اخوك النائب عنك القريب منك ، المحب لك ، الحاني عليك دون احتيال او اختيال ، ودون شعوذة او تعال . ولاغرو ان اعجب السياب بسيتول وتأثر ، لان الجوهر واحد في الشاعرية . اما اولئك الذين لايحسبون حساب القارىء فهم ـ منذ البدء ـ بعيدون عن الشعر والشاعرية لاتنفعهم مغالطة ولايجديهم غرور . انهم حثالة تبحث لها عن مكان ، حشرات ، طفيليات ، انهم ـ ولاموجب لهذه الصفات كلها بعد ان لم يكونوا من الشعر في شيء وانما لجأ القلم الى الصفات لسوء الحال وفساد الامر وامتلاء الجو بثاني اوكسيد الكاربون فعم البلاء وفسد الهواء . وهذا غاية في دواعي الاسف ، ونهاية في معرفة السبب ، واذا لم تجر «ساقية» بين الشاعر والقارىء لم يجر حب ، والعكس صحيح كذلك فلو كان في قلب الشاعر حب لانساب طواعية الى قلب اخيه القارىء والا فالسدود والقيود والقطيعة والعزلة ، والكره والعداء ـ وتلك مصيبة قلما تنبهنا الى وجودها ونظرنا في خطرها وكان ماعرف بالغموض من اسبابها .

وأديث سيتول شاعرة مجددة ، غامضة بعض (الغموض) فيما توصف به وفيما تعرف هي نفسها به . ولكن الفرق كبير بين غموض واضح او موج وغموض غامض او ميت وحسب شعراؤنا الغموض سمة اساسا في التجديد فصالوا اذا خلوا بالارض وجالوا افتعالا وتعمية وادعاء وجهالة واصطيادا ضحلا في ماء عكر .

وهذا الغموض الكاذب التافه عامل في القطيعة بين شعرائنا وقرائنا وماذا عسى القراء ان يجدوا عند الشعراء ، انهم لايجدون انفسهم ولايجدون انفس الشعراء فما الذي يغريهم بالاعجاب فضلا عن التواصل فضلا عن الحب ، ويسمي الشعراء كلامهم شعرا (وكان ذلك

الشعر مملا الى حد القرف » وهو قصور فيهم عن «الهام لم يستطع الشاعر منهم - ايجاد مخرج له من منطقة اللاوعي حيث يولد كل شعر» انه «الغموض الذي ينشأ عن الفراغ » مفتعل لان صاحبه اصغر من ان يتمتع بغموض حقيقي «ينشأ عن التعقيد العظيم وعن تجميع القوى في الحياة» . واقصر من ان يقدر عن استعمال (...) الاختلاط في الاحساس حيث (اعضاء الحس في الانسان تتبادل التأثير في احساساتها» كما هو القانون الاساس في «الرمزية» والمذهب الذي اذاعه بودلير في قصيدته «التجاوب» او «التراسل» واديث سيتول رمزية ، مؤمنة بقانون التبادل بين الحواس ، وهي بودليرية ايضا . ولكنها - وهذا عجب - لم تشر الى بودلير في مقالها ولم تنص على «الرمزية» . وليكن لان المهم تفريقها بين غموض وغموض «وتحتاج القطع الشعرية الى ابعد ما يمكن من التوضيح ومع ذلك ، وحتى عندما تبدو لنا هذه القطع الشعرية غريبة في اول الامر ، فانها في النهاية تبعث فينا الدفء بجمالها» . فهل مر شعراؤنا بشيء من هذه المعاني ؟ اشك واشك لاننا لم نر لديهم غموضا واضحا ، ولم نحس يوما لديهم بدفء او جمال .

ونعود مرة اخرى الى السياب ، والى سر وصله بسيتول .. من غموض ليس إغماضا ، ودفء يذيع جمالا .. وامر اخر ، هو الايمان باللغة ، وتقول سيتول : «لابد للشعر ان يكون عميق الجذور في اللغة ، شديد الارتباط بها (...) لان الشاعر ان لم ينتق كلماته بدقة للتعبير عن معناه فانه لايعتبر شاعرا وصغار الشعراء هم لايحسنون استعمال التركيز» ولا «حياة» في شعر هؤلاء الصغار ويأتي شعرهم الحر «نثرا سيئا جرى تقسيمه الى أطوال غير متناسبة بمقص اعمى» معتقدين أن «الشعر الحر» «أمر سهل» «والواقع انه شديد الصعوبة» يقتضي «لحنا ونغما كأي شعر مقفى» .

لم يعد هذا الذي قالته اديث سيتول سرا ، واننا نكاد نكرره كل يوم ، ولايماري فيه الا جاهل او قاصر او مشعوذ . ولكن قولا تقوله شاعرة مجددة غامضة ، رمزية ، يمكن ان يكون ذا دلالة اوسع وعلامة اسطع ويحسن ان يؤدي الى حجة اقوى وثمرة اينع .

وتقول ماالذي اثار الشاعرة المجددة الغامضة الرمزية الى تحرير مقالها ؟ وجوابك في سؤالك او في عبارات وردت على قلمها . انه هذا الضيق الخانق بدعاة التجديد وليس التجديد كما يحسبون ، وهو الضيق الشديد بمدعي الشعر وما هم من الشعر في شيء ، وكأن الحال في انكلترة هي الحال في العراق ، جوهرها واحد في الاسباب والنتائج بسبب من طبيعة رابطة الفن بين العالم ورابطة الشعر الحق كذلك بين المبدع والمتلقي .

ثم هذه الدعوة التي ترتفع لدينا فيما يبدو جليا من ابتعاد الشعراء عن الجمهور ، ومن انصراف الجمهور عن الشعراء . والحال واقعة فعلا لا افتعالا ، وهي دعوة لا دعوى . والاختلاف في التعليل ، والشعراء لدينا يتهمون القراء ، وكان عليهم ان يتهموا انفسهم اولا ، وان ينكفئوا او ينكفشوا . تقول اديث سيتول : «يكثر اللغط في انجلترا ، ويكتب الكثير حول البون الشاسع الذي يفصل بين الشعراء وجمهور القراء في عصرنا هذا ، وكأن كليهما في معزل عن الاخر ، ولعل معظم هذا الهراء صادر عن الشعراء الهزيلين الذين لم ينالوا من التصفيق ما كانوا يتطلعون اليه مما غاظهم ودفع بهم الى محاولة تسخير النقاد ـ ذلك النوع الرديء من النقاد ـ لتحطيم انتاج اولئك الذين كانوا اوفر حظا منهم في النجاح من اخوانهم الشعراء» .

اجل ياسيدتي ، انها مسألة الهزال والرداءة .. واذا كنتم انتم في انكلترة على ما ورد في المقال من سوء فماذا نقول نحن وقد عمنا البلاء بالغامض والواضح ، والحر والعمودي .. قارئنا يبحث عن شاعره فلا

يجده . وعن شعره فيعثر بالهراء ، لقد حبس عنا المطر واجدبت الارض ولم يبق بأيدينا الادعاء الاستسقاء لو أجدى !! و «تعالي وجلِّبي جروحي يابطرانة» !

الجمهورية - ١٩٨٥/٩/٣



سلامة موسى:



كنت في «المتوسطة» ، وربما في الصف الثالث على وجه من التحديد ، حين عرفت سلامة موسى ، اقصد كتابا ، وكتباً ، له ، ويرجع اكبر الظن الى المكتبة المدرسية لدن وقوعي على كتاب أو كتب له ، أتراني في تلك السن «اشتريت» بعضاً من كتبه ؟ قد ، ولكني اشك .. وليس الامر مهماً إزاء الوقوع الفعلي للقراءة ، واذكر من تلك الكتب ـ اذا لم تخني الذاكرة ـ «اليوم والغد» و «العقل الباطن» و «مختارات سلامة موسى» و «في الحياة والادب» ... و «أحلام الفلاسفة» ..

لقد عرفت اول ماعرفت من نظرية التطور لديه ، وصدقتها ، وصدقت تطبيقاتها ـ او تطبيقاته ـ على الحياة الاجتماعية والفكرية ، وعرفت اول ماعرفت «العقل الباطن» واسرار النفس وفرويد ويونك وأدلر ، والاحلام ، والغريزة الجنسية ، وعقدة النقص ، والتسامي .. واشياء اخرى .. كنت فرحاً باكتشافي إياها .. وعرفت اول ماعرفت الحماسة الى الحضارة الغربية والحماسة الى العلم والصناعة .. وسائل من التحرر العقلي .. الذي يكاد يكون مطلقا إن لم يكنه .

وكان كتاب «في الحياة والأدب» أخطر ما أثر في تفكيري ، وغير ـ اوكاد ـ من مسيرتي الادبية .. مع بقائها مسيرة ادبية ..

ولاأشك لحظة في اني قرأت هذا الكتاب خاصة في الصف الثالث المتوسط .. ولاأذكره هنا لأدل على أني كنت مند تلك السن ـ وقبلها ـ

قارئاً فهذا ليس بالامر ، وانما الامر امر شاب ، او صبي ، يحب الادب حباً جماً ، وقد عرفه بذلك مدرسوه وزملاؤه قبل ان يعرفه في نفسه ، كان يقرأ ويقرأ ، ويحفظ الشعر ويحفظ ويحسن الاستشهاد والتفسير .. و «الانشاء» .. وكانت الدلائل كلها تشير الى ان هذا «المرء» ـ الفتى سينجح ، وسيدخل ـ حتماً ودون نقاش ـ الصف الرابع الادبي ، والا فمن الذي يدخل الفرع الادبي ؟ ولم كان فرع للادب وفرع للعلم ؟

وانتهت السنة ، ونجح ولكنه تقدم الى الفرع العلمي . فكان عجب وتعجب ، وسؤال وتساؤل .. وكانت اجوبة كثيرة قد تكون صحيحة كلها .. ولكن جواباً واحداً هو الصحيح جداً لم يكن بينها ، ولم يسمعه سامع .

قلنا إن صاحبنا قرأ وهو في «الثالث» سلامة موسى ، وقلنا إنه قرأ ـ فيما قرأ ـ لسلامة موسى كتاب «في الحياة والأدب» ولم ننص على الثغرة التي احدثها هذا الكتاب في «المخ» الطري كان المخ ادبياً فأحاله الكتاب علمياً .. فقد اقنعه هذا الكتاب ان الأدب خيال ووهم ، وأنه سبب تأخرنا ، وأنه الفاظ منمقة وأنه .. وأنه .. ومابمثل هذا الادب نهضت اوربة ، ولم تنهض اوربة إلا بالعلم ، وبالصناعة خصوصاً ، فمن طلب الخير لنفسه ولبلاده فعليه بالعلم .. بالصناعة .. وإلا بقينا في تأخر ، وبقينا عالة على الغرب حين لاينفعنا أدبنا فتيلا .

ويمضي الكاتب الكبير ، المفكر ، في هذه الطريق وعلى ما هو اشد واعنف ، مكرراً رأيه الواحد بصور مختلفة .. لايقل احدها حماسة عن غيره ، ولايدع منفذاً لشك القارىء في اخلاص الكاتب وصحة رأيه وسلامة قصده .. وعلو منزلته وعظمة مكانته ـ انه سلامة موسى وكفى .

وهكذا كان السر الكامن في اختيار صاحبنا الفرع العلمي سلامة موسى وكتابه «في الحياة والادب» .

ولم ينقطع يوماً عن سلامة موسى .. ولكنه ـ والحق يقال ـ لم ينقطع يوماً عن أدباء مصر الكبار طه حسين والزيات وزكي مبارك والمازني .. في كتبهم وفي مجلة «الرسالة» .. ومعهم غيرهم من المهجر خاصة .

ويتخرج في الثانوية .. وسلامة موسى يتألق في نفسه وذهنه .. ويلتقي في ذلك مع صديق صار قديماً له واذا هو مثله في سلامة موسى وزيادة .. واذا بهما يمضيان الساعات والساعات وربما تقدم بهما الليل وهم في حديث سلامة موسى ، وعلم سلامة موسى ، ورأي سلامة موسى لقد كان ثالثهما ، وقاسمهما المشترك ، ونبض حياتهما .

كانا فيه عجبا من العجب ، ولكن الثاني ابعد في الانسجام وابعد في ربط القريب بالبعيد ، والوسيلة بالغاية ، واليوم بالغد ، كان ـ مثلا ـ لايتثبط حين تدلهم الحياة ، ولاييأس ، وانه لقوى الاعصاب ، كثير النظريات ، تحسبه خيالياً وما هو بالخيالي ...

ـ كيف ولماذا ؟

ـ كان يقول ـ فيما يقول ـ إنه إن ضامه ضيم يهاجر الى مصر (مفلساً ـ وليكن) ويذهب تواً الى سلامة موسى ويزوجه سلامة موسى إحدى بناته .

أما صاحبنا الاول فقد بقي عند حدود القراءة والفهم والتأثر والشعور الاكيد بتنامي الشخصية لدى قراءة سلامة موسى .. وقد نفعته هذه القراءة ولاشك في مواطن ، منها هذا الموطن الحيوي وقد دخل دار المعلمين العالية فباشر درس علم النفس العام ثم درس علم نفس الطفل .. وكان له من «العقل الباطن» رصيد اي رصيد يكفيه منه ما اداه له في درس استاذ عالم مصري (هو الدكتور راجح) من اولية جعلت هذا الرجل يمتدحه ، وهو الرجل الذي لم يمتدح أحداً ..

ونسينا ان نذكر ان تأثير سلامة موسى في الحط من الادب والرفع المطلق من العلم قد خف .. وأن صاحبنا اختار الفرع الادبي حين دخل

دار المعلمين العالية ـ وبقيت المسألة كما يجب ان تكون مسألة استفادة وفكر وعلم ومناقشة بل ان سلامة موسى نفسه كان أديبا بوجه من الوجوه ، وانه لم يحارب الادب محاربة مطلقة وانما دعا الى الادب للحياة ، الادب الحي ، المستنهض ، المصلح ، الثائر .. وشرع صاحبنا يتوثق من هذه الطريق بحكم حال البلاد واوضاع الامة . سواء لديه أكان سلامة موسى داعية اليها ام لم يكن ، بشرط ان يتم ذلك بالهدوء وبالتعقل من غير مبالغة في حصر الادب بالحياة بالمفهوم الضيق ، ومن غير مبالغة في الاستهانة بعناصر الخيال والعاطفة والتجربة الذاتية والغزل .. في الادب .. بل إنه حرر مقالة لم يكتب لها النشر يناقش فيها «استاذه» في مسألة الاسلوب ، ويأخذ عليه اصراره على ان يكون «تلغرافياً» فاذا كان كذلك فقد الجمال والمتعة مع فقده الفائدة والتأثير ـ ومازال في الدنيا كلها أدباء ، ومازالت فيها اساليب ادبية .

ان الذي بدأ ينمو من سلامة موسى . ويزداد نموا .. هو الجانب الاصلاحي ، ولو سميته الثوري لما ابعدت . لما حولك من فساد وفوضى وسوء توزيع للثروة وفساد استثمار وفساد استعمار .. والرجل لايني يبين المعايب وينقل الافكار من العالم ، ويستنهض الهمم ويبعث على الفكر والتقدم والتحرر عن كل ما هو بال او يؤدي الى العداء بين بني الانسان .. وشمل اثره في هذا كثيرين ، وصارت كتبه من اروج الكتب وتنبهت السلطة الى ذلك وشرعت تغض من شأنه وتحذر من رأيه .. لما ترى في البلاد من وعي ولما تلمس من شرر وتنتظر من حساب .

ووصل الى المكتبات ، والى مكتبات الحلة خصوصاً حيث كنت في عام ١٩٤٦ كراس من تأليف سلامة ، نسيت عنوانه ومازلت اذكر فحواه : الحرية ، فأقبل عليه الناس اي إقبال ، ووصلت وجبة ثانية وثالثة .. و «الشاطر» «الشاطر» الذي يحجز نسخته ..

وزاد من مكانته عند الناس .. من أهل الفكر والوطنية والتقدم ، غير

مايثيره فيهم من افكار ويزرعه من همم ، مايرد من اخبار التضييق عليه في مصر ، واخبار الاضطهاد الذي يتعرض له من امثاله من الوطنيين والوفديين خاصة والعهد هناك - في مصر - عهد النقراشي في تطرفه بملكيته ، وانكليزيته .. وقد بلغ السخط عليه في العراق اعلاه .

انتهى صاحبنا من قراءة الكراسة للمرة الثانية . وتهيأت له البعثة الى مصر .. والبعثة الى مصر تعني لديه - فيما تعني - الفوز بزيارة لسلامة موسى .

وبلغ القاهرة .. والحال متوترة .. والنقراشي وفاروق في اعلى مراحل الشدة. بلغ وتهيأ له أن يقرأ كتاب «تربية سلامة موسى» في بلد سلامة موسى واكتشف الطلبة المصريون الكتاب

ولو قلت لك إنهم - في جملتهم - يجهلون رجلا ، كاتباً ، اسمه سلامة موسى لما صدقتني ، ولو قلت لك إنني اتحدث عن طلبة قسم اللغة العربية بكلية الآداب لأوغلت في تكذيبي . ولو قلت لك ان الذي عرفه منهم عرفه على انه سلامة حجازي لتوقفت عن القراءة ، ولكن الذي يقال هو ان الطلبة - والطالبات - الذين استعاروا الكتاب اعجبوا به وارتاحوا لقراءته .

وتبقى الزيارة التي لابد منها ومهما يكلف الامر .. وهاأنذا في «حارة» شعبية أرقى اربعاً او ثلاث عتبات نحو باب قديم متين ، وتمتد اليد الى الجرس ، فيفتح الباب وتطل امرأة - لاشك في انها ام البيت - ووراءها فتاة - لاشك في انها البنت التي كان يحلم بها صديقي الذي كان صديقي - قالت السيدة المحترمة : يمكنك الالتقاء به في جمعية الشبان المسيحيين .

فشكرتها وودعتها ولكن العجب من هذا الكاتب الذي علمنا شيئاً .

ويلتقي في المكان الذي لايكون فيه ! وتذكرت ما كان من اسماء اولاده .
خوفو وخفرع (وربما ميكرع) .. وماروي في غير مصلحته من اشياء اخرى تضعه في موضع المتناقض .

لاادري كيف بلغت بيته .. ولا أتذكر كيف وصلت الى مقر الجمعية ، ورأيته ، وجلست احدثه ومعي حماستي التي صحبتني من عراق ١٩٤٧ ، ومن كتبه .. وافكاره .. واندفع .. ولكنه ليس معي .. وحين ذكرت له اخباراً عن مكانته عند القارىء العراقي ، وذيوع كراسه عن «الحرية» بدا ـ على غير افتعال ـ وكأنه لايعرف شيئاً عن هذه المكانة وسأل : هل يجيز نوري السعيد بيع كتابي .

ولم يطل اللقاء .. لأن اهراماً شاهقة قد تهاوت من مخيلتي ، ولم يكن سلامة موسى الذي إزائي سلامة موسى الذي ملأ ذهني وافترقنا على غير سعي الى اللقاء ـ وانتهى في النفس شيء اسمه سلامة موسى ، فقد مات فيها سنة ١٩٤٨ (وليس ١٩٥٨ حين مات فعلا عن إحدى وسبعين سنة) .

هكذا كان ـ وعفواً عما كان ، وما باليد حيلة ! و «لعل لها عذراً وانت تلوم» . لعل ؟ !

الجمهورية ـ ١٩٨٥/١٠/٢٥
اختار لها المحرر لدى النشر
عنوان : حدود القراءة .. وآفاق المعرفة

الغربيون يعبثون بالمصطلحات أيضا !



ايضاً . يعني ، مثلنا ، نحن نعبث بالمصطلحات واننا لنشكو من ذلك ونستعيبه مطالبين بالدقة والضبط وإدراك المقصود فيما حدده المصطلح وحدد له المصطلح حتىٰ استقر في الاذهان علىٰ دلالة معينة لايختلف فيها اثنان : ومن هنا فضله وقوته وقيمته . ولابد من مصطلح وإلا عمت الفوضىٰ واضطربت المقاييس وتصرف الناس بالكلمات على هواهم يحرفونها حيث يريدون ، فهي هي مرة في الايجاب وهي هي مرة في السلب ، فالأبيض ابيض وهو كذلك ولانقاش ولاينتطح عنزان ، ولكنه اسود في مقام آخر وما على الآخرين الا ان يصدقوا ويخضعوا ويذعنوا ـ وهذا ضيم في العقل الانساني وجور وأفن .

وأكثر مانعبث بالمصطلحات الغربية نتلقفها ركضا ونستعملها تنطعا ونحشرها جهلاً .. حتى لايعود القارىء ـ طالب الحقيقة ـ ان يتبين طريقه اذ يراها على لسان زيد غيرها على لسان عمرو ، غيرها على قلم القصاص ، غيرها في ريشة الشاعر .. ومسألة المذاهب الأدبية اشهر مايذكر في هذا الباب ، ويبقي المجال مفتوحا منذ جاءت الوجودية ، وجاء القرف ولاشك بعد ذلك عن الرواية الجديدة .. خصوصاً اذا وقعت على ضمير خراب وفي بؤرة ادعاء رخيص ومستنقع جاهل يرى لنفسه العلم الذي مابعده علم لأنه لايمتلك منه ذرة من ذرة !

ايضاً يعني نحن .. وآفتنا الجهل والادعاء .. فكيف يعبث

الغربيون ؟ وبأي سبب ؟ ويكنك ان تستمر بالاسئلة وتراهم يعبثون دون ان ينتبهوا الى العبث ،ويجهلون ويرون لأنفسهم المعرفة ويخلطون على أساس من معنىٰ الابتكار في الخلط !

رأيتهم يخلطون في المذاهب ، ورأيتهم يخلطون في المصطلحات .. والاستشهادات .. ومارأيت فيهم من نبه او تنبه ، ولابأس فتلك مسألة تخصهم اما نحن فيجب ان نكون خيراً منهم ، وأدق ، وأقوىٰ شخصية ونترك ماغيرنا فيه الى مافيه غيرنا .

واذا كان من أسباب الخطل لديهم ، أقصد لدى عامة الناس منهم ، الجهل ، وضآلة الثقافة .. فاني أرىٰ في الخاصة منهم ممن يعاصرنا من كبار النقاد قصر الباع وضيق الأفق والعجز عن الجديد بمقدار مايدعون من الجديد والمعاصرة والثورة ! أجل ، مالم يكن غرض يدركونه أو لايدركونه وراء هذه الفوضىٰ التي هم فيها ويحسبونها نظاماً ، وهذا القصر الذي هم عليه ويرونه طولاً .. وهذا الابتزاز لأسس افكار الأخرين ويحسبونه منهجاً !

وإليك - وإليهم - مثلين - مثلين فقط - بعد أن نترك دعواهم في اللارواية واللاأدب ، والبنيوية (التي يسميها اخواننا في تونس ! الهيكلية) و«النص» ، وأشياء كثيرة .. اشترك في فيها نقاد امريكا مع نقاد اوربا ، وتعاون عليها علماء روسيا القيصرية مع يمينين ويساريين في القارات كلها ، وفي قارتين على وجه الخصوص لتوجيه مرئي او غير مرئي ، ولسبب قد يكون نتيجة ونتيجة قد تكون السبب .. والذي يكسب في نهاية المطاف هو الذي يصطاد في الماء العكر .

■ انهم يعرفون .. وأنت أيضاً :

انك تعرف أرسطو - وهم يعرفونه قبلك وأحسن منك ، وتعلم - وهم

يعلمون قبلك وخيراً منك - انه الف كتاباً أسمه بلغته الأغريقية Poietkos, ويلفظ بويتيكوس وسماه الرومان بلغتهم اللاتينية Poetica ونقل الاوربيون الاسم الى لغاتهم دون ان يبتعدوا عن حروفه الاساس كثيراً ، فهو بالفرنسية مثلاً La Poetique وبالانكليزية The P oetics

والكتاب معروف جيداً بمحتواه فهو بحث في أنواع الشعر من ملحمي وتراجيدي وكوميدي بعد مقدمة في تعريف الشعر .. - وعلىٰ هذه الدلالة سار في العصور رغم ماأصابه من «خمول» حينا وسوء فهم لقواعده حينا .. انما المهم ، المهم جداً : انه كتاب في دراسة الشعر ، ولك ان تقول في نقد الشعر او نظرية الشعر او في الشعر او علم الشعر او اي شيء آخر لايخرجك - ولاتخرج به - عن الجوهر الذي هو الشعر - والشعر اولاً واخيراً ، والا لسماه صاحبه - وهو صاحب المنطق كما يعرفه العرب جيداً - اسما آخر ولما جعل عماد الكتاب لفظ «الشعر» نفسه بلغته الاغريقية :Poesis (بويزس) وهي اللفظة التي احتفظت اللغات الأوربية بحروفها الأساس بدءا باللاتينية حين قالواPoesis ولعلك تعلم - وهم لايعلمون ان أبا بشر متى بن يونس نقله من السريانية الى العربية بأسم «في الشعر» وقال الفارابي «قوانين صناعة الشعر» وقال ابن سينا «في الشعر» وقال ابن رشد «تلخيص كتاب ارسطو طاليس في الشعر» .

كتاب أرسطو معروف وعنوانه موروث وتداوله على العصور مقرر واستحال مصطلحاً ، ولعل الاصطلاح كان مستقراً قبل ان يؤلف ارسطو كتابه وقبل ارسطو .

البويتيك يغني في أقل مايعني من الموضوعات «الشعر» وأقل مايعني من الأفعال تأمل الشعر الكائن ، النظر فيه ، دراسته في فحواه النظري وانواعه العلمية ، هو فن الشعر باختصار الاختصار وحين تصل

بالمؤلفات الى بوالوا (الشاعر الفرنسي في القرن السابع عشر) وقصيدته الكتاب L'Art PoetiQue «فن الشعر» تكون قد عبرت عشرات الكتب واستقبلت عشرات الكتب ولاتستعمل الـ «يوبنك» الا لدراسة الشعر .. وقد كتب لي ان اكون في فرنسا اواخر الاربيعنيات وأوائل الخمسينيات فما سمعت من أديب او استاذ . وماقرأت في كتاب او جريدة استعمالا للمصطلح في غير مكانه من صناعة الشعر ، وقد كان الفرنسيون في الأدب والفكر الأدبي حتى ذلك الحين الفرنسيين الذي لهم شخصيتهم وثقتهم بأنفسهم وعمق علمهم وبعد رأيهم ، واذا تركنا السوربون في خلافة لانسون ، ترددت على الاسماع اسماء لها وزنها العالي في فرنسا وفي العالم أجمع اندره جيد ، موريك ، اندره موروا . ساتر، مالرو ، كلودل ...الخ .

وما فيهم من عبث بالمصلح ، او قصرت باعه عن ايجاد الكلمة المناسبة للحال الجديدة اذا جدت . لقد كان القوم في أوج من الشخصية الأدبية ، ولو علموا ماسيحل بعدهم في شخصية ورثتهم من «هوان» لاحتاطوا للأمر بما يجب وعزيز جداً عليهم ان تضعف فرنسا ازاء اهواء مستوردة ،وعزيز عليهم المصالح كذلك واكثر من ذلك .

■ ابتكار أم تخريب ؟

ـ وماالذي حدث بعدهم ؟ ومنذ اواسط الخمسينات في مقدمات ماحدث ؟

ـ ان الاديب الفرنسي في «حبس» من حاله ، يريد أن يأتي بجديد مهما يكلفه الجديد ! ليكن في الجديد عبث ، وليكن من العبث الحرية في المصطلحات ابتكارا او تخريبا . ثم ليكن هذا الجديد ورد وكأنه موجه نحو التخريب ، على عقول ظلت كامنة لمدة طويلة بانتظار الفرصة

المناسبة ، عقول يرجع تكوينها الىٰ ايام تملق الأديب الروسي للسلطة القيصرية او انسجام ذلك الأديب الروسي في رأيه ومصلحته مع ذلك الحاكم الروسي ، ولا نعدم في اولئك الأدباء مخلصين ولكن الخشية من كلمة الحق التي يستغلها الباطل ، ومن الباطل الذي يعرف كيف يوجه الحق واهل الحق الى مصلحته .. وهذا وهذا هو الذي حصل .. بتعاون وتنظيم وتربص حيناً وبحسن ظن وسلامة نية وواقع حاجة حيناً .

وقد ظل هذا الفكر غير الثوري والقابل للاستغلال الاستعماري .. كامناً حيث انتشر أولئك الأدباء مابين امريكا وأوربا . وحيث وجدوا الملاجىء ، وحيث ادخرتهم جهات معينة للوقت المناسب .. ـ موضوع يطول ، أسف اذ لم اجد من يدرسه او يتنبه وينبه اليه ، ولا استبعد ان تصحو فرنسا من اثر الضربة فتضمد جراحها ، وأحسبها شرعت تستيقظ ..

والا فقد شرع الفكر اللاثوري يسود ويجد الأرض الخصبة في كل مكان ويجد السند من الحاكمين والدفع من المخابرات والغفلة من المتسلقين . اما القاسم المشترك في ذلك فهو ضعف الشخصية الأدبية في العالم كله للفكر الأدبي ويدخل ـ علىٰ سبيل المجاز والتجاوز ـ في ذلك الفكر الأدبي في العالم العربي .

وتحدث الضجة الكبرىٰ في فرنسا اذ يؤلف الاستاذ بيكار ـ وهو وريث التقليد السوربوني على مدىٰ أجيال ـ عن «راسين» فيتصدىٰ له بلهجة الساخر المبدع المجدد من يرىٰ في پيكار قديماً ، ويرىٰ في نفسه الجديد .. والنقد الجديد وكأنه لابد من هذا المصطلح لتحدث الثورة ـ وإلا فليس الجديد جديداً بمعنىٰ الكلمة . وانما هو تطرف في أمر معروف ، وتبن حد «الصفر» في أمر كان يؤخذ مع غيره بنظر الاعتبار .

لقد كان «النقد الجديد» في الجو ، ومعداته معدة ، ولم يتوان الاستاذ بيكار من اعلان غضبته فيرسل شواظه في كتابه الهجائي «نقد

جديد أم دجل» ولكن الميدان كان قد هيىء ـ او تهيأ ـ لغيره . للموجة التي اختارت لشهرتها اسم «النقد الجديد» وها هوذا ـ احد المثقفين الاذكياء الذي ظل مقيماً طويلاً في فرنسا يدرس ويتقدم دون ان يسمع به احد ـ يتقدم تدريجاً ثم يصدر «لماذا النقد الجديد» اما اسمه ـ ولا بد من ذكره لدلالته فيما نحن فيه ـ فهو سرج دوبروفسكي .. ولا نطيل . وقد اطلنا . وانما هذه هي البداءة التي تذكر ومن ثم دخلت المصطلحات اشكالاً وأمتلأت الساحة بالاسكي والأوف .. وتنقل جاكوبسون من موسكو الىٰ براغ الىٰ اسكندنافيا ، الى الولايات المتحدة الاميريكية .. والآخرون من ابناء البلاد يسمعون ويقرأون ويتأثرون و«يثورون» .. وما نحن من هذا بصدد .. وانما هي لمحة تشير الى الجو المضطرب الذي تهيأ جيداً للعبث بالمصطلحات .. وفي مقدمتها وعلى رأسها البويتيك الذي رأيناه مع ارسطو ـ وربما قبله حتىٰ اواسط الخمسينيات وربما الستينيات (في فرنسا) لايخرج عن اسمه في الوقوف عند الشعر دراسة او نقداً او بحثا فهو الشعر او صناعة الشعر او فن الشعر او علم الشعر ـ كما قالوا علم المنطق .

■ والأمر يختلف مع القادم :

اما الآن ، ومع النقد الجديد القادم من وراء موسكو القـيصرية وبطرسبورج وبراغ .. ومع البنيوية .. فالأمر يختلف لاننا في «ثورة» «وتجديد» وينسىٰ الناس في هذه الحال كما ينسىٰ الثائرون ـ أو الثوار ـ انفسهم ماعليهم من إيجاد المصطلح المناسب لثورتهم ، والمصطلحات المناسبة لمواد ثورتهم بدلاً من الجور على مصطلحات الآخرين ، وبدلاً من تخريب العمارات المشيدة وتفريغ المباني المأهولة بالسكان .. اجل .. والبويتك معروف مستقر له جلاله وميدانه ومفعوله ودلالته فاذا

كنتم ثواراً فعلا ، فاتركوه حيث هو واطلعوا على البشرية بالمصطلحات المناسبة .

هذا هو المنطق ، ولكن الذي جرىٰ خلاف المنطق مما يشكك في قصد القائمين على النقد الجديد ، والبنوية ، وما إلىٰ هذه وذاك .. ونترك الشك لأن الفوضىٰ عمت والعبث حصل وصرت وصار الناس في الشرق كما هم في الغرب ووراء البحار كما هم امام البحار في عماء من امرهم وإلا فما هذه «الرطانة» في العنوانات الطنانة ونترك - ولا بد من الترك لدىٰ الاختصار - بحث رومان جاكوبسون على جمال ايقاعه وهو : «شعر النحو ونحو الشعر» اجل لنترك ، فهل نترك كتاب باختين الذي درس فيه فن دستويفسكي ودستويفسكي روائي ، كبير ، عالمي لايعرف بغير الفن القصصي وقيمته فيه والامر معروف ويمكن ان يدرسه باحث كبير حقاً مثل باختين بعنوان .. الفن القصصي عند دستويفسكي الفن في نثر دستويفسكي .. الخ .. ولكن باحثاً كبيراً حقاً مثل باختين يجعل لكتابه عنواناً يخرب مفهوم العالم المستقر عن مدلول «البوتيك» الذي يقوم اساساً وجوهرياً ، وعلىٰ مر العصور ، علىٰ الشعر ، وهكذا يصدر كتاب باختين عن نثر دستويفسكي بعنوان «بويتك دستويفسكي» والترجمة العلمية الصحيحة للمصطلح هي «الفن الشعري عند دستويفسكي» واذا وقفت عند الترجمة العلمية الصحيحة للمصطلح فانت على ضلال من الكتاب بمقدار ماكان العنوان على ضلال من المصطلح فيا استاذنا - الاستاذ باختين - اضاق بك العلم الغزير الذي يشهد به لك العالم عن عنوان دقيق يحفظ للمصطلح كرامته وانت باحث كبير .

وإذا كنت أنت - ومن معك - تدرك الدلالة الجديدة - او اللعبة الجديدة . اما تدري باستقرار مصطلح «بويتك» في العالم .

نترك استاذنا باختين لنتوجه نحو باحث كبير آخر فعل بالفكر الأدبي الفرنسي مافعل ، هو الاستاذ تودروف : وقد ذهب ابعد من باختين فألف

«بويتك النثر» أي «علم شعر النثر» او فن شعر النثر» ! أهو الضيق باللغة ؟ أم الضيق بالعلم ؟ أم الضيق بالغرض ؟! اما حسبت حساب البلبلة عند القارىء الفرنسي قبل غيره ، اذا لم نذكر لك القارىء العربي عموماً وفي تونس والملكة المغربية خصوصاً ؟ !

وتمضي استاذ تزفتان تودروف بعيداً ، وهذا طبيعي فالأمر اذا عرف اوله لايعرف آخره ، ولابد من الانزلاق حتىٰ النهاية ، والا فكيف يكون التجديد تجديداً ! والعجيب اننا وجدنا مع كثير من الحركات التجديدية اسماءها ـ واسماءها المناسبة لها مثل الرومانتيكية ، والواقعية والرمزية والطبيعية .. والسريالية ولكن «الثورة الجديدة» و«النقد الجديد» عجز عن اسم جديد ومصطلح جديد ! وحين عزم الاستاذ تزفتان تودروف على خدمة المذهب الجديد والثورة الجديدة ليجمع اربعة بحوث (او اربع دراسات ، او اربع نظرات جديدة في فن القصة) كتبها : بارت كيسر وبوث وهامون لم يجد عنواناً اكثر «عبثاً» بالمصطلح من «بوتيك القصص» أي علم شعر القصص او فن شعر القصص او علم شعر الفن القصصي او فن شعر الفن القصصي PoetiQue ثم لم لم يسمه «نظرية الفن القصصي» كما يخص مضمون الدراسات الاربع في السطور التي قدم بها الكتاب ؟ لم وهو يقول في تلك السطور .

ان الدراسة الأولىٰ منها تقدم نظرة شاملة لبويتك القصص ولم يرد البوتيك في عنوان تلك المقاله ؟ لم يرد في عنوان المقاله ولكنه زجه زجاً !! لا ، لاياسيداتي سادتي ويااساتذتنا .. لاتشجعونا علىٰ العبث و«الصانع استاد ونص» .. وجدوا لثورتكم ـ ان كانت ثورة ـ مصطلحاتها ودعوا مالأرسطو لأرسطو وما لأثينة لاثينة ـ

والكلام معكم يطول .. وينسينا المثل الثاني او انه لايدع له مكاناً من الورق اللازم .. انه مصطلح البلاغة او علم البلاغة La RhetoriQue وأمرها وأمره معروفان على مدىٰ التأريخ حتىٰ كان التجمد والموت .. ثم

المحاولات المعاصرة لبث الروح فيها مجدداً .

وإنما الذي لايعرف ويراد هو العبث بالمصطلح واخراجه عن دلالته وحدوده وسرقة مصطلحات اخرىٰ لحسابه ، ويبدو ان «الانكليزية» سبقت في ذلك الفرنسية والروسية فلم نسمع في اللغتين عنواناً باسم «بلاغة الفن القصصي» كالذي فعله «بوث»W ' C ' Booth الذي طبع سنة ١٩٦١ بمطبعة جامعة شيكاغو : The Rhetoric of Fictoin ولن تعدم من يترجم العنوان بـ : «بلاغية القصة» كما فعل بعض اخواننا في المغرب العربي إذ ترجموا «البويتك» بالشعرية ، ومن هنا جاءت «شعرية الحكاية» و«شعرية القصة» .. وربما «شعرية الشعر» !!

■ **فماذا يعني ذلك ؟**

وبعد فشعرية القصة تعني دراسة القصة او نظرية القصة او الفن القصصي .. ولا علاقة لذلك بالشعر .. انها باختصار : نقد القصة .

وتعني ـ اخيراً ـ بلاغة ـ او بلاغية ـ القصة : دراسة القصة ، او نظرية القصة ، او الفن القصصي .. ولاعلاقة لذلك بالشعر .. انها باختصار : نقد القصة .

وقد وقف القاريء العربي (العراقي) على امثلة مترجمة او موضوعة من شعرية القصة ، فهل رأوا في ذلك فرقا عن نظرية القصة .. ونقد القصة ؟

ووقف القارىء العربي (العراقي) ـ في جريدة الثورة على ترجمة لما كتبه «بوث» في بلاغية القصة» فهل رأوا فرقاً عن نظرية القصة .. ونقد القصة ؟

الجواب كلا ثم كلا .. واذا كان من فرق فهو طبيعي ان يقع والا فما فائدة الدراسات المتوالية وماقيمة القرائح الجديدة ؟ ثم اذا كانت

المسألة مسألة الفرق والفرق جذري برأي اصحابه لدرجة الثورة ـ وهي شكلية ومن الفن للفن ، ومن الوقفة عند النص وحده ـ افما كان من واجب «الثوار» الشكلانيين ـ البنيويين ـ الشعرانيين البلاغيين ان يوجدوا مصطلحاتهم الخاصة بهم ؟ ! ام ان وراء الاكمة ماوراءها ! ومن وراءها ؟ وسواء أكان أم لم يكن ، ان العبث قد كان !! وعم الشرق والغرب ، والفرنسيين والعرب !

والامر «لامعقول» .. واذا لم يدل على غرض او عبث ، فهو دال ـ ولاشك ـ علىٰ ضعف الشخصية والقصور عن الابتكار !! وعلىٰ من يدفع الى الغرض كذلك !!

الجمهورية ـ ١/١١/١٩٨٥

ذكرى امتحان !



اجتزنامابين ١٩٤١ ـ١٩٤٥ مالايحصىٰ من الامتحانات في «دار المعلمين العالية» واذا استحال النفي المطلق لوقوع الغش (القوبية) فلا يستحيل القول بانه كان في حكم العدم ، وماكان يوماً من الايام ذا مكان ، ولسمعته من رضا ؟ يدخلها في «الشطارة» ؟ لم يكن غش ؟ ولم يكن رضا عنه ؟

وكنت خلال ثلاثة انصاف من السنين في كلية الآداب من جامعة فؤاد الاول بالقاهرة وإذا الغش قاعدة وسبب أساس للنجاح وعامل رئيس لعلو الدرجة وهو مرضي وصاحبه مرتضى .

نهاية السنة للفصل الثالث .. وتقترب ساعة الدخول الىٰ قاعة الامتحان ، والقاعة أكبر من قاعة ، لأنها سرادق كبير كبير يسع الألوف من الطلبة .. وتتقدم منك طالبة لم تكلمك في يوم من الأيام ، وتسأل ، وكأنها في موقف طبيعي جداً تقره التقاليد وتوطده التجارب .

ـ اتغشش ياسي علي ؟

ولم افهم السؤال جيداً ، ولم ادرك اقرب ابعاده ، ولكني اجبت بالنفي ، ورحت اشرح الحال لصديق عراقي اسبق مني عهداً بالقاهرة واكثر علماً بالامتحان ، فضحك غير قليل ، ثم شرح الملابسات الملابسات في نظري ، والضحك ايذاناً بما سنرىٰ .

ودخلنا السرادق .. وأخذنا مقاعدنا .. وكان في المراقبين الدكتور عبد

الرحمن بدوي الذي امطرنا من قبل ونحن في العراق بكتبه الفلسفية تاريخاً ونظريات واعلاماً .. ـ لقد كان ظاهرة في بابه غير ماصحب رسالته للدكتوراه عن «الزمان الوجودي» من ثناء وإطراء وإعلاء .

أجل ، ولم أر في حياتي كلها ، من قبل ومن بعد ، أضعف من الدكتور عبدالرحمن بدوي في قاعة الامتحان ، لقد كان نادلا بين الطلبات يشرح لهذه السؤال بما يفيد العلم إن كان سؤالها في متناول معرفته وينقل لتلك جواباً يختلسه من دفتر طالب نجيب ويسمح لثالثة بفتح حقيبتها وإخراج مايعينها على الجواب والرجل الفيلسوف فرح بمهمته ، سعيد بفعلته ، دؤوب في ذهاب وإياب وكأنه يرىٰ النظرية واقعاً ، والفلسفة تطبيقاً .

وقد ينقل لهذه ورقة من ذاك ، ويسمح لتلك بالاطلالة على ذلك ـ قلت «قد» ولا أريد بها التقليل ، لأنها ان دخلت هنا علىٰ المضارع فقد صار المضارع ماضياً .

ويسهل مهمة الاستاذ .. كما يسهل مهمة الطالبات . والطلاب كذلك طبيعة الاسئلة ، فهي تطلب اجوبة محددة بصفحات معدودة سبق للأستاذ ان املاها على طلبته وسبق لطلبة الاستاذ نسخها ، والسيد في الموقف مايعرف بمصر بالصم ـ بفتح الصاد المشددة ، وهو الدرخ (المستهجن عندنا) .

والصم مهما يكن من العمق ، ومهما يبلغ منه الطالب او الطالبة من البراعة ينقطع حبله احياناً ويستحيل على صاحبته ـ اصحابه ـ وصل المنقطع فيظل في حيرة وقلق ، وأسى وانكسار .. وهنا لابد من الاستاذ الاب الشفيق من أن يساعد ابناءه وبناته اولئك بفتح باب الحرية لهم وهؤلاء بايصال الاجوبة اليهن .

ويقترب الفصل الرابع من نهايته وتقترب رسل الامتحان.. فماذا يفعل الطلاب وماذا تفعل الطالبات ، وماذا يفعل الأساتذة .

الدكتور شوقي ضيف يطالب بثلاثة بحوث ، وقد تصرمت الايام دون الاستجابة فيزيد ويربد ويهدد ، فما العمل ، ماذا يفعل الطلاب وماذا تفعل الطالبات ؟

تتفق الكلمة على وفد من «الطالبات» يقابلن الاستاذ عارضات الحال من ضيق الوقت راجيات تخفيف الواجبات فيقابلن ، ويتحقق المطلوب .

ويطلب الدكتور عبد الهادي ابو ريدة ان يكون كتاب له عن «النظام» ضمن مادة الامتحان في الفلسفة الاسلامية ، والطلب غريب نوعاً ، وقد جاء متأخراً فعلاً ، فماذا فعل الطلاب ؟ وماذا فعلت الطالبات .

تتفق الكلمة على مقابلة الاستاذ . والمقابلة ممكنه ، والحل أمكن لأن المهم المهم لدى الاستاذ ان يطمئن الى ان طلبته اشتروا «كتابه . وليس اقناعه بذلك صعباً ، وهكذا إنتهت الأزمة المفتعلة .

وتأزف ساعة الامتحان .. وتتكرر «الاغنية» .. واذا تأزمت حال بطالبة في درس للبلاغة او التفسير او الصرف .. الخ طلبت من الاستاذ المراقب ان يدعو اليها الطالب الفلاني ليأتي من مكانه البعيد ليشرح لها سؤالا صعب عليها فهمه ، فيخف الاستاذ يستنهض الطالب المطلوب (لعلمه) ليشرح للطالبة السؤال ، والمراقب يعرف جيداً ان المسألة ليست مسألة شرح السؤال وإنما هو جواب السؤال ، الطالب يملي والطالبة تكتب وهي تبدي في التلقي والتسجيل خفة نادرة وسرعة فذة ويهم الطالب بالعودة الى مكانه فتطلب الطالبة الى المراقب ان يسمح له بالجلوس على مقعد فارغ جوارها لأنها مازالت محتاجة اليه في الاسئلة الباقية - والأيام التالية !!

وتنتهي الامتحانات ، وتظهر النتائج ونسبة النجاح ١٠٠٪ ، وطبيعي جداً ان تعد النسبة العالية للنجاح دليلاً على علم الاساتذة واجتهاد الطلبة وعلو المستوى .

واودع القاهرة الى باريس .. يحين الامتحان ، ويدخل الطلبة القاعة

ويخرجون . دون ان يمر بذهن أحد منهم الغش ، ودون ان ينتقل المراقب بين المقاعد .. ولاأريد ان انسب الشرف العالي كاملاً للطلبة . لأنهم بشر من هذا العالم .. ولكني اعزو السبب الى طبيعة الاسئلة . وأقل مايقال في طبيعتها انها فكرية ليست درخية . ولاتعتمد على (الصم) . انها تمتحن ذهن الطالب وشخصيته خلال ماكتسبه في عام مضىٰ . انها تمتحن تصرفه إزاء موقف جديد يعترضه بالمادة التي مر بها ومرت به . ويستحيل - في هذه الحال - ان يتطابق - او يتشابه - جوابان .

لأن المستحيل ان تتطابق - او تتشابه - شخصيتان كان ذلك عام ١٩٥١ ..

ترىٰ كيف آل الأمر بعدها .. في الغرب ؟ وكيف آل في الشرق ؟ كيف آل ؟ وكيف اتجه الخط البياني لديهم وكيف اتجه لدينا ؟ اسئلة اعرف اجوبة بعضها . واترك للعارفين اجوبة بعضها - ولاشك في ان مجرىٰ امتحان من الامتحانات في بلد من البلدان .. مقياس من مقاييس (....) !

الجمهوري ١٩٨٥/١١/١٥

البنيوية أعلى مراحل السوء
في ترف نظرية الفن للفن



عقيم وغير عقيم كان النقاش الطويل العريض في مسألة الفن للفن والفن للحياة .. وصار العالم معسكرين ، وساد تعصب ، واشتد خصام ، وتعالىٰ اتهام - والمسألة مجدية وغير مجدية .. وقد مضىٰ زمانها وانقضىٰ على اية حال . والسعيد من كان ميزانه عدلا ورأية عدلا وموفقه عدلا ... دون رخص في العرض أو رخص في المنطق ورخص في الذوق ..

وفي يوم ما من أعوام الستين من هذا القرن تقوم الدنيا في أوربا وتعقد ، وربما كانت باريس مركزاً اساسياً للقيام والقعود ، وتبع باريس ومثل باريس لندن وواشنطن وعواصم اخرىٰ في الغرب .. ثم في الشرق على علم وغير علم ، وغير العلم اكثر من العلم .. والغرب ادهىٰ من الشرق !!

وماذا جرىٰ ، وماذا جد ؟ اصوات ترتفع بالجديد ، وتهاجم البحث الاكاديمي السائد ، ويتحدثون عن الجديد بصوت مرتفع ، فقد خلا الجو .. فلم يعد في باريس اندره جيد أو مورياك أو موروا ، ولا أساطين السوربون .. ولابد من ثورة ، ومن تميز ومن اصطياد في الماء العكر ، فهذا ينادي برواية جديدة ليست رواية ، وذاك ينادي بطلاب جدد وكأنهم أساتذة ، وذلك يطالب بسوربون جديد ليست سوربونا ؟ ...

ماذا ؟ إنها «البنيوية» . وترتفع أسماء تتصدر وتقود ، ولم يسأل أحد أين كانت ؟ ولم اختفت كل هذه المدة وهي موجودة حية ينتهي

أكثرها «بالأوف» و«الاسكي» ..

ولم يسأل أحد عن التأريخ القريب ، فأين كانت هذه الاسماء ؟ وما خطبها ؟ لم هاجرت أو هجرت من موسكو ولنينكراد وبراغ ..؟ لقد رأت فنا للحياة يعلو ، ويسود من وراء الفن للحياة طبعاً ـ ثورة اجتماعية ورد الحقوق لطبقة ظلمها الزمن وفن يريد ان يعرف عن هذه الطبقة وينتقم لها وينصفها ...

وصحيح ان مثل هذه الدعوة في عنفها وحدَّتها يصطحب بوهن هنا وضعف هناك ... وصحيح كذلك وجوب درسها وإعلان نقصها ، ولكن هذا الصحيح شيء وما جرىٰ شيء آخر غير صحيح ، وهو ان تجرد الدعوة من فضائلها كلًا وبغير استثناء ، وتضع في قمة الفضيلة نقضاً هو عظيم كلًا وبغير استثناء . وماذا ؟ الشكلانية المطلقة ! لاعلاقة لكاتب بمجتمع أو فكر ، ولا اهتمام لناقد بظرف وعوامل خاصة ، انه لايعرف الا هذه الكلمات إزاءه وهي مجموعة من الحروف جملًا وسطوراً وفقراً .. وهي هي همة الاول والأخير ، بل ان الفكر عيب ، والاخلاق عار والنضال نقيصة .. ويجد الشكلانيون سنداً قبل الثورة من القيصر واعوانه ، ويجدون السند بعد الثورة من اعداء الشعب والحاقدين عليه .. ويمضون في دعوتهم ويكونون مدرسة لها تلاميذها ـ ولسنا بصدد ظلمهم بالاتهام حيناً وبالخطأ حيناً ، ولكنهم من الغلو بما يبعث علىٰ الريبة أو علىٰ المؤاخذة البريئة في أقل تقدير .. أو علىٰ الترفع من الوقوع في الغلو المطلق .

ويتشتتون ـ مع الأسف ـ في الاقطار ـ ويبقون حيناً دون حراك ، ثم يخلو الجو فاذا القائمة تقوم ، ماذا ؟ الجديد وما الجديد ؟ البنيوية ! وكأن البنيوية لم تكن من قبل ؟ بوجهها أو بوجوه أخرىٰ . إن هذا الذي تقولونه من مبادىء البنيوية في الوقفة عند النص وفي تحليل النص والاستمتاع بالنص ... معروف ، صحيح ، لاخلاف فيه فما الجديد ؟

التطرف المطلق ، الدعوة الحارة جداً لسيادتها مبدءاً وحيداً وفريداً من أقصىٰ باريس الىٰ اقصىٰ واشنطون مروراً بمغربنا العربي .

لا .. لاياخوان هذا غير صحيح وغير معقول .. وعلىٰ ان يكون في المسألة سراً أبعد من متناولنا .. صحيح انكم تتلقفونه حباً بالجديد إذ لم يكن لكم قديم ، وطمعاً بالشهرة اذ ليس لكم شهرة .. ولكن الضجة غير معقولة وقد تكون مفتعلة ولم لا تكون مفتعلة ـ انا لاأسمح لنفسي لتبالغ بالسوء في انسانيتكم جميعاً ، أو بسوء الظن في وطنيتكم كلكم ، فما زلت اعدد المجالات وأعدد الاسباب أن يكون وراء الأمكنة ماوراءها . ولا أريد أن اقول إن الحركة استعمارية كقولي يوم كان الانكليز في الهند والفرنسيون في الجزائر والامريكان في فيتنام .. لاليست المسألة بهذا الشكل وإن كان لها قرب من الجوهر ولا أقول إن مخابرات معينة من دولة معينة عملت وجدت ونظمت وبذلت لتقوم القائمة وتستيقظ النائمة .. لاأقول حتىٰ ولو قلت ذلك مع نفسي ولعدد محدود من الاصدقاء والطلاب ، مذ وقت مبكر .. لاأقوله ولكني رأيت المسألة غير طبيعية ولأني ابرىء كثيرين من انصارها عن العمالة .

ولكن الذي أقوله وألتزم به ولا أحيد عنه ان صحيح الحركة من الوقفة طويلاً عند النص موجود قبلها وبعدها ، في الغرب ولدىٰ العرب ، وفي فرنسا قبل البنيوية خصوصاً ، وفي غير فرنسا فيما عرف بالنقد الجديد ، وهذا هو النقد العربي القديم انظر اليه ، أخي الكريم ، تراه ـ في حدود عصره ـ بنيوياً من حيث هو وقفة عند النص ، عند اللغة ، عند المفردة ، اقرأ اي كتاب من اقدم هذه الكتب حتىٰ آخرها ، وليس صحيحاً الاصرار علىٰ كتاب واحد هو «دلائل الاعجاز» للجرجاني ـ ويعجبني ان اذكر ـ هنا تفسير الكشاف للزمخشري . إن دواعي «التفسير» تقضي ان يكون بنيوياً بمعنىٰ من المعاني .

المهم .. ان صحيح الحركة من الوقفة عند النص صحيح ، ومشتقات منها مرت ذات يوم في مدرسة براغ ومدرسة موسكو ولنينكراد نحوا ونقداً وشكلانية بأدق الأسماء .. ولكن ماالذي عدا مما بدا ؟ ثم لابأس باضافة جديدة في مثل او دراسة او رأي .. على ان يسمو ذلك عن العبث والجمود والمثلثات واللوغورتمات والرموزبين الطاء والسين .. فيموت النص على يديك لموت فيك .. زيادة على افتيات فيك على الحقيقة التي ليست فيك ..

المهم ان صحيح الحركة صحيح .. ويمكن ان نفيد من المناهج الاخرىٰ من تاريخيةٌ واجتماعية ونفسية ونفسانية .. اما ان تكون بنيويا والا .. فذلك عيب فيك أنا في غنى عن الوقوع فيه ، قد تكون سليم النية ولكنك من غير قاعدة ، قد تكون مجدداً ولكنك من غير قديم ، قد تكون طويلاً ولكنك قصير .

اجل ، انما الذي لاشك فيه ، هو ان مجموع البنيوية ـ اذا أخذتها كلا وكما آلت اليه في اللوغورتمات الاوربية وفي التبعية العربية فذلك الضلال البعيد ، ولعلك علمت من اضرار بنيويين من درجة اولىٰ ان شاموا المخرج من طريقهم المسدود في الاغارة علىٰ مناهج اخرى فهم مرة عيال علىٰ فرويد ومرة ضيوف على ماركس .. ثم ـ والشيء بالشيء يذكر اين كان دوسوسير قبل اليوم ؟ انه عالم لغوي طبع له تلاميذه محاضراته بعد وفاته ، ورأينا الاساتذة في الاربعينات والخمسينات في السوربون وغيرها يذكرونه كما يذكرون اي لغوي آخر . فللرجل جهده وهو واحد من عشرات اخرين ، اما ان يستحيل بين عشية وضحاها اماماً ، واماماً وحيداً اوحد فذلك هو الضلال البعيد .

ويتفاقم الضلال .. ويشرع اناس يعودون الىٰ وعيهم .. فاذا عيوب البنيوية ، كثيرة تستغرق مقالات وكتباً ، واذا المعقول المعقول توجيه الجهد الىٰ مابعد البنيوية ، فتلك عاصفة عبرت وشرع الناس ينفضون ،

وهذه رسالة تصل اليّ من صديق في جامعة الجزائر يقول : وهي مؤرخة في ١٤/١/١٩٨٥ .

«زارنا في المعهد الاستاذ ميشال باربو - وهو من اللسانيين والبنيويين الفرنسيين - وألقىٰ محاضرتين قيمتين عن عيوب البنيوية التي نفض يديه - كما اعلن - منها بعد ان انفق عشرين عاماً في تبنيها متابعه لاستاذه كَريماس» - انتهىٰ !! والسعيد من اتعظ بغيره .

لقد حاولت - ولا اكتمك - ان ادرس البنيوية ، ولكن كنت بين اثنتين ارىٰ في احداهما ماكنت اعرفه من قبل وهو جيد او يمكن ان ينتفع به في الدراسات اللغوية اولاً ، وفي النقد الادبي ثانياً .. ، وفي ثانيتهما ارىٰ مالالزوم اليه وهو يجهز على روح النقد ، ومن كان غنياً في نفسه كان في غنى عنه .. وفي غنىٰ حتىٰ عن مواصلة الدراسة فيما لاطائل تحته . هذا شيء ..

وشيء آخر قلته لنفسي ولأصدقاء لي وطلبة ، منذ وقت مبكر ، دون ارتباط بفلسفة من الفلسفات او صلة بنظام من الانظمة ، قلت : البنيوية - في الوجه الذي اسفرت عنه فكانت ضجة غريبة - لعبة ، اقل مايقال : إنها لعبة تشغل الناس عن جدهم ، وتعبث بقيمهم وتهيىء ماءً عكراً لمن لاسبيل إزاءه غير الاصطياد في الماء العكر .

قلت ، ومنذ وقت مبكر انها حركة استعمارية ، وكنت أعي ماأقول ، اي اني لااتهم الادباء الذين يلتزمونها بالعمالة ، فليس لدي دليل لأسمح لنفسي بذلك ، كما اني اصر علىٰ ان مخابرة خاصة لنظام خاص نظم ايقاظها وشحذ عزائم (الآوف) و(الاسكي) ، وأثار النخوات وهدف الىٰ زيادة خراب علىٰ خراب العالم الثالث ، واي خراب اعلىٰ واسمىٰ وارقىٰ من ان يعيد اليك ما رفضته امس باسم «الفن للفن» لانك تنظر فترىٰ في بلادك وامتك الفوارق الطبقية والاستعمار والاستغلال والجهل والفقر والمرض .. ولكنك الان ، وانت انت ، وامتك امتك ترىٰ من الفخر

التميز والمعاصرة ان تكون بنيوياً ، تفكر بنيويا وتأكل بنيويا ، متعالياً علىٰ الاجتماع والفلسفة والاخلاق .. والانسانية !! والابداع شعراً ونقداً !!

اجل ، لاهذا .. ولا ذاك .. وانما الذي لاشك فيه ولاريب ولا نقاش ان الحركة في جملتها ، من حيث هي حركة وضجة ومعاصرة ومبدأ ومنهج .. تخدم الاستعمار خدمة جليلة اذ تصرف - في اقل ما فيها - الاديب عن الفكر والاجتماع والنضال .. لأن معجمها يقوم - في كل مايقول - علىٰ تفكيك لغة النص ، ولك ان تحصي الحروف في القصيدة ، ولك ان تربط بين هذه المفككات .. لك كل شيء تبعد به الفكر والمجتمع والانسان لتتفرد بالشكل ؟

هذا في اقل مايقال ، والا فما المانع من ان تكون مخابرات ما من نظام ماقد فعل مافعل ، وما المانع من ان يكون في اعلام الادباء الغربيين من كانت له في تلك المخابرات يد او رجل او رأس !!! الكلام يطول يطول ، وقليل من البنيوية لابأس به ...

ولا امنع عليك الكثير - والكثير جداً - فانت حر ، والبنيوي حر جداً .. ولكني اعترف بان كلامي جاء متأخراً قليلاً - او كثيراً - عن وقته ، فعذراً لمن كان رأيه من رأيي ، وعذراً كذلك لمن لم يكن كذلك - وشافعي في التأخير القصد الىٰ تخفيف اللهجة ، وقد خفت .

الجمهورية - ١٩٨٥/١٢/٨
استثارت هذه المقالة عدة تعليقات نشر اكثرها في الجمهورية وأعادت جريدة العراق نشرالمقالة اعجاباً بها في عدد ١٩٨٥/١٢/١٦ ...

في ضيافة ١٧ عاما
من تأريخ الصحافة العراقية



(١)

كنا نقرأ الجرائد ، وننتظرها ونعجب بها علىٰ أنها جرائد . ولم نكن في جهل أو غرور ، فهي متعددة ، متنوعة . فيها غير السياسة : الاجتماع والعلم والأدب والخبر القريب والبعيد . هي ثرية علىٰ اية حال ، لاتتناسخ مع بعضها ولا تعتمد علىٰ مايصل الىٰ فمها لقمة سائغة فقط ، والذي يصل الىٰ مكتبها قليل ، اما الكثير فبالسعي والعمل والنباهة واللباقة . وهنا تشعر ـ من خلالها ـ باخلاص القائمين عليها ، وسهر المحررين فيها ، وجدهم في اصطياد ماينفع القارىء ، وجهدهم الشخصي في المتابعة والتقصي ودراسة الفعل ورد الفعل . انك لتكاد تراهم وجهاً لوجه في كدهم وكدحهم فلا تحس برما بالمهنة ولا ترىٰ شكوىٰ من عوز ، مع علمك بضآلة موردهم وضآلة مردودهم . وتحس كذلك ـ ومع ذلك ـ انهم يحبونك ويحترمونك ، فهم لا يفكرون بالمال والربح ، وانت تقدر فيهم الجهد والعرق واللغة الودية التي يتفاهمون بها معك فما نظروا يوماً اليك من عل ، وما شمخوا بأمر أو اغتروا بعلم أو استلبوا مجداً ليس لهم ولابد من تبادل الحب والاحترام في أية مهنة عموماً ، وفي الصحافة خصوصاً ، وهنا سرأيها الباحث عن الاسرار .

هذا هو الشعورفيما يحضرني اليوم ، وكأنه كان بديهة أمس ، فكرنا به وقررناه تدبيراً أم انساب احساساً غير منظور ومشاعر خفية خمرها الزمن وأنضجها العقل ووضح معالمها التأمل وفرق بين ماكان حقاً فيها

وما كان باطلاً التجريب والامتحان . والزمن مرة اخرىٰ .

يقرأ الناس علىٰ وجه الخصوص - والعموم ايضاً - الجرائد ذات النبض الوطني لانهم لايطلبون في الجريدة الخبر وحده ، وانما يريدون ان يروا فيها انفسهم ، ويلمسوا الدفاع عن حقوقهم علىٰ ان تكون المرآة مجلوة بيد نظيفة شأنهم مع الصحف في ذلك شأنهم مع كل شيء ، داخلي أو خارجي ، حكومي أو أهلي ، سياسي او غير سياسي - وما طلبوا ماليس لهم ، ولا اشتطوا في الطلب .

والمهم المهم في الجريدة التي تنال الرضى وتحظى بالقبول ان تقف في صف المعارضة ، أن تنقل رأي المعارضة ، ان تفضح اخطاء الحكومة ، ان تعري سوء التصرف ، ان تلعن الارتباطات الشائنة ، ومن هنا كان للجريدة أثرها وتأثيرها ، وقوتها ومجدها ، وما ان تنشر خبراً او تكتب كلمة حتىٰ يتناقلها الناس ، فلا تبقىٰ نسخة واحدة من ذلك العدد ، ويعتزون به ويتهادونه ويحتفظون به علىٰ انه اثر عزيز ، ويرتفع سعر الذي يتهيأ منه من خمسة فلوس الىٰ ربع الدينار وأكثر ان امتلكه بائع وظفر به مقتن . ويرىٰ صاحب الجريدة ذلك ويسمع به فيعده الربح الاكبر . والمال الذي لايفوقه مال ؛ ومن ثم يستهين بما يجره مجد الشعب من غضب الحاكم وحقده مما يتعجله أو يؤجله .

ويكاد تأريخ الصحافة يستحيل تأريخاً للوطنية او المعارضة ومن ثم فهو من تأريخ طماح الشعب وحاجاته والشعب يريد اول مايريد الاستقلال والشعب يعاني الفقر والمرض والجهل ، فالوطني الصحيح والحاكم الصحيح من ينقذه من براثن هذه الافات الثلاث فالعلم العلم ، والمستشفيات المستشفيات والرفاه الرفاه ، من حق المواطن ان يتعلم ، ومن حقه ان يصح ، ومن حقه ان يرتفع الىٰ المستوىٰ الاقتصادي العادل اللائق بانسان . اما أن تتمتع فئة ضالة من الحاكمين والاقطاعيين والملاك بالمال والجاه والبذخ والتبذير فتكون لهم الامتيازات

المطلقة ويكون ابناؤهم أبناء ذوات .. علىٰ حساب كاسب وفلاح وعامل فلا ، وذلك الضلال المبين والجور الذي ما بعده جور . ولن ينجي الحكومة تسترها علىٰ الباطل واحتيالها للكسب الحرام ، ولكل امر مدى وللصبر حدود . ولاتعجب بعد ذلك ان ينضج الوعي ، وأن تشتهر المعارضة والتمرد والانتفاضة والوثبة .. والثورة .

وعملت الحكومات منذ قيامها علي ان تكون لها صحافتها ، وعملها خائب منذ ميلاده ، ورايها فائل وهو في جمجمتها ، فليس كالعامة من يدرك الخفي ويجزم بالحكم ، ولا غرو فالقضية قضيتهم والقدر قدرهم .. وهم اذا احسنوا الظن احسنوا وحينئذ تراهم يغفرون لصاحبهم الزلة ويجتلبون له العذر لان الاصل حسن الظن ، وصاحبهم صاحبهم منهم ولهم وبهم فالخير للجميع والشر علىٰ الجميع .. وانما الويل والثبور لصاحب الحكومة . الويل والثبور في كل شيء ، ولكن الويل الاكبر والثبور الاكبر حين يكتب فلا يجد القارىء وحين يسترضي فلا يلقىٰ الراضي ، وكيف يجد القارىء بين العامة وهو هو نفسه لايصدق مايقول ، وسادته انفسهم لايقرؤون مايسطر لانهم يعرفون الكذب واذا فقدت الكلمة مدلولها عليه لدىٰ صاحبها فالاولىٰ أن ترتد لعنة لدىٰ الذي سعىٰ لغشهم واحتال للتمويه عليهم .. لا ، لا ، ان جريدة تميل مع الحكومة لاسوق لها ، ولا مكان لكلمتها .

وجربت الحكومات هذا الحظ منذ كانت . وحسبت في حسين افنان صيداً سينما . فهو «مثقف» وعارف باللغات وبالعالم الخارجي ، وهو لبق وهو دبلوماسي ، وهو ولا تدري من اين وقع علىٰ هذه الارض الطيبة .. المهم كانت للحكومة معه التجربة المبكرة الكبرىٰ وها هو ذا يصدر جريدة «الشرق» فيكون ولا أوقح منه في «الدعاية» للانكليز ، وفي تمجيد استعمارهم ، وفي .. وفي .. وتعجب ان تبلغ بجريدة مثل هذه العمالة والصفاقة ، تعجب ولا تعجب ، فلن تدوم «الشرق» ولن يدوم

«حسين افنان» .. وتحاول الحكومات بتوجيه من السادة ـ تلافي الحال ، وتلجأ الىٰ المغالطة والمداورة .. «فتلتزم» جرائد تحاول ضروباً من الحكمة وطول البال ، ووسائل من الاجتذاب .. ومع هذا ، ومع انها تقف احياناً مواقف لها المظهر الوطني والطابع القومي فانها لدىٰ الناس هي هي .. هي جرائد حكومية واذا لم تمثل الحكومة فهي لاتمثل الا نفسها .

ان الحكومة تتغاضى ، ان أمكنها التغاضي ، وتتعالىٰ ان استطاعت التعالي ، فتسلك وكأن الامر لايعنيها ، والكاتب لايقصدها تتماسك وتبذل جهدها في ذلك ، وتسلك مع الكاتب او صاحب الجريدة سبيل الاغراء .. واذ تيأس وتبوء بالخسران يضيق صدرها ، واذا ضاق صدرها اختل مقياسها ، واذا اختل مقياسها سدت الجريدة ، لمدة محدودة او سدا مطلقاً حسب قوة المقال المنشور ، فقد تكون اداة «الأذىٰ» قصيدة ذات صور رائعة وسخرية نادرة وجرأة علىٰ «الباطل» غير متوقعة !! وحسب المقام العالي الذي تهاجمه الجريدة او السر الدفين الذي تعلنه .. والاسباب لديها كثيرة حاضرة عتيدة ، ولكن النتائج وبال عليها ، فهي تحاول عبثاً وخطأ لأن قسوتها تزيد من قيمة الجريدة وترفع من شأن صاحب القلم وتعلو بمالك الابداع ولن يعدم صاحب الجريدة وسيلة شريفة في العودة الىٰ قرائة ، ومن تلك الوسائل دفع الغرامة الظالمة ، وامضاء مدة التوقيف او السجن ، ولديه من المتطوعين في الدفاع عنه والباذلين لمساعدته الكثير ، ومن تلك الوسائل أن يستعير جريدة رصيف له او يسعىٰ الىٰ امتياز جديد باسم صديق او معين ، وقد تسد الجريدة مراراً ، ويتعدد اسمها تكراراً ولا بأس فالوطن اسمىٰ والمواطن اجل .

وتلجأ الحكومة الىٰ سن قانون للمطبوعات . أو تعدل مادة او مواد من قانون المطبوعات .. فيصيبها بلاء عظيم فويل لها وويل لقانون

المطبوعات ، وفي الصحافة اقلام تهاجم القانون ، ولديها قانونيون يعرفون ماوراء اللف من دوران وينفذون الىٰ استخراج السم المنبث بين السطور ، واذا الامر معروف والسر مفضوح والشمس طالعة ، والحكاية من اولها الىٰ اخرها حكاية التضييق علىٰ حرية الرأي ، حبس حرية التعبير التي هي حق كالهواء والماء لأي انسان وللصحفي بحكم مهنته ورسالته وحرية التعبير ليس حقاً من أجل الحق فقط لتكون مجال اختلاف في التصوير ، وانما هي حق الشعب ، وحبسها عن الصحف حبسها عن الشعب ـ وتقوم القيامة وللناس اساليبهم التي هي جزء من تقاليدهم في الاعراب عن الغضب وفي المطالبة بالواجب وللوطنيين سبلهم التي لاتنفذ اليها الحكومة في توجيه الناس .

(٢)

وللجرائد الوطنية تأريخ طويل من فصوله الاخلاص ومن فصوله التضحية ولعلك قرأت اطرافاً منه في تأريخ البلاد او تأريخ الصحافة والجرائد الوطنية هي الصوت العالي .

ثم ان الضد يؤدي الىٰ الضد .. ولك ان تضع مقابل «الشرق» : «الصحيفة» ومقابل الجرائد الاخرىٰ : الاستقلال وصوت الاهالي .. وتعجب احياناً لجرائد صدرت لساناً لاحزاب تملك السلطة والمال والجاه والنفع والضرر ، وعملت المستحيل في ادعاء الوطنية والقومية ، وعملت المستحيل في التودد الى الناس .. فما بلغت من مأربها ذرة ، ولاحصلت في حيلتها علىٰ شهرة .. وكان ذلك في الغاية من الغباء لأن مسألة ادراك الناس لقضيتهم بديهية ، وهم علىٰ ذلك ـ ولذلك ـ يفهمون اللغة التي هي لهم قلباً وقالباً ، واللغة التي ليست لهم .

وهذه مكرمة جديرة بانتباه الذي يؤرخ للشعب العراقي يقظته واصراره ، ووطنيته وادراكه . انها الوطنية خلال الموقف من الجريدة وصاحب الجريدة ، وخلال موقف الجريدة وصاحب الجريدة .

لقد خاضت الصحف في انواع المذاهب السياسية ، وأنواع المذاهب الاجتماعة وترجمت ونشرت مقالات وقصصاً وقصائد موضوعة مرة ومنقولة مرة ،، ووقفت وقفات ناقدة من هذا الرأي أو ذاك النص .

في كل كلمة تقرؤها حياة ونبض وحرص وجدة وشعور بالمسؤولية وهذا مهم جداً ، ومن هنا ترىٰ تكراره ، وهو يفرض نفسه في هذا التكرار منبثقاً من هذا الالمام بتلك الصحف .. واني لأشكر المصادفة التي حدت بي الىٰ مراجعة عدد لابأس به من الصحف العراقية «والمجلات كذلك وفيها الحديث والثقافة ، والناشئة والوميض» مابين ١٩٢٠ و١٩٣٧ فعجبت وان لم اكن بعيداً عنها تمام البعد .. ولمت نفسي أن كنت بعيداً عنها هذا البعد ، ولربما داخل البعيد جهل ، وهو حينذاك جهل علم ام يعلم . تقول : لم اللوم ؟

واقول : لاني لو لم اطلّع لبقيت بعيداً عن حقيقة ، ولأجبت سؤالك عن ماضي صحافتنا بغير المناسب ولكن اللوم .. لم يقع في وضوح فكأنه تسرب خلال فرح ببلوغ حقيقة تقول : ان الفكر في ماضينا كما تعكسه الصحافة حي نظيف ، واننا لايمكن ان نفهم فكرنا المعاصر مالم نرجع الىٰ الجذر القريب ولا يعدم المراجع ان يجد ماهو متفوق عليه فضلاً عن الريادة وعنصر الحماسة والاخلاص والوطنية .. وقد تحمله الفرحة الىٰ ماهو من شأنها الطبيعي في الحماسة ، وماهو من شأن الحماسة من مقتضيات .

وتسأل عن المصادفة التي ساقت الىٰ هذه الحقيقة ؟ فيجيبك المسؤول : ان ذلك في اواخر الخمسينيات واوائل الستينيات وقد عزم علىٰ تأليف كتاب عن «محمود احمد السيد رائد القصة الحديثة في العراق» فاذا به يرىٰ الرواد قد بذلوا الجهد الكريم في شق الطريق التي نسير فيها بسهولة ويسر غير عارفين تلك الخطوات ، وغير مقدرين النفوس (العقول والقلوب) التي جددت فجودت .

وطال البحث واستدعىٰ «سلسلة من الاقامات» في مكتبة المتحف والمكتبة العامة لاستعراض اعداد الجرائد منذ صدورها حتىٰ عام ١٩٣٧ .

وانتهىٰ البحث ، وشرع يكتب المقدمة ، وانتقم في المقدمة لنفسه من نفسه اذ كتب :

«لم يذهب هذا الوقت هدراً ، فقد كان مجدياً ، وكان اساساً مهماً في الدراسة ، وسبباً في الوصول الىٰ نتائج نافعة ، ودل علىٰ اننا نجهل نشأة فكرنا الحديث ونجهل تأريخنا القريب ، واوضح ان آباءنا كانوا رغم ضيق الوسائل - يكافحون من اجل تمهيد الطريق امامنا ، وانهم جديرون بالاحترام» .

(٣)

وقد يوجد فينا اليوم من يستهين بجرائد الأمس القريب لانها جرائد الامس ، فيحسبها متأخرة متخلفة ، ويضعها في زاوية الماضي الذي مضىٰ وانقضىٰ . وقد يستمر في رأيه فيحدثك عنها علىٰ انها محدودة الأفق ، محدودة المدىٰ ، محدودة الفكر ..

ان وجد هذا ، ولا يبعد ان يوجد علىٰ سبيل الحكم بغير علم ، مع شيء من غرور وجهل وأشياء من سذاجة وغفلة .. والا فمن المستبعد جداً ان يقع في ذلك امرؤ ألم بالصحف العراقية ونترك السياسة هنا - في حدودها الضيقة وما تجد في اعدادها التي تمنعها الحكومة من العنف والشجاعة والوطنية مما يمر - أو لايمر - ببال ، فتلك جرائد متخصصة بالعمل السياسي والعمل السياسي ادعاء او عاطفة وانما هو علم بالموضوع في شرقه وغربه تأريخه وفلسفته ، ولابد له من ان يكون كذلك ، ولابد من ان يقف مؤرخ الصحافة العراقية السياسية عند هذه النقطة ، والناس ناس جد ، والوطن في حاجة اليهم وهم يعرفون كيف يسدون الحاجة ، واذا كانوا يبغون الرفعة والجاه وحسن الذكر وخدمة الآباء والاجداد مع خدمة الابناء والاحفاد فلا - ولن - يكون ذلك الا مع

الوطنية .

قلت نترك السياسة .

ولم نتركها ؟

- لأننا نريد ان نسجل ظاهرة محدودة اخرىٰ للصحافة العراقية تحفظ لها قيمة علىٰ مر الزمن وتحظىٰ باعجاب المتأخر اذا سها عنها المتقدم . أريد ان اقول انها كانت متقدمة ويخطىء من يظنها جهلاً أو غروراً او سذاجة - متأخرة .

أجل هي ، جيدة ، وأكثر من جيدة ، وهي تغذي القارىء - واحترام القارىء أساس في تعاملها معه ، تحترم شعوره ، وتحترم حاجته ، وتحترم عقله فما تعالت عليه يوماً وما غضت من شأنه ساعةوما نظرت اليه نظرها الى كيان سالب ، واذا تركت السياسة - وأمرها معروف - فهي تغذيه بأشياء كثيرة اجتماعية وثقافية وأدبية وفكرية... لأن اصحابها يقدرون مسؤولية عملهم ازاء انفسهم وازاء القارىء وليس ينأى عنهم ان القارىء العراقي صعب .. وصعب جداً .

كانوا يغذون انفسهم ليغذوا جرائدهم ويغدوا القارىء ولاتحسب ان المصادر مستحيلة الحصول بعيدة المنال ضئيلة الفائدة ، قد تكون قليلة نسبياً ولكنها موجودة لمن يطلبها ، وهم يطلبونها وفيها الآتي من مصر والشام وفيها المؤلف والمترجم ومكتبات السوق تتلقف المطبوع ، لأنها - «هي الاخرىٰ» تعرف مستوىٰ القارىء العراقي .. واذا لم تكن قد دخلت الىٰ «المكتبة العصرية» فلعلك ادركت مكتبة «المثنىٰ» .. وبين العصرية والمثنىٰ عشر وعشرون مكتبة .. تتزايد مع الزمن تلبية لمطالب القارىء العراقي الذي عرفته جيداً مصر ثم لبنان .

ويولد في العراق نفسه مثقفون يؤلفون ويترجمون ، واذا رأيتهم قليلين فهم في نمو ، وهم جادون ، صغيرهم - فضلاً عن كبيرهم - يشعر بكيان ويدرك مسؤليته . وتعاون حيناً ولا تنسَ ماكان يرد من «صحف»

الاقطار العربية ، وخاصة مصر وفيها المقتطف والهلال .. والسياسة .. ثم الرسالة .. والعصور .. ومجلتي ولا تنسَ مكتبة مكنزي الخ مما يكون وحده موضوعاً حياً للدراسة العلمية .

(٤)

اقول هذا ، ولعلي اردت ان اقول غيره في البدء ، والخير فيما حصل ، فهو جزء منه وصلة به وفرع له ، اردت أن اقول ان الفكر الذي كانت تعرضه الصحف لايستهان به ، ولا يستهين به الا جاهل او مغرور .. والفكر ـ هنا علىٰ شتىٰ نواحيه : الفكر السياسي والفكر الاجتماعي ، والفكر الادبي ..

فيها المتأثر بالفكر الذي يوصله المؤلف المصري والمترجم المصري وغير المصري ، وفيها الذي يأتي من عودة الىٰ التراث ، ومن صلة بالعلم في الاستانة او في غيرها لدىٰ سفر او دراسة او علم بلغة ، وفيها الذي يأتي من تأمل ومناقشة ، ناهيك عن مدرسة الحياة وتجاربها الهزازة اذا قابلتها بمستوىٰ الانسان .

كتبت في ١٤ حزيران ١٩٨٤ لمناسبة عيد الصحافة في الـ١٥ من حزيران



النقد .. والعزق .. والشهادة



جميلة هذه الكلمة (العزق) في دلالتها ، ولو اننا لم نرها الا في المدرسة لامور تتعلق بالنبات فيما يراد له ان ينضج ويؤتي ثمرة ، وبالطفيليات فيما يجب ان تحارب وتجتث وتباد وتطارد وتهلك ويقضى عليها .. والا خاب المسعىٰ ، وعدم الكسب وفاز الدخيل وانتصر وكسب وساد وشمت .. ونظر الىٰ الفلاح من عل ، والىٰ النبات المطلوب بانتصار الحاقد اللئيم المنتقم المعتز بشره المدل بخبثة السالك الىٰ الربح الحرام كل طريق والمهم المهم لديه ان يغلب وان يسود ومن ثم يتوارى عن وجهه الفلاح والنبات المطلوب ليعمل ماشاء كيف شاء لارقيب ولاحسيب في نشوة غامرة من السرور وبلهينية طافحة من العيش .

انها لفظة ولا غنىٰ عنها في عملية الزراعة والزراعة أساس في حياة الانسان ملك مقوماتها من ارض خصبة وماء وسماء ام لم يملك وبلغ في الصناعة كل مبلغ وكيف يعيش العامل بدون الفلاح وكيف تستقيم حياة مصطنعة فقط ..

لفظة علىٰ هذه الاهمية والخطورة .. لابد من ان تدخل اللغات كلها ، واين لي العلم باللغات كلها او نصفها او ربعها .. ولابد من ان تكون لها مرادفات اخرىٰ حتىٰ في العربية نفسها واكرر ان ليس المقصود منها هي اللفظة بحروفها الثلاثة وانما المقصود فعلها ومفعولها .. والحاجة الماسة اليها ولم ارها في (العين) ولم ترد في (مختار) الصحاح ولا

(اساس البلاغة) .

وهذا غير معقول ..

فلنرجع الىٰ (اللسان) وهو مجموعة معاجيم بدءا بالتهذيب .. وفيه : «وعزق الارض يعزقها عزقاً : شقها وكربها ولا يقال ذلك في غير الارض والمعزق المر من حديد ونحوه مما يحفر به» والذي في (القاموس) مثله ..

والعزق علىٰ هذا لايفيدنا في النقد الا في نقطة واحدة هي مهمة ولكنها ليست كل شيء وليست المقصودة الاولىٰ هنا ـ تلك نقطة تهيئه الظرف المناسب لكل شيء وامر وحياة وفي المقدمة مما يهمنا الشاعر ويدخل في الشاعر بمعناه الابداعي الواسع القاص وكاتب المسرحية وكاتب المقالة .. وحتىٰ الناقد نفسه فانه هو نفسه يحتاج الىٰ هذه التهيئه من «شق الارض وكربها» والا كيف تنبت بذرته وكيف تتلقىٰ الماء والهواء وكيف ؟؟ تنمو وكيف ؟؟

ولكن الناقد هنا فاعل هو العازق والمعزق .. والعزّاق بتشديد الزاي و «عزقت بتشديد الزاي ـ القوم تعزيقاً اذا هزمتهم وقتلتهم» وطبيعي ان المرء لايقتل اي قوم ولا يهزم اي قوم فلابد من ان يكون هذا القوم عدوا ضاراً خبيثاً مستغلاً علىٰ وجه الباطل طفيلياً ؛ حقيراً ، لئيماً ، كريهاً ...

ومن هاهنا يأتي النفع الاكبر لكلمة (عزق) ومعلوم اننا عرفناها في المدرسة لتدل علىٰ إبعاد النباتات الطفيلية عن النباتات المطلوبة الكريمة الشريفة نبعدها لانها تسرق غذاء غيرها وتوغل في السرقة الىٰ درجة الاستبداد وتبالغ بالاستبداد حتىٰ تدّعي السيادة وما ليس لها وانها الاصل ولابد من القضاء علىٰ هذا النبات الذي تسمونه (النبات المطلوب) ونسميه نحن النبات الطفيلي ، اجل ونحن الاولىٰ تسمونهم طفيليات نحن الاصل وانظروا كيف نفعل ونسود .. واذا الارض لنا والتربة لنا والماء والغذاء والهواء .. وتبحثون عن هذا الذي تدعونه (النبات المطلوب) فلا ترون له اثراً لقد ابعدناه واجهزنا عليه واكلناه .

وهذا الذي تقوله النباتات الطفيلية التي لاتملك من عناصر الإبداع ذرّة وتملك من عناصر الشر اطناناً .. واقع فعلاً علىٰ اسوأ مايكون حيث يتوقف العزق ، وحيث يقصرّ الفلاح في أداء واجبه من الضرورة الملحة الدائمة في مواصلة العزق بهمة وصبر واخلاص ونباهة بعد (شق الارض وكربها) ولدىٰ بذر البذور والارواء فما يكاد يبدأ الخطوة الثانية حتىٰ تبدأ الطفيليات خطوتها الاولىٰ فتنبت قبل النبات المطوب ومعه وعلىٰ غذائه وتزحمه وتلتف عليه وتقتله ويخلو لها الجو فلم يعد في الميدان غيرها فتختال تيها وترفل في ثياب العز والسعادة . والتقصير كل التقصير في عملية العزاق علىٰ مايجب ان تكون عليه من استمرار باخلاص ويقظة حماية للنبات المطلوب المنطوي علىٰ الثمر النافع من الطفيليات الضارة . وتتم الحماية باجتثاث الطفيليات منذ البدء فما تكاد تدل الواحدة منها علىٰ نفسها حتىٰ يبادر العزق باقتلاعها وهكذا

إن عادت العقرب عدنا لها وكانت النعل لها حاضرة

هكذا تلاحق الطفيليات حماية للنبات الاصلي الاصيل .. والا طغىٰ الباطل واختال الحقير واختلت المقاييس واضطربت القواعد ولاتعدم بعد ذلك ان ينشأ جيل ولا يرىٰ في الجو غير الطفيليات واذا كان الامر كذلك فالذي يراه هو الموجود والموجود هو الصحيح وانى له بصحيح غير موجود ليقيس عليه ويحكم به . ولا نطيل لقد اردنا الىٰ مهمة الناقد وتشبيهها من بعض وجوهها بعملية العزق ولكننا اطلنا في الزراعة ونسينا الادب .

- لاعليك ، ولاتطل والحر تكفيه الاشارة .
- اتسميها اشارة ، ليكن وقد قال احمد شوقي بك :

وانما الأمم الأخلاق مابقيت وان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

- هذه اول مرة اراك تستشهد ببيت يقوم علىٰ المعنىٰ وحده !

ـ لامؤاخذة في الامثال .. والتشبيهات وقد يأتينا يوم نستشهد فيه بابن الوردي والمهم المهم الا تقع فيما وقع فيه «عادل امام» .

الثورة ١٩٨٥/١٢/١١

من أسرار المهنة



الاعترافات كلمة كبيرة ، وكبيرة جداً وهي من ثم ، تقتضي من صاحبها المتصدي لها حجماً مناسباً في الموهبة والفعل والمنزلة . واذا سمعنا باعترافات القديس **أوغسطين** فهي في هذه الشروط ، واذا سمعنا باعترافات جان جاك روسو فهي منها كذلك .. وتسير القافلة حتىٰ تصل اندره جيد .. وتتعداه .. ولاتقف عند فرنسا ، إذ تقع علىٰ العظماء أو يقع العظماء عليها . فيتلقاها القراء علىٰ مر الزمان واختلاف المكان علىٰ المستوىٰ الذي صدرت عنه موضوعاً وأداء . وإذا كان الأعتراف علىٰ من يتهيأ له الذنب أو الإثم أو الخطأ .. صعباً فان صاحبه يعترف بذنب كائن ويتحدث عن تجربة كابدها ، فيأتي الاعتراف ـ عندئذ ـ أيسر عليه من أولئك الذين يطلب اليهم الاعتراف وليس لهم التجربة التي يعربون عنها والاثم الذي يخوضون فيه ..

- فما العمل إذن ؟

- لامفر من الاعتراف !

- واذا لم يكن منه بد ، وأنت علىٰ هذا الأخلاص في الطلب ، فليكن في الحدود الضيقة التي لنا من الميدان المقترح لمزاولة الأدب أو التنقل بين أنواعه .. واذاعة الحاصل من أسرار المهنة عندما يستحيل مهنة ..

أجل وانه لفخر ـ وليس اعترافا ـ أن يقول المرء إنه عشق الأدب مبكراً في آثارة وأعلامه ، ورأىٰ ذلك المرء لنفسه مجداً أن يكون صفحة

في سفره أو سطراً أو كلمة .

ذلك فخر ، وخصوصاً اذا صحبه أمل بعيد ورافقته ثقة عميقة .. وهو ماحدث يوماً ما . ثم استحال الفخر اعترافاً حين لم يحقق ذلك الطامح هدفه كما شاء وتصور ، ولم يصل من الأدب الىٰ الدرجة التي خالها وتخيلها . وأين هو مهما يبلغ من أولئك العظام الذين أحبهم وأجلهم واقتدىٰ بهم ، من عرب وغير عرب ، من شرقيين وغير شرقيين ؟ !

وكان الشعر يملأ المجتمع ، وللشعراء مكانتهم في موضوعهم مهما تكن منزلتهم الاجتماعية وحالتهم المعاشية . والشعراء عظماء في الماضين وفيهم من فيهم ، وعظماء في الحاضرين واليهم يشار بالبنان ـ فما أجمل أن يكون شاعراً ، ولابد من أن يكون الشعر أمراً صعباً ، ولكنه لم يقترب في ذهنه من هذا الأمر . ويدخل دار المعلمين العالية ، وطبيعي أن يختار قسم اللغة العربية ، ويواصل حبه للأدب والأدباء .. والقراءات بما يخرج بعيداً عن الدرس المقرر وعن المنهج المطلوب .. ويحاول الشعر ويستجيد لنفسه البيت والبيتين والمقطوعة والمقطوعتين وربما استجاد ذلك منه زميل أو زميلان ولكنه لم يبلغ فيه من المثل الأعلىٰ درجة تذكر ولم يصعد عن المستوىٰ عتبة تشكر ، وما كان منه الا أن طوىٰ جوهر الصفحة وكأنه لم يرد أن يغالط ويمضي كما مضىٰ عشرات ومئات يحسبون أنفسهم شعراء وما هم بشعراء ولو خجلوا لعرفوا حقيقتهم وأدركوا ضلالهم .

تباطأ وتوقف وكأنه التفت من حيث لايدري الىٰ ميدان آخر ، هو البحث الأدبي في حدود الامكان . وكان يحسب لنفسه مكاناً كبيراً ! فبحث علىٰ أمل كبير للمستقبل البعيد . ومال الىٰ النقد الادبي فقرأ ماتيسر له وزواله في نطاق شفهي محدود فتوصل الىٰ قواعد جازمة في شرط الموسيقي قبل غيرها أو مع غيرها ولو سجل تجربته الضيقة تلك لأفاد واستفاد ولكنه لم يسجلها علىٰ أمل نموها وتكاملها علىٰ المدىٰ البعيد .

ولم يتحقق هذا المدىٰ البعيد كما حسبه .

ويتطامن طماحه شيئاً فشيئاً ، كلما مس الواقع واقترب من نفسه ونظر ملياً الىٰ النابغين .. والعباقرة .. فكانت فكرة الخلود - خلوده هو - أول صرح تهاوىٰ في بناء شخصيته ولم يكن سهلاً أن يعترف من كان طامحاً أنه ليس من الخلود في شيء وأن ليس الخلود منه في شيء ويحل عندئذ قليل - أو كثير - من اليأس ، ويخيم كثير - أو قليل - من التشاؤم .

تبقىٰ بقية من طماح ، وفي البقية حبه للشعر وتقديره للشعراء وقراءاته وحفظه .. واتساع المدىٰ الىٰ مايخرج من الشعر الىٰ النثر ، ويأتي علىٰ رأس النثر المقالة المبدعة ، وعلىٰ رأس المقالة لديه ماكان يكتبه أحمد حسن الزيات وطه حسين مع اعجاب غير قليل بما يكتبه الآخرون المازني وزكي مبارك .. ويرجع هذا الاعجاب الىٰ ايام الدراسة الثانوية ، ويزداد ولكنه كان دائماً دون الشعر .. او أنه كان يفعل مفعوله في الخفاء وبمقدار ماينطوي عليه ذلك النثر من شاعرية الابداع ، وموسيقاه ..

وحين تشترط دار المعلمين العالية «رسالة» للتخرج يلاحظ - هو نفسه - علىٰ نمط كتابته تأثراً واضحاً بطه حسين والزيات . ولم يكن ذلك ليضيره ، وانه ليأتيه طائعاً غير متكلف ، غير حاسب انه لايرفع من شأنه لدىٰ التقدير الصحيح في بيان الاسلوب .

ويعترف - اذا كان لابد من الاعتراف - أنه لم يتنبه الىٰ ذلك ، وإن خدمه غير قليل بالوجه غير المباشر بما سهل من مهمة القلم في عهد التدريب والتجريب بدليل ماشرع يخفف من غلواء الأثر الزياتي وأن احتفظ بالعنصر الموسيقي لدىٰ المزاوجة أو الموازنة ، وما طفق يودع من العنفوان (الطحسيني) وان تشرب اللف الذي يجتذب القارىء الىٰ مابين سطوره .

خف الأثر «الأجنبي» ، وطبيعي أن يخف لدىٰ اتساع المطالعات ، ولدىٰ قراءاته ـ خاصة ـ النثر الفرنسي ممثلاً بشاعرية «اعترافات» جان جاك ـ روسو و «قانونية» «أحمر وأسود» ستندال .. ومن قبلهما العبارة التي بدت وكأنها احتوت هذا وهذا ونفسها متمثلة بالفونس دوده في «الشيء الصغير» .

ويأتي منهج البحث العلمي نظرياً وعملياً .. وتطل تجاربه الخاصة فكرية واجتماعية .

وحين عاد الىٰ العراق بعد انتهاء الدراسة في فرنسا ، كان طبيعياً أن يبقىٰ مع الأدب والطماح الأدبي ، وبدا أن أقصىٰ مافقده ـ غير آسف عليه ـ المبالغة في الطموح والجهل بقدرات الذات . وها هو ذا يكتب المقالة ، والنقد الأدبي ، والمقالة الأدبية .. وتبقىٰ روح الشعر معه ، وقل يبقىٰ الشعر مثلاً أعلىٰ في العمل الأدبي مع اتساع في مفهوم الشعر ، فقد يغيض الشعر في الشعر ، وقد يأتي روحاً خلال النثر ، في المقالة ، وحتىٰ في المقالة النقدية ـ ولم لا ؟

وشرع يكتب فقد داخلته الثقة ـ ثقة ما ـ بانه مقالي ، النثرية يمازجها طائف من الشاعرية ، وقل طراوة مبعثها شيء من الانفعال الصادق وشيء من التصور المحسوس ـ وانه ليذكر مجلة «المعلم الجديد» بالخير .. ومضىٰ يكتب ويكتب وانه ليعتز من بين كتبه الكثيرة بمقالته الانشائية أو القريبة من الانشائية متمثلة بما جاء منها في «رواء الأفق الأدبي» ـ وانه ليذكر جريدة «الجمهورية» بالخير .

ويعترف انه يسعىٰ ـ الىٰ أن يكون مقالياً علىٰ طراز ماكانت عليه «مدرسة الرسالة» ويعترف ـ خلال ذلك ـ أنه أقل من أن يبلغ مبلغ الزيات أو طه حسين .. ولكن لابأس من السير في الطريق ، وقد سار .. ويعترف ـ مرة أخرىٰ ـ لأن الاعتراف هو المطلوب منه أن هذه الثقة قد يرجع بعضها الىٰ تأمله الشخصي او حسه النقدي إزاء مقالته ولكن

البعض الآخر - ولعله القسط الأكبر - يرجع الىٰ القراء أنفسهم فيما يصل الىٰ أذنيه من ثنائهم علىٰ الإدارة الفنية للمقالة ضمن مسحة من الشاعرية - تقل او تكثر حسب الموضوع - وما كانَ ليصدق هذا الثناء لو جاء بمعرض النفاق او التملق او الغش ، وانما هو يصدقه لأنه يأتيه اختياراً دون قصد أو طمع أو خبث ، ومن أناس لايكاد يعرفهم أو لايعرفهم فعلا ..

أعترف أن القراء عامل في تطور المقالة لدي مابين «النقد سهل» ١٩٥٨ و«استاذي المهنا» ١٩٨٥ .. ونسيت أن اعترف بأني أفدت من تلاميذي في الحلة وطلابي بدار المعلمين العالية ، فقد كانوا علىٰ قدر صالح من النضج الفكري والذوقي ، فأخذت كما أعطيت ، وانا معهم تلميذ واستاذ في آن واحد .

ونسيت كذلك أن أقول في النقد الأدبي ماقلته في المقالة ، فاذا تركنا مايحسه المرء في نفسه وما يريده لنفسه ، فلابد من وقفة طويلة عند القراء . والقراء هم الذين وصفوني بالناقد وهم الذي عدوا ماأكتبه نقداً ، وهم الذين ارتاحوا الىٰ الناقد والنقد ، فكان ارتياحهم مبعث تشجيع وعامل استمرار وسبب شعور بالواجب . إن بالانسان من كان ، استاذ شاباً او شيخاً تعدىٰ الخامسة والستين حاجة الىٰ التشجيع وان رضا الناس يبعثه من الحسن الىٰ الاحسن . وبعد .

فهذا أقصىٰ مالدي في موضوع الأنواع الأدبية ، واذا أردت «القصة» قلت إني جربت كتابتها مرة واحدة فقط وعلىٰ وجه كبير من السذاجة وكان ذلك في السنة الأولىٰ من دار المعلمين العالية ، وحسنا فعلت إذ طويتها ولم اكررها فانا في القصة دون الشعر بمراحل ولا أراني أصلح لها فيما يبدو من حاجاتها لدىٰ قراءتي اياها عند كبار القصاصين وعظماء الروائيين . ورب تلميذ في الأول المتوسط كتب - ويكتب - خيراً مما كتبته أو أكتبه . اما نقد القصة فشيء آخر أوقعه عليّ القراء

اختصاصاً .

لم أحاول ـ لحظة ـ أن أكتب مسرحية كأني أراها خارج حدود طاقتي وخارج طبقات مطامحي . أما نقد المسرحية فاني أزاوله ـ أحياناً ولدىٰ الضرورة من شعور بالواجب ـ «هاوياً» وقد جاءتني هذه الهواية من ملازمة صادقة للمسرح الفرنسي قراءة ومشاهدة وقراءة لنقد مسرحيات قرأتها أو شهادتها . ولا أخفي عليك ، أني بقدر ما أمنع القلم من المجازفة في الاستمرار علىٰ النقد المسرحي ، يسرني مايصل الىٰ سمعي من رضاً عما كتبته وأنه سد فراغاً في حينه ، ويسرني كذلك اني كتبته صادقاً مع نفسي ـ شأني في كل ماكتبت علىٰ قاعدة ذهبية خلاصتها ان الانسان إما أن يكتب مايرىٰ ويعتقد أو لايكتب ؛ إما أن يحترم قارئه خلال نفسه وإما أن يخسر احترام القارىء ، وخسارة القارىء الشريف ـ فيما أؤمن به ـ خطب فادح لايعوض بعد فوات الأوان .

ولا ينفصل الأدب عما سواه من مواد الفن ، واذا كان شيء لابأس به من الاتصال ببعض من هذه المواد قد تهيأ لي في فرنسا ، فاني لآسف إذ لم يكن الاتصال كما يجب أو عاما للمواد كلها ؛ وأسف كذلك لأن هذا الأتصال حتىٰ بما كان له من مظاهر الفن في العراق ، يقل يوماً بعد يوم .. ومع الاسف هذا أسف ملحوظ لضعف الاتصال بمواد الحياة كلاً ، كما هي في المجتمع ، وكما هي في الطبيعة !!

وأسف رابع او اخير ماأحس به من قصر عن توسيع الجو علىٰ القدر الذي يتطلبه الفن عموماً ، والمقالة والنقد الادبي خصوصاً ، ولا يقنعني ثناء في هذا الباب مهما يكن صاحبه مخلصاً من ملاحظة لما يسميه الجرأة ، فليس هذا القليل جداً هو المطلوب لزيادة نسبة الاصالة او لايجادها اصلاً . ولا اقول هذا افتعالاً للتواضع ، وانما هو قناعة بعد تأمل ولدىٰ مقابلة موضوعية بما في الادب العالمي والعربي من قيم وما

لادباء العالم والعرب من مواهب وابداع وشجاعة . وختاماً ـ هذا اقصىٰ مالدي واذا كان من مزيد فهو لديك قارئاً ومتابعاً وناقداً ... واسلم .

نشرت في مجلة «وعي العمال» نصف الشهرية ـ باب «اعتراف» /بغداد/ أيلول ١٩٨٥ .



التربية بالثواب والعقاب



للزواج طقوسه الدينية ، وللولادة طقوسها كذلك ، ويبدأ الطفل يرىٰ ويسمع فيقتدي ويتأثر ..

وتتردد علىٰ سمعه كلمة حرام ، وما يصلح ، و «يذبوك» بالنار .. والشكر والحمد .. واللعن .. ويتشرب ذلك ويمازج تكوينه .. ويوجه سلوكه .. ويدخل في حركاته وسكناته ...

عندما تأكل ، قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، والا فانك تأكل ولا تشبع ، لأن الشيطان يأكل معك . فيقول بسم الله الرحمن الرحيم .. وهو يسمع من حوله ـ قبله ـ يقولها . ولا تكفي القدوة كما يجب ، ولابد من التخويف .. في أدب الطعام .

تأخذ «قرص» الخبز لتأكله فاعرف كيف تقتطع مايساوى اللقمة منه في هدوء ومن الخارج الى الداخل وإياك ان تأخذ القطعة دائرية (تقحورها) من مركز القرصْ . سيكون ذلك طوقاً حديدياً يطوق رقبتك يوم القيامة ..

وهذا «نجس» غير طاهر .. إذا مسسته فاغسل يدك وقل بسم الله الرحمن الرحيم ، واللهم اقطع سؤر (ويلفظها صور) النجاسة قربة الىٰ الله تعالىٰ ـ فيعمل والا خالف أمر الله ـ ولابد من التنبيه والتخويف من أجل النظافة وغسل اليدين اذا اتسختا بنجس ، ومثل اليدين الجسم كله ، والملابس كلها ...

واذا طالت أظافرك تقصها واذا قصصتها لاترمها في أي مكان ، وطبيعي أن النصح من أجل النظافة والحث عليها ، ولكن من التشويق بالنفع والتخويف بالضرر ... تدفنها عند «سنارة» الباب حتىٰ اذا ظهر «اعور التجار» (الدجال) واشتاقت نفسك اللحاق به واتجهت نحو الباب تروم الخروج سريعاً انتصبت اظافرك سيوفاً تمنعك من الخروج وتردعك . والخبز «نعمة الله» فلا ترم قطعة منه علىٰ الأرض ، واذا رأيت قطعة منه فخف لرفعها وإبعادها عن الأرجل ، ودسها في ثقب الحائط ، إنها نعمة الله وهو يرى الاكبر منه يفعل ذلك ، يرفعها من الارض ويقبلها ـ لانها نعمة الله ـ ويمس بها جبهته ثم يدسها في ثقب الحائط . وجدير أن يفعل فعل الكبار ويفعل . الخبز نعمة الله ولا يصح ان يقع من يدك علىٰ الأرض ، وبذلك يكسبون نظافته . والطعام نعمة الله فلاتدعه يتساقط من يدك ـ وربما عزي احمرار مقعد القرد الىٰ استهانة امه بالخبز اثناء الأكل ـ هنا وهناك . وبذلك يكسبون جانباً من النظافة علىٰ الأرض والملابس ...

والورقة من القرآن ، اياك ان ترمي بها هنا وهناك ، وأن تراها مرمية ولا تخف الىٰ رعايتها ورفعها وتقبيلها ووضعها في مكان يبعدها عن الأقدام ـ انها كلام الله . وإذا تقادست نسخة القرآن لديك «وتمزقت» فلتلقها في النهر ـ انها كلام الله . ولا يقال انا اشتريت القرآن وإنما هي «الهدية» ... بكم تهدي القرآن ؟ وأبوك يهدي لك -قرآن .

واذا انتهيت من قراءة القرآن ، فلا تترك «الكتاب» مفتوحاً ، فيقرأ فيه الشيطان ، وذلك حرام ، بل سارع الىٰ ان «تطبقه» وتحفظه .

والشيطان معروف جداً لدىٰ الطفل لطول مايتكرر اسمه ولعنه علىٰ الألسن لعن الله الشيطان ، **الله يلعن** إبليس ، وهو قرين لكل سوء ، وسبب للنسيان فاذا اردت أن تتذكر أمراً فاتك فالعن الشيطان ، تتذكر ..

والشيطان هو الذي يدفع الانسان الطيب الىٰ العمل الخبيث غير المرضي ، وهو الذي يغريه «ويوهدنه» .

ويقابل الشيطان : الملك .. وقلما يحدد باسم ولكنه قرين للخير ... وقد يرد اسم جبرائيل . ويرد اسرافيل علىٰ انه الموكل بسوق الغيم للمطر اكثر مايرد اسماً غير مقترن بالملائكة (وهو صعيع) ويقترن «عزرائيل» ... ولكنه لايرد ملكاً أبداً ، أو قل لايرد مورد الارتياح لاقترانه بالموت ... وعزرائيل هو الذي يحاسبك في القبر ... واذا ضاقت أم بابنها صاحت «عزرائيل» عزرائيل لفك وطمك ...

وكان لك في الحياة ملكان ، ملك علىٰ (اليمنى) وملك علىٰ الكتف (اليسرى) ، وهما يسجلان عليك أخطاءك .

لاتكفر .. وإلا دخلت النار ، لاتسرق والا دخلت النار ، لاتكذب ... ولاتغش .. ولا «تفشر» ولاتسب الموتىٰ ...

اذا طلب طالب قبلك الماء وجيء بالقدح فلا تشرب قبله ، فلعن الله الشارب قبل الطالب ـ هكذا يقولون له ، وهكذا يسمع ، اما الشرح بأن اللياقة تقتضي ، وان الذي طلب الماء قبلك قد يكون أشد عطشاً والا لما سارع بالطلب ... هذا الشرح لايدركه ولا يهمه ولا يؤثر فيه ... ولا يرد .

اذا عزمت علىٰ عمل أو سفر فتوكل علىٰ الله ، قل قبل الخطوة الأولىٰ توكلت علىٰ الله ـ اذا أردت ان تنجح في مسعاك ، ومن لم يتوكل علىٰ الله ، «توكل» علىٰ الشيطان فيخيب ... انظر الىٰ الفرق بين الطير الذي يطير والدجاجة التي لاتستطيع الطيران ، لماذا ؟ سأل الطير الدجاجة أتطيرين غداً ؟ فقالت أطير ، دون أن تردف قولها «ان شاء الله» فلم تطر بعد ذلك قط ، اما الطير فقد قال «إن شاء الله» فطار ...

والجنة ، الجنة لك اذ تصلي ، وإذ تصوم ، وإذ تحترم والديك ، وإذ تفعل الخير ، وتساعد العاجزين ، وتعطي الفقراء ... الله وصىٰ

بالوالدين .

وهكذا وهكذا أنت بين الجنة والنار ، في حركاتك وسكناتك .. والجار الله وصىٰ بالجار ، وعقوبات ومثوبات في الدنيا والآخرة .

إياك ان تعد النجوم في السماء ، عد النجوم هو السبب في ظهور «الفالول» علىٰ جلدك . وليست «الشامة» عيباً ، ان «الشامة» تستحيل شمعة تنير القبر.وحرام أن تبول وأنت واقف ، حرام ، والحرام يؤدي بصاحبه الىٰ النار ، يقولون لم «حرام» لأن الكلمة مجدية في التربية ، ولا يمتلك مفعولها - برأيهم - شرح السبب ان فكروا يوماً بالشرح العلمي .

حرام تبصق الىٰ الأعلىٰ ، لأن السماء فوقك ، ولا يقولون له السبب الحقيقي . حرام أن تترك حذاءك مقلوباً : قفاه على وجهه لأنه - بذلك «يغم» السماء ، واذا رأيت حذاء ، أي حذاء علىٰ هذه الحال فسارع الىٰ إعادته الىٰ حالته الطبيعية . يقولون حرام ، ولا يقولون ان ذلك يخالف الذوق ، وأن رؤية قفا الحذاء رؤية للوسخ ... وآثار الأرض فيه .

ويصادف أن يكذب طفل ثم يصيبه مكروه كأن يسقط أرضاً او يصيبه حجر أو يمرض ولا علاقة بين الكذب والمكروه ، ولكنها فرصة تربوية لعقد الصلة . سقطت علىٰ الأرض لأنك كذبت ... الله عاقبك ... دير بالك ... عقابك في المرة القادمة أشد ، ان الله يرىٰ ، وهو حق ... - وهذه الصلة أسهل من شرح عواقب الكذب فردياً واجتماعياً .. إن فكروا يوماً بشرح العواقب كما هي ...

ومثل الكذب ، السرقة ، الاحتيال ، الغش ... ومن لم يلق عقابه في هذه الدنيا يلقه يوم القيامه ، فيدخل النار .

واذا آذىٰ طفل آخرين ، ولاسيما أمه أو العجزة أو طفلاً لأم أخرىٰ لم تستطع أن تأخذ ثأرها ...... فان العقوبة المباشرة للطفل المعتدي : الدعاء ، تدعو الأم الله أن ينزل عقابه علىٰ المعتدي . فاذا نزل العقاب

كان هذا جواب الدعاء ، وإذا تأخر يبقىٰ التذكير بالاعتداء مدخراً ، وإلا فيوم القيامة . وربما كان الكبار أكثر تصديقاً بمفعول الدعاء من الصغار ، فاذا مرض الطفل المدعو عليه ، قالت أمه : هذا من دعاء فلانه ، وان ابنها مدعو عليه - ومسألة الدعاء نسائية أولاً .

والولد - علىٰ أية حال - يحرص على «سلامة» والديه يوم القيامة ولهذا يحرص - بعد وفاة احدهما - علىٰ الاّ يسيء الىٰ أحد خوف شتمهم والاساءة اليهم ... فهما - أحياناً - في موضع القداسة ، كأن يحلف بروحهما .

والحلف و«التحليف» ومن ورائهما العقاب الشديد ، النار وجهنم - لهما مفعولهما في السلوك ، فالطفل - خوفاً من النار - لايحلف كذباً ويتجنب الاخطاء ليتجنب الكاذب والطفل يطلب الىٰ الطفل أن يحلف له بالله ليثبت له انه لم يكذب او يسرق ... وللحلف الكاذب - فيما بعد - عقوبته في الدنيا من خسارة أو مرض ... فما أسرع ماتعقد الصلة بين حلف كاذب وسقوط علىٰ الأرض أو مرض ، بل إن السقوط علىٰ الأرض أو المرض ... دليل لايقبل النقاش علىٰ كذب الحلف . ولا يبعد ان تكون علاقة نفسية بين الحلف الكاذب وسقوط علىٰ الأرض ، أو الشرود ... كأن لايرضىٰ الكاذب عن قسمة أو كأن يخاف عقاب الله عاجلاً - أو آجلاً - ولكن هذا التفسير غير وارد وقليل التأثير .

ومثل الحرام والحلال ... «والما يصلح» ... الله مايقبل الله لايقبل الاعتداء ، ولا يقبل الاساءة الىٰ العاجزين . ووراء «مايقبل» : العقاب ، والنار ... ومثلها «الله ما يرضىٰ» ... الله مايقبل ، وما يرضىٰ بكل عمل طالح ... وبكل ايذاء ، ايذاء الضعفاء عموماً ، ويدخل في ذلك ايذاء الحيوان ، وتعذيب الحيوان - ومن وراء عدم الرضا وعدم القبول : النار ... والعقاب عاجلاً أو آجلاً .

وإذا رأت امرأة أطفالاً يعذبون ضعيفاً من انسان أو حيوان ،

ويعبثون بنقير (أو مجنون) قالت لهم : ماتخفون الله ـ ومن وراء ذلك النار .

والتهديد بالنار قد يكون في حالات من هذه الحالات غير مباشرة ، الا انه كائن . ومثله الثواب بالجنة في عمل الخير ومساعدة العاجزين قد يأتي غير مباشر ، ولكنه حاصل .

ومن المغريات بالجنة ماتصل بأكل «الرمانة» إن في كل رمانة «حبة» واحدة «طالعة من الجنة» ولأجل الظفر بهذه الحبة وجب الحرص التام والتأني لدىٰ أكل الرمان ، واذا حصل الحرص والتأني حصل كسب في أدب الطعام ، وحصلت نظافةثياب الولد ، ولكن هذه النتائج تأتي غير مباشرة وإن كانت المقصودة في الأساس . واختيرت «الرمانة» خصوصاً لصعوبة تركيبها واحتمال وقوع الاهمال وعدم الحذر في أكلها مما هو واقع أحياناً وللاختيار الديني أساسه ، لأن الرمان من ثمار الجنة وهو مذكور في القرآن .

وهم في العادة لايرتضون لأطفالهم كثرة الحلف والقسم خاصة بالله ـ وقد يكون وراء ذلك إعلاء لشأن المقسوم به وإجلال ، وقد يكون الخوف عليهم من اليمين الكاذبة لئلا يستسهلوا الكذب والتغطية عليه ، ولئلا يصيبهم أذىٰ ينزل بهم من الله عقوبة علىٰ كذبهم وطبيعي جداً ان الآباء ، وخاصة الأمهات ، ينطلقون في ذلك عن عقيدة وحرص علىٰ أبنائهم ... ومن هذه العقيدة وهذا الحرص يطلبون الىٰ أطفالهم الّا يحلفوا كذباً وان يخوفوهم مغبة الحلف كذباً فاذا حلفوا كذباً أنزل الله بهم العقاب عاجلاً أو آجلاً . وهنا وجدت «الحوبة» ووجدالفعل شور (بتشديد الواو) يشور (وشارة كذلك اي اشارة) فإذا حلف طفل كذباً في قضية من القضاياكالسرقة أو البدء بالاعتداء أو استضعاف الضعيف الذي لاسند له (كاليتيم) او اي تقصير آخر... انزل الله به العقوبة المناسبة من مرض أو كسر أو خسارة . وهكذا ، فما يكاد ينزل عقاب

(عاجلاً أو آجلاً) حتىٰ يسارع الكبار لربط العقاب باليمين الكاذبة .
وإذا كان الاعتداء صارخاً دخل نزول العقاب في مرحلة التشفي . وماذا عند الله ؟ ماذا عنده لاحقاق الحق وإظهار الباطل ؟ عنده العقاب ينزله في المعتدي مرضاً أو كسراً أو خسارة . والعقاب - حينئذ - «حوبة» فلان المعتدى عليه أو الذي كان موضع الغيبة أو النميمة او الاختلاق ...

ويقترب العصر الحديث ... ويتعرض عدد من وسائله الىٰ التحريم (الديني) مع اختلاف - أحياناً - في الغاية . لقد كانت - فيما رأينا - تربوية في الدافع الأول اليها ، فخالطتها - فيما بعد - غايات منها المصلحة الخاصة خوفاً علىٰ مكانة أو مرتزق ، ومنها الجهل بالشيء او الخوف منه فكانت المدرسة (المكتب) حراماً ، والوظيفة حراماً ، والراتب كذلك ... ويجد «الرسم»مجاله الىٰ المدارس والتلاميذ والىٰ مخضرمين فيهم روح الشباب وربما عرق من الفن ولم يكن الطفل يدري ان الرسم «حرام» ويحدث ان يرسم له مخضرم متحرر صوراً لأشخاص من رجال ونساء ، ومن حمار وعصفور . والطفل فرح بما صار في حوزته .. ويلتقي به شاب فيه روح الشيوخ فيرهبه بأن ذلك «حرام» وأن الله تعالىٰ سيطالبه يوم القيامة بأرواح لهذه الصور من بشر وحيوان إلّا إذا سارع الىٰ تمزيقها أو حرقها . فيسارع الطفل فعلاً ، خوفاً من النار غداً . كل هذا «والرسام» غيره فكيف لو كان هو الذي رسم الانسان والحيوان أو قلد رسمها ؟

هذا مابقي في «ذاكرة» عمرهاخمس وستون سنة ، ولاشك في أن الأصل أكثر ، وفي ذاكرات الناس ممن هم اصغر أو اكبر مايزيد ، ويضيف ويجدر ذكره ... أوتعليله . والتعليل - بالطبع متأخر جداً عن الظاهرة بمعنىٰ ان «القوم» كانوا يخوفون أطفالهم ويطمعونهم وكأن الأقوال والأعمال المطلوبة نهائية في نفسها صحيحة كما هي ، فمعنىٰ

أن الشيطان يأكل مع من لم «يسم» أن الشيطان يأكل مع من لم «يسم» ؛ وأن حبة واحدة في كل رمانة حبة من الجنة ، حبة واحدة في كل رمانة حبة من الجنة .. وهكذا ... ولا جدال .

واذ نقول : التعليل متأخر ، اي انه منا نحن وقد كبرنا و«تثقفنا» وشرعنا ننظر في بواعث الأشياء ودوافع الظواهر .. وإذا كان تعليلنا متأخراً في الزمن ، وهو متأخر فعلاً ، فانه لابد من أن يكون متقدماً جداً ، لدىٰ البدء ثم ضاع في مطاوي النسيان أو الجهل أو التحول الىٰ عادة وتقليد .

ويبقىٰ السؤال عن جدوىٰ التخويف والتطميع ؟ وكم تبقىٰ الظاهرة في نفس الانسان ؟ والىٰ أي مدىٰ يتوارثها ؟ وفي أية «عائلة» تكثر ؟ ثم كم بقي منها في أيامنا وأين ؟

وكم فيها من الدين الذي في اصوله وفروعه وكم هو الدخيل علىٰ الدين الذي استحال خرافة ؟ تلك ، وأمثالها ، أسئلة يعاني الأجوبه عنها المختصون في أبوابها .

مجلة التراث الشعبي ، بغداد ، العدد الفصلي الرابع ١٩٨٥ .

ثلاث خطرات



١ـ اصدقاء متحضرون

الزمن : عهد من الطفولة او الصبا ، لاني ربما كنت في صفوف غير متقدمة من المدرسة الايتدائية ، وكنا اذا انتهىٰ الدوام وبقي فائضٌ من الوقت نلتقي في الشارع من المحلة ، ونلعب في الشارع كذلك وربما انتهىٰ اللقاء أو اللعب الىٰ عراك ، وانتهىٰ عراك الاطفال الىٰ عراك الكبار ، وهذا بالطبع غير صحيح ولكنه كان يقع .. اما تجنبه فيقتضي قدراً كبيراً من ضبط الاعصاب ، ولا يتهيأ ضبط الاعصاب الا لمن ينظر الىٰ االاحوال بعين العقل وبسلوك الخلق ، فاذا نظر كذلك فهو المتحضر الحقيقي ، ولا تعدمه في الصغار والكبار .. وقد شهدته شهادة فعلية لحادث اتذكره اليوم بعد مرور اكثر من نصف قرن عليه من النسيان التام ..

كنا نلتقي ، وكنا نمزح ، ولم اكن اعتدائياً بأية حال من الاحوال ، وكان فيصل متربياً تربية جيدة وعلىٰ سلوك حسن ، ولكنه لايأنف من العراك اذا دعا الداعي وهو في اوج الحق وعلىٰ اقصىٰ الضرورة ...

وفي لحظة من لحظات المزح دفعته فآندفع فسقط أرضاً علىٰ ظهره فشكا الماً في يده فإذا بها مكسورة . فدهشت كيف تم ذاك وان اكون انا الفاعل ، اما هو فلم يقل شيئاً ، ومضىٰ الىٰ اهله حيث اجرىٰ له الاسعاف اللازم ...

وكان عشر معشار هذا يكفي لعراك الوالدين والوالدات .. ولكنه ـ هنا ـ بعشرة اعشاره لم يعكر ذرة من صفو الصداقة .

ظهر فيصل في اليوم الثاني وقد علق يده برقبته وتقدم مني شأنه في السابق دون كلام او عتاب وكأن شيئاً لم يحدث ..

ومر أبوه فخجلت من نفسي تواريت عنه ولكنه مضىٰ علىٰ سمته وعادته ... وسلم علىٰ والدي وكأنه جاء ليزيل مايمكن ان يكون داخل نفس والدي عليَّ او عليه ... وهذا الذي حصل قائلاً : «انني اعرفكم واعرف الولد ، والذي جرىٰ كان يمكن أن يجري» وانتهىٰ الأمر ولم يتعكر الصفاء ذرة .

تذكرت هذا ، اليوم ، اليوم فقط حين طالبت «اليرموك» مني ثلاث خطرات ، بينها مايرجع الىٰ تجربة خاصة ، فكان الخاطرة الاولىٰ ، وكان تعليله : العامل الحضاري الحقيقي ...

٢ ـ طريق الادب ... ليس سهلاً ...

الادب الحق في ابداعه شعراً او نثراً ... او فكراً او نقداً او دراسة .. والامر طبيعي شأن اي امر يطلب علىٰ حقيقته او اصوله ، وعلىٰ كماله او مايقرب من كماله . شأن اي امر ، مع تميز خاص يتصل بطبيعته الخاصة وأسمح لنفسي بأن اقصد في ذلك الىٰ «الموهبة» واذا كانت هذه كأسمها «هبة» تتهيأ لفلان ولا تتهيأ لفلان ، وتحصل ولكن لقلة في العدد وتفاوت من الزمن ، اذا كانت كذلك ، وهي كذلك ، فهي مبدأ الصعوبة قدرما هي مبدأ السهولة . لانك بعد ذلك تجرب وتتعلم وتحفظ وتقرأ تتدرب وتستمع الىٰ النصح المناسب .. وتألف اعلام النبوغ وخوالد النصوص والطريق طويل .. ولكن لابد من قطعه والصبر علىٰ مكارهه ، ولتكن المكاره في سبيل الغاية محببة ، والا خنت

الموهبة ولعبت بمصيرك وعبثت بمقدرتك . اجل انك اذا تعجلت لم تقدم الثمر الا فجا ، وليس بثمر ماكان فجا ، واذا حسبت القليل الذي تقدمه كثيراً خاب مسعاك وركبك الضلال . واذا كان للثمر من النبات امد لنضجه ، وان علىٰ الفلاح ان ينتظر ذلك الامد بتؤده ، وان يخدم الشجرة بما يلزم من ماء وهواء وحرارة .. فالاولىٰ بالثمرة الادبية ان توفر لها الشروط ، وان تخدم طويلاً ولا تقدم الا بعد ان تكتمل لوناً وطعماً ..

هكذا فعل الادباء الكبار منذ ان كان على الارض ادباء كبار وعلىٰ ايه ارض كانوا من الشرق والغرب اتريد ان اذكرك بأبي تمام وما تعلم وما جرب وما عانىٰ ام بالمتنبي وما قرأ وطمح وحل وارتحل ... أم بشوقي والجواهري ... ومثل الشعراء الكبار الكتاب الكبار .. ومثل العرب غير العرب .

ولو قرأت عن حياة تولستوي لقرأت عجباً ، ولو عرفت فكتور هيجو لعرفت مالم تعرف .. واعرف مثل ذلك عن روسو وبالزاك وعن امثالهما من كل بلد اوربي ولنذكر مثلاً كَوته ، مثلا فقط ..

تعلم وصبر ومثابرة وتجربة .. واناة في الكتابة وسهر علىٰ التهذيب ولم يصيروا علىٰ ماصاروا عليه بغير ذاك وبغير مثابرة ، والا لما صاروا ! فاذا أنست في نفسك ميلا طبيعياً الىٰ الادب فاهلاً وسهلاً علىٰ ان تضع احتمال اقصىٰ الصعوبة في اول حسابك من اجل اقصىٰ السهولة .

٣ ـ هل العالم المتحضر متحضر ؟

واعتدنا ان نرىٰ العالم المتحضر في اوربا وامريكا ، وللاعتياد هذا اسبابه ودواعيه فلقد بلغ اهل هاتين القارتين من القراءة والكتابة اقصاهما ، وبلغوا من الزراعة والصناعة .. ومن العمارة والطرق

ووسائل النقل .. ومن كل مظهر من مظاهر الحياة مالا يسامته التصور ـ والامر معروف واختراعاتهم مدهشة واننا ازاءهم لفي ضربه من الشعور بالنقص ونقرن برخائهم المادي رخاء روحياً ، فنراهم المثل في الاخلاق والمعاملة ، ولايكذبون ولايغشون ولا يمارون .. وانما الفرد منهم ـ صادق ، راق ، مهذب ...

وقد يكون شيء من هذا صحيحاً .. ولكن ليس الشيء كله ولا الصحة كلها .. واقول هذا عن علم وتجربة ومعاناة ... وبقصد من اقرار حقيقة تنبيها لحسني الظن وحرصاً علىٰ المتحضرين انفسهم ليكونوا متحضرين بمعنىٰ الكلمة ... متحضرين ولهم الاختراعات .. والجامعات .. والفلاسفة .. ولا نختلف في ذلك ، ولكنهم دون مانتصورهم او مانريده لهم ، ثم انهم مرهقون في حياتهم واذا كان الارهاق قضية تخصهم فالذي يخصنا ان يخلو مجتمعهم من الكذب ولكننا نريد له ان يخلو .. ليكونوا لنا قدرة اقل تقديراً .

واذا كان المتحضرون من الافراد غير قليلين ، لاسيما في اقطار معينة لدىٰ التعامل الفردي مع افرادهم ... فإن ذلك غير كاف .. وما قيمته اذا لم تحسن دولهم المعاملة ولم تعرف الأريحية والصدق والصراحة والانسانية ..

اجل .. هم متحضرون باللفظ ولكنهم ليسوا كذلك في مدلول اللفظ ... أعرفت الذي اريد اليه ؟ احسبك كذلك ، ومن هنا فأختصر ، واذكر فقط تاريخهم في الاستعمار ، وتأريخهم في الحروب ، وتخطيطهم اللئيم الخبيث في بقائهم سادة مستغلين علىٰ حساب شعوب يرونها غير متحضرة فيزيدونهم جهلاً علىٰ جهل ، ويدخلون اليهم معارك فوق معاركهم ، ويمضون يغررون ويضللون ويجهّلون ويعبثون ..

لاالشيء الا ليكسبوا باطلاً ويأكلوا سحتاً ويؤسسوا ظلماً ويمكنك ان تكمل القائمة وقد عرفت القصد ، والقصد ان نعرف نحن ويعرف

المتحضرون انفسهم انهم ليسوا متحضرين .. ولن يكونوا متحضرين حقيقة ما لم يترفعوا عن الحروب ، وينزهوا سياستهم عن الابتزاز ويعملوا مخلصين للأخذ بأيدي من لم يروهم متحضرين .. من طيبي البشر في كل مكان من أفريقية وآسية .. ومن يسمونهم بالشعوب النامية ويقصدون المتخلفة .. وهم من أسباب التخلف وزيادة التخلف ...

الا ان بالعالم المتحضر حاجة ماسة الىٰ حضارة ، وليعلم ذلك جيداً طيبو البشر في كل بقعة من افريقية وآسية ..

ان المتحضر هو الذي يأخذ بيد أخيه الانسان ، لاالذي يكسر اليد ليصول ويجول كما يهوىٰ له الاستغلال وكما يملي عليه الباطل وكما تخالط الحقارة الحضارة !!!

نشرت بجريدة اليرموك «الاسبوعية» بعنوان : آراء حرة ١٩٨٥/١٢/٢٩ .



الخطوة الثانية ...



هي «كتابات» شباب ،. اذا وشباب جداً ان لم نقل : فتيان ، وان الصفحة من الجريدة فتحت لتشجيعهم بشرط ألّا تبالغ في التشجيع وبشرط أن يكون التشجيع قائماً على اساس لدى الاصابة ، والا تقتصر عليه لدى حالات من الضعف او الوهن او المفهوم الخطأ او جهل النفس ـ وهذا هو الطبيعي في الموقف .

لقد قرأت من الامثلة التي وردت في الصفحة مايحتمل هذا وذاك ، وقرأت في كلمات «المحرر» مادل على ذاك وهذا ..

وبين يدي الآن خمسة نصوص ، سمها ماشئت من شعر حر او قصائد او مقطوعات وغير ذلك .. على ان يبقى المقصود الاول منها : الانشاء الذي يرمي صاحبه من ورائه الى الابداع والى ان يصنف مع الشعراء . ولابأس فليس الابداع وقفاً على الشيوخ ، وليس الشعر وقفاً على شكل دون شكل . اقول هذا وانا اقرأ «الخطوة الثانية» فأقرأ شعراً قلماً وقعت على نظيره في ايامنا الأخيرة لشعراء واصلين لهم اسمهم بين ذويهم ، اقرأ وأرى حساً فنياً قلما دل عليه كثيرون ممن يزاولون الشعر او يدعون ويحققون بأصرارهم غير المشروع على المزاولة والادعاء مكاسب مختلفة معنوية ومادية .

وهاهي ذي «الخطوة الثانية» ، فأين الخطوة الاولى ؟! لقد تركها الشاعر لك ، ايها القارىء تتصورها ، فأنت ايضاً شاعر بوجه من

الوجوه ، ولو لم تكن كذلك لما توجه اليك صاحب «الخطوة الثانية» . اما اذا خيبت ظنه وبدوت متزمتاً تتمسك بالقشور فافسح الطريق لغيرك واسلك سبيلاً ترتضيها انت لنفسك ، ويرتضيها هو لك .

لقد اتىٰ الشاعر عملاً في حالة ضعف ، فأسف عليه وحسبه غلطاً وسوء تصرف بعد ان مرت التجربة التي ظلت تعتمل في نفسه وتتضخم حتى خيلت له انه ارتكبت جريمة ظلت تثقل على نفسه وضميره ووجودد داعية الىٰ فتح كوة اللفظ ازاءها . وفتحت الطريق فجاءت مكتملة صورة مشحونة بالشعور بالوزر دون ان تتفجر تفجيراً بركانياً خطابياً ، وانما جاءت مشحونة تنساب انسيابها في روح راق وعصب مرهف ممزوجة بالحب الصادق الذي كان قبلها وعاش بعدها .. ولولا ذاك لما كان هذا الشعور بالوزر الموشح بالندم القائم في كل ذلك علىٰ بحث دائب ، مختلط بشيء من الحيرة والقلق ، عن حل ، وعن خلاص .. وأين يجد ذلك منفذه ؟ أبالاعتراف وهو حاصل علىٰ احسن مايكون منذ ان «القت الريح اثقالها وتناءت» . وتبقىٰ المشكلة الكبرىٰ خارج الاعتراف ، في الحيرة ، ولنسمها بفعل اللفظ الذي وردت فيه : الحيرة الراقية . واذا كان الامر كذلك : اعترافاً وحيرة راقية ، فليلجأ - معتمداً عليهما ، وعليها ايضاً - اليها نفسها . اجل ، ولكنه في النمط الراقي من اللغة المناسبة للنمط الراقي من الحيرة . لايقول لها : انت ، وياحبيبتي ، ويافلانة ، ويا أملي ورجائي ، وروحي وحياتي .. تلك استعمالات استهلكت ، وهو بعد ذلك ، ولذلك ، لايطلب الجواب بنعم ولا ، ولا بعفوت و«اصطلحت» ، ورضيت ، وانما هو جواب من الرقي اللغوي علىٰ مستوىٰ الرقي العاطفي لدىٰ الطرفين : «عيناك ام رفة الدمع في هدبي» والثاني (الدمع) لم يجد ، والاول لم يحصل او انه حصل بما ضاعف الالم والحيرة ، فقد كانت العينان تقدحان شرراً بالعقاب ، فنفذ الشرر - وقل الجمر - الىٰ القلب تاركاً «الشاعر» رهن

حقيقتين هما الظلال الذي يحتويه والاستسلام الذي يملك غيره . ظلام واستسلام ، ولابد الظلام من ان يزول ، وللاستسلام ان يمضي ، فالنفس في شغل شاغل ، والحيرة طاغية ، والشعور بالاثم يتصاعد وهو - اي الشاعر - امرؤ راق ليس من شأنه الخطأ ولايريد لنفسه البقاء تحت وطأة خطأ يجر الىٰ الخطأ ... والىٰ خسارة لاتعوض ... فلا ولن يستريح مالم يتطهر من الرجس او ماحسبه رجساً . فأين ؟ وكيف ؟ وتفترق الطرق ويتأزم الموقف .. وتصفر الريح ويتقد الجمر . وهو هو في بؤ سه وطيبته ، وهي هي بعيدة عنه ، فقد «توارت» ولم يعد يرىٰ «دربأ تجيىء منه» . فما العمل ؟ ليس معقولاً - اذا وضعنا العقل محل العاطفة - ان يداوي الداء بالداء ، فيتسلىٰ عن السابقة بلاحقة . ليس معقولاً ، لانه لو كان ذلك حلاً لما بقي البيتان - المقطعان الاولان علىٰ حرارة الحب القديم ، ولحل محله الحقد والكراهية والانتقام ، والتجأ الشاعر الىٰ التسويغ و«التبرير» . ليس معقولاً ، وتجد من يرىٰ في غير المعقول معقولاً ويرىٰ في البيت - المقطع الثالث «امرأة» ثانية تعوضه هي عن الاولىٰ ولايعيد هو معها الغلطة التي وعظته الايام بها . يمكن ان تلاقي من يرىٰ المعقول في غير المعقول ، ولكن ما في البيتين من دلالة بقاء الحب ، وحيث الخيال بدرجة الواقع ، مايرينا انها هي هي صاحبته الاولىٰ التي بلغت من كل شيء ما تبلغه «حوريات» البحر ... فاكتفت بالذي عاقبت صاحبها به ، فهي ايضاً ، محبة لايهون عليها التفريط به ، وهي كذلك بقيت في حيرة ودرجة من درجات الشعور بالاثم لقاء الصرامة التي واجهته به - علىٰ هفوة ليست في حقيقتها غلطة او جريمة ، ولكن المشاعر الطرية تكبر الصغير و ماتزال تكبره وتكبره حتىٰ يتدخل العقل .

وقد تدخل ، والعود احمد ، وكل شيء يمكن ان يصلح ، فيعود الصفاء والنقاء وتكون الخطوة - والخطوات - الجديدة محكمة متزنة .

ولن يعود هو الىٰ الخطأ ، ولن تعود هي الىٰ مايسمح بالخطأ !!

وضعنا الشاعر لدىٰ الانتقال الىٰ البيت (المقطع) الثالث في شيء من التردد في الفهم بين معقول وغير معقول . وقد يزيد ذلك الشعر عمقاً وقوة . ولكنه يزيده غموضاً يتمنىٰ معه القارىء لو مد الشاعر خيطاً مرئياً لدىٰ الانتقال هذا ، خيطاً ولا اقول جسراً ، خيطا في كلمة او جملة او اي بيت آخر يقع قبل النهاية ليمهد لها .. بشرط ان يكون من عالم التجربة ولغة التجربة نفسها ، والا فالذي حصل خير من الذي لم يحصل . ان القصيدة تبدو عاطفة اولاً واخيراً لحال من حالات حب بين جنسين في ظرف خاص . وهي ليست نادرة ولا غريبة عن بني البشر ، ولكن النادر ـ او الغريب ـ هواللفظ الحلو . الانيق الهامس الذي صدرت به منسجمه صورة مع اختلاف هذه الحال في خصوصيتها عن حالات جميع الناس ،

. اجل ، ولك بعد ذلك ان تخرج من الخصوص او ماتصورته خصوصا الىٰ عموم خارج دائرة حب وقع بين فلان وفلانة فكان فيها فلان الشاعر ، تخرج الىٰ اي شيء يقع من الشاعر او منك فيما هو غلطة او هفوة تحسبها غلطة كبيرة فتتألم وتندم وتبحث في مسارب الندم عن سبيل الىٰ الحل المناسب ، تخرج الىٰ اي شيء من فكرة وعقيدة وانتماء او تقصير في واجب او اساءة لوالد او اخ صديق .. ومن هنا تكتسب القصيدة قوة «اضافية» جديدة .

هذا ان شئت ـ لسبب ولآخر ـ تعميم الخاص ، والا فعللك لاترىٰ موجباً الىٰ ذلك ، وان الخاص ليس زائداً علىٰ الحياة الدنيا ، وان قوة القصيدة في ذاتها ليست عابرة عرضة للوهن والعطب . ثم انك اذا استعنت علىٰ فهم قصيدة الشاعر هذه بقصائد له اخرىٰ وجدته حيث رأيته لدىٰ الخصوص ، فاذا زدت الىٰ ذلك عامل فتوة العمر ، ازددت ابتعاد عن العموم ، والعموم البعيد الذي يقتضي من صاحبه طولاً في

العمر وغزارة في التجارب وسعة في الانتماء ...

اجل ، نبقىٰ عند الخصوص .. ونعود الىٰ تأريخنا النقدي في نمط احكامه ، فنقول ان «الخطوة الثانية» عصماء ، رائعه بارعة ، واذا لم ير ابن قتيبه تحت لفظها الحلو معنىً مفيداً فهو علىٰ ضلال . واني لسعيد بقراءتها وكأني قد فزت بما يفرح . ولعلك تدري - اولاً تدري - ان الشعر عندي في محل عال ، عال جداً ، وقد طال المي لما لقي هذا الشعر علىٰ يد دعاته - وفيم القدماء والمجدون ، جداً - من هوان .

واهلاً بفيصل شاعرا تكفيه «الخطوة الثانية» وسنتحدث عنه بأنه صاحب «القت الريح» .

تكفيه مؤقتاً ، ولاتكفيه دائماً اذا اراد ان يكون شاعراً ويبقى شاعراً لايعد في «اصحاب الواحدة» وما احسبه يجهل مايلزمه لذلك من قراءة وحفظ وتدريب وتواضع من غير ضعف وثقة من غير غرور .. تلك نصائح معروفة ووصايا مدرسية . ولنا ان نزيد عليها نصيحة ليست معروفة جداً وليست مدرسية جداً هي ان يعود الىٰ «القت الريح ..» يتأملها ليجد نفسه جيداً فيها ، كيف تكون ؟ وماذا دخل من التجربة فيها ؟ الهمس واللمح والايحاء ، صفاء الديباجة وسلامة اللغة ، التأثر والتأثير ، القصد الجمالي الذي لم يبد سافرا .

يتأملها جيداً ويرى نفسه فيها لانها نجحت ، ولم تنجح الا لصلتها المباشرة بموهبته وشخصيته وتكوينه الحياتي والفني . واذا كان الامر كذلك ، فهنا مجاله الاول ، وهنا ميدانه ، وهنا اسلوبه . وليتشبث دون ان يقتل نفسه بالتشبث او ان تخنقه الشرنقة ، وانما في فسحة من امره ومدىً من قلمه ، الخطوة الثانية ، الآن ، اعلىٰ ماكتب ، فلتكن مقياساً فلاينشر ماهو دونها ، ويسعىٰ الىٰ ماهو اعلىٰ منها فأن تهيأ نظيرها او ماهو خير فلينشر والا فليكتب ويمزق ، ويمزق مايكتب حتىٰ يتهيأ الاحسن ويتحقق المطلوب ، والا فلا خير فيما لم يجيء شعراً بمعنىٰ

الكلمة ، والسكوت اولىٰ ، والتحول الىٰ عمل اخر تبعاً لنصيحة خالدة ازجاها ذات يوم «بشر بن المعمر» .

هذا الذي يقال لفيصل يقال للعشرات والمئات من الذين يملأون الساحة .. فاذا تمكنوا من مرحلة «الخطوة الثانية» .. امكن الانتقال تدرجاً وعلىٰ وجه طبيعي وبتأثير التجارب في الحياة .. الىٰ مرحلة اخرىٰ .. واخرىٰ ...

هكذا ودعنا «القت الريح ..» بمثل مااستقبلناها ، ولها في كل حال بقاء في النفس مابقيت في نفس شاعرها ، وبمقدار ما انبثقت عنه شاعراً .

ودعناها الىٰ «القصائد» الاخرىٰ ، ونقرأ .. ثم رأينا «التحرير» قد «شطب» قصائد ومقاطع لم يكن متجنياً في شطبها ، فهي نصوص ضعيفة «متكلفة» اولى ان تكون من «البدايات» التي يجب ان يحتفظ بها صاحبها لنفسه ثم ترك قصائد ومقطوعات هي خير من «المشطوبات» دون شك لكن ولاترقى بأية حال الىٰ «القت الريح» .. فالخنادق الاخرى خطابة ومباشرة ، ثم اين نحن في «ادجج خندق حبي بعينيك» هذه الاستعارة المتعبة مما كنا فيه من «الخطوة الثانية» ، ولقد جنىٰ المقطع الاول الذي وردت فيه تلك الاستعارة المتعبة علىٰ مقطعين تاليين اهون منه . وقريب من الخنادق «زيارة» مع زيادة في النثرية والمبالغة المكشوفة ولعله ارادها ان تكون صوفية فما بلغ . وقريب من «الزيارة» «سرياليات اولىٰ» و«سرياليات ثانية» مما يدخل في عهد التدريب الاولي علىٰ النظم و«الانشاء الصفي» .

اما «مقطوعات» فحلوة دون عمق ، وكأنها من تصورات الطفولة يمكن ان تتصل ثالثها نفسياً بالمقطعين الاولين من «الخطوة الثانية» . وتبقىٰ ، بعد ذلك «لقاء» وكأنها بدء يحسن ان يسمى «الخطوة الاولىٰ» علىٰ ان تبقىٰ دون «الخطوة الثانية» عمقاً في القلب وهمساً في النفس

وصورة في اللفظ ونفاذاً الىٰ القارىء .

وليس في هذه النصوص - اذا اغرت قارئاً - مايغري الناقد او مايجعله يبحث عن ابعاد وعوالم ورؤى ، وما يوقعه علىٰ ماهو كائن وما يكون .

ولايستحيل علىٰ من نظم «الخطوة الثانية» ان يأتي يوما بمثلها ، وهو مطالب بذلك ، والا فهي رمية من غير رام ، ولايغني عنها كثير غيرها دونها .

ويبقىٰ - بعد ذلك - ان فيصل عبد الوهاب حيدر علىٰ خط من الحس النقدي اذ قدم «الخطوة الثانية» . مفتاحاً لنصوصه الاخرىٰ . وهذا الحس يمكن ان يكفل له تقدماً .. كما يدفعنا للمطالبة باستغلاله دائماً لدىٰ النظم والنشر .

جريدة الثورة ١٩٨٥/٣/٥

في بابها الاسبوعي لنتاج الشباب بعنوان «ديوان الثلاثاء» وقد قدمت الى الكاتب مختارات من نظم شاب ليقول فيها رايه فكان ذلك الراي وها هو نتاج الشاب : فيصل عبد الوهاب حيدر :

الخطوة الثانية

ألقَت الريحُ اثقالَها

وَتناءت

فمنْ يحلُ الوزرَ عنّي

أعيناك

أم رفةُ الدمعِ في هُدُبي .

***

ألقت الشمسُ جمرتهَا

بين ضلعَّي

ثم توارت

فمن أي درب تجيئينَ

يامهرة النور

عيناي مُغْمضتانِ

وقلبي يشدّ إليك خُطاهْ

***

وَينادي من البحرِ موجُ
يُنادي :
تعالَ اغتسِالْ
واحْتَضنًي
أُعيدكَ أنقىٰ
أيقىٰ
أُرممُ خطْوتك الثانيهْ

الخنادق الاخرىٰ

كل يوم
أدجِّجُ خندق حبي بعينيك
ثمَّ ألوِّحُ للريحِ
ياريحُ صولي وجولي
خنادقنا بسماتُ الطفولةِ
أسيافُنا وَهجُ الخافِقينْ
***
أَتحشدُ في مقلتيكِ حنيناً
أصدّ بهِ رجفَتي
وَأذودُ العِدا عِنك
بالجمرِ أقْطفُهُ
من لَهيب اليدينْ
وَاسوِّارُ جنبيكِ
بالهدْب
والقلب
والساَعدينْ
***
يامهبَّ الحبيبْ
يانثارَ المطرْ
هاتِ صدركَ هذا الرحبْ
يدرأ الموت عني
ويطفىءُ نار التترْ

لقاء

ذاتَ يومٍ عتيقْ
كان لُقياكِ فاتحةً وابتداء الطريقْ
كان وجهك طفلاً
وعيناكِ رقراقتينِ بدمعٍ رفيقْ
***
ومشينا تفارقنا وحشةُ الدربِ
طيرين طرنا
وصرنا نجوسُ حقول القمرْ
وانحدرنا الىٰ ظلَّةٍ
بين نجمين
غادَرنا الشَكّ بالصدقِ
واستقبلتنا طفولَة كونٍ صديقْ

فرح

بَزَغتْ في الطريقْ
صارَ قلبُهُ طيراً
فحطَّ علىٰ النمحنىٰ
حَملْتهُ ، وضمَّهُ صدر لَها
حاشدُ بالفرحْ

أرق

أُغمضُ الجفْنَ والقلبَ
والجارحاتْ
لا أَنامْ
أوقظُ العينَ والقلبَ
والجارحاتْ
لاأفيقْ

براءة

نَظَر الطفلُ في ورقٍ وصُورْ
ورأىٰ قطتَّة في الصوَرْ
فتهلَّل وجهُهُ
حاول إمساكها ...
فبكىٰ

زيارة

زارني مرَّةً
وفرشتُ له الارضَ
قبَّلها ثم غابْ
زارني ثانيهْ
حلَّ في مقتلَي ونامْ
أَيقظتْهُ مشاعِلُ روحي
فوّدعني ثم غابْ
زارني ثالثهْ
حطَّ في حُجُرات الفُؤادِ
وضاقت عليهِ
فخرَّبها ثم غاب !

سرياليات أولىٰ

خَفَّ القَمرْ
لموعدٍ
جاءتهُ شَمْس
قال القَمرْ :

ـ حبيبتي ..
متىٰ نبارح المدارْ ؟
تشهقُ باللقاءِ في دار ونارْ
وعمرُنا الحزينُ يستحيلُ بسمةً
ومهرجانْ
فقالت الشمسُ :
ـ أَمسكَ الجنونْ ؟ !
والارضُ ؟ تبقىٰ في صَقيعْ ؟ !
هَمْهَمَ ثمَّ قالَ :
ـ ماذنبُ الفؤادْ ؟
يركُضُ خلفَ غيمةٍ من السَّرابْ
قالت : أفِقْ من ذلكَ السَّرابْ
فالدنيا مناضدُ تُدارْ
ونادِلون دائرونْ

سرياليات ثانية

جاء القمر
جاءت شُموسْ
حول القَمَرْ
دُرْنَ بأعجاب ، فحارْ .
عليهِ أن يخّتارَ
بين الزّهر والزهرِ
وورِدٍ ثمَّ وَرْدْ
دارَ عِراكْ
فانسلَّ من هناكْ
وغابْ .



من انا ؟



مكان الولادة الحلة (الفيحاء) تاريخها في دفتر النفوس ۱۹۲۲ وعلى ذلك جرت الاوراق الرسمية مع بحث دائب عن الحقيقة استقر على عام ۱۹۱۹ ، ومضى التعلم في «الحلة» بمراحله على يد معلمين ومدرسين فضلاء وفي طرف منهم معلم اشعرك برعاية خاصة وفي طرف اخر معلم يعاقب على غير جريمة .

اقل من سنة في التعليم الابتدائي واربع سنوات (١٩٤١ ـ١٩٤٥) في دار المعلمين العالية وسنة ونصف في التعليم الثانوي . الابتدائي اطلعه على ريف الشطرة والعالية اكرمته بثلاثة اساتذة اجلاء عظماء (البصير والراوي ومصطفى جواد) ، الثانوي في متوسطة الحلة للبنين مع المحاضرة في متوسطة البنات ثم ثانويتها زاد من ثقته بالطلبة اذا احسن اختيار مادة الدرس واجيدت طريقة تقديمها وُسلك المدرس مع الطلبته سلوك اخ اكبر صديق .

وسنة ونصف ـ بعد ذلك ـ في كلية الاداب من جامعة فؤاد الاول في القاهرة لم تزد طالبها شيئاً يذكر واذا كان لا بد فالمناسب ذكر الشيخ امين الخولي من الاساتذة ، ودار الكتب المصرية في الاتصال بعالم المخطوطات وكأنه فيما عدا ذلك يأتي الزمان على هرمه .

وخمس سنوات ونصف في كلية الاداب (السوربون) من جامعة باريس (١٩٤٨ ـ١٩٥٤) فكانت التكوين الثاني لشخصيته الادبية لم يكن

الاستشراق همه ـ منذ البدء ـ ولكنه لا ينكر فضل المسيوبلاشير في منهج البحث ، وهمه الاول : الادب الفرنسي وللانسان هناك ان يغترفه من السوربون كالماء مع اعجاب نادر بالمسيو پيپرمورو وفوائد جمة من «دبلوم الحضارة الفرنسية» وقراءات عجيبة لا تدري كيف اتسقت على هذا القدر وكيف اتسع لها الوقت ، ونزهات لاتنقطع في المكتبات العامة ومكتبات السوق والمكتبات الصناديق على ضفتي السين ـ تلك النزهات وحدها مدرسة لا تثمن فاذا اضفت اليها المسارح والصحف صارت المدرسة جامعة مديرها جان جاك روسو .

ومن كان في فرنسا دنت منه سويسرا وايطاليا وبلجيكا وهولندا وانكلترا واسبانيا . واشتد الشوق الى الوطن فحانت العودة وها هو ذا محاضر في كلية الاداب ومدرس بدار المعلمين العالية وشملت المواد دائرة واسعة قطبها «النقد الادبي» وحوله هنا وهناك : تاريخ الادب بما فيه المعلقات والاندلسي والانشاء والمطالعة والمكتبة ومنهج البحث . ورأى في مواهب الطلبة ما يدهش وتمنى لو تستثمر على الوجه المطلوب .

مع نشاط خارج الصف يتمثل مرة الانشاء الادبي ، ومرة في عضوية فعالة في مجلة المعلم الجديد ، وسكرتارية لمجلة الاستاذ ثم لمجلة كلية الاداب ثم لاتحاد الادباء العراقيين ـ وهو يستمد من الصف وخارجه عنصر ثقة تنفذ الى نفسه عن ألسن الاخرين التي قلوبهم وعقولهم ووطنيتهم .

وصدر له من مؤلفاته : الشعر العربي في العصر السلجوقي ، الابن وسبع قصص اخرى (مترجمة) لامية الطغرائي ، مقالات ـ انه الان وربما منذ ١٩٥٩ في كلية الاداب فقط وله في المطبعة «الطغرائي» وفي المعد للطبع : «في القصص العراقي المعاصر» و«محمود احمد السيد» وحصل خلال ذلك على لقب «استاذ مساعد» .

ويتعاقد للعمل في جامعة الملك سعود (الرياض) ويمضي في ذلك اكثر

من خمس سنوات (١٩٦٣ ـ١٩٦٨) صدر له خلالها «في القصص العراقي المعاصر» وألف «محمد ابن سلام وكتابه طبعات الشعراء» ونشر - في ما نشر - بحثاً عن «ابي يعقوب الحزيمي» في مجلة مجمع دمشق ، وسلسلة الملاحظات على الموسوعة العربية الميسرة في المجلة نفسها . وجمع مادة اساسا لمعجم المطبوعات العربية السعودية وتهيأت له مسودة اولى لكتاب «منهج البحث الادبي» واخرى « اللغة العربية» واطلاع كان لابد منه على ادب قطر عربي مجهول لديه كما لدى الآخرين . وحين عاد الى جامعة بغداد (مع محاضرات في جامعة المستنصرية) شرع يستعيد حقه من الترقية العلمية (استاذ مشارك فاستاذ» والتدريس في مواد الدراسات العليا والاشراف على الرسائل ... ويصدر كتبه تباعاً : محمود احمد السيد ، «تدريس اللغة العربية» [٢] «ملاحظات علىٰ الموسوعة» ، «ملاحظات علىٰ وفيات الاعيان» ، ويصدر بالاشتراك «ديوان الخريمي ، ديوان الطغرائي ، ديوان الجواهري» ، الاعمال القصصية الكاملة لمحمود احمد السيد .

وتميز بين مؤلفاته : مقدمة في «النقد الادبي» وقد جاءت «الخلاصة في مذاهب الادب الغربي» مكملة لها ، و«منهج البحث الادبي» ، ولـ«وراء الافق الادبي» مكان خاص من نفسه لطراوة احبها القراء في المقالة .

وله تحت الطبع «تحقيقات ... وتعليقات» و «كتب وملاحظات» وديوان الجعفري (بالاشتراك) ومعجم المطبوعات العربية السعودية - غير المعد للطبع وما فاته ذكره (منهج البحث في المثل السائل) لقد اطال في تعداد مؤلفاته لانها خلاصة حياته واذا نسي لدى انسياقه في سياق ذلك احالته علىٰ التقاعد فلأن التقاعد لم يقطع السلسلة فهو نعمة زادت من التوجيه لانجاز مالم ينجز والشروع بما كان يصعب الشروع فيه .

واذا كان مرتاحاً للذي رأىٰ وقال وفعل خلال مسيرة حياته الطويلة

لانه لم يخضع في ذلك لطمع او خوف فان الذي لايريحه ان ينظر فيرى انه لم يف ـ كما يلزم ـ بآمال الكرام الذي احسنوا الظن به . فعذراً للذين احسنوا الظن ، وشكراً للذين رضوا بالقليل وشكراً كذلك للذين استكملوا له تجربة الحياة بإساءتهم .

واذا كان في الناس من يضيره ان تعمل ، ففي الناس من لايستطيع الا ان يعمل . املا باليوم الموعود من الحق المطلق .

جريدة الثورة ـ باب من انا

١٩٨٥/٦/٧

عام يمضي وعام يأتي !!



قد يكون عام من الزمن قليلاً قصيراً ، ولكنه كثير طويل إذا شئت وعددت ماجرىٰ خلاله في العالم من احداث من كل نوع في السياسة والعلم والأدب لدىٰ سلبها ولدىٰ ايجابها ، وهي في سلبها ـ كما تعلم ـ أعنف وأخطر وأحقر من إيجابها !

وإذا كان العالم كله كذلك ، وكان سلب من يسمون أنفسهم متحضرين ، ومتحضرين جداً ، أكثر من إيجابهم وكان وكان ... ابتزاز وحرب واعتداء وتفرقه عنصرية ودس وتآمر وتخلف من كل نوع ؛ إذا كان العالم كذلك فمن الطبيعي أن يكون الأدب جزءاً من كل .

تقول : هذا المنطق غير صحيح ، لأن المفروض بالأدب أن يقود ، والمفروض بالادباء أن يقودوا ... ويتقدموا وبأيديهم المصابيح من قصيدة وقصة ومسرحية ومقالة ... ورأي . وتقول : المنطق الصحيح أن يتقدموا وينيروا الدياجي وأن يقولوا للمبتز إنك مبتز وللمتحضر إنك لست متحضراً ، وأن يدعوا الىٰ أن يسوغ الإنسان إنسانيته وأن تكون حضارة عشرات القرون ذات مفعول ودلالة ....

تقول ويقول ... وهذا منطق وذاك منطق ، والنتيجة واحدة لدىٰ التطبيق والعمل فكان الأدب جزءاً من كل وكان الادباء أفراداً من مجاميع ... وقد تعجب إذ تراهم الىٰ أمس القريب لم يكونوا كذلك فكان فيهم الفيلسوف الانساني والمصلح الاجتماعي والثائر والمتمرد

والرافض ... حتىٰ كدنا نضيق بما ساد الجو من معاني «الأدب للحياة» فما الذي عدا مما بدا ، كان اصحاب الشكلانية يتوارون عن الانظار خوفاً وخجلاً ، ولم ينبس نابس بالبنيوية ، أما بعد ذلك بقليل فالجهد بعيد عن الفكر ، بعيد عن الشخصية ، بعيد عن الانسان ، الجهد للاشعر واللاقصة واللاأدب ، ناهيك عن الفوضىٰ والادعاء والضفادع حتىٰ كدنا نضيق بمعنىٰ الفن للفن الذي لم يعد كما كان حين جاء بأسماء جديدة وصور جديدة ، ترىٰ كيف تبدلت الأسماء ؟ ومن بدلها ، وما هذا التهافت العالمي عليها ، ولم لبست نظرية الفن للفن لبوساً جديداً فقدت فيه ماكان لها من ايجاب ، ولم نزعت عملية الأدب للحياة حتىٰ لبوسها القديم بعد أن انتظرنا منها الأحسن والأتم والمتحد مضمونه بشكله ، وحياته بفنه ـ كيف ؟ ولماذا ؟ ومن ؟ ومتىٰ ؟ هي أربعة اسئلة لانعرف منها إلا جواب السؤال الرابع وهو المعاصرة التي نعانيها . منطقان والنتيجة واحدة ، وحين يصير الأمر كذلك وهو كذلك تتحول المقاييس من الكيفية الىٰ الكمية ومن الموهبة الىٰ الادعاء ومن الاعتزاز بالابداع الىٰ الركض وراء الدولار ومن التغريد الىٰ النهيق ومن الانسان الىٰ الحيوان ......

قد تكون هذه نظرة متشائمة مأتاها إطلالة عابرة علىٰ الحصرم الذي تزبب ، والجاهل الذي تفلسف ؛ ودافعها نظرة سريعة الىٰ أكداس من الشعر والقصص والمقالات ... لا تكاد تقع العين منها علىٰ الموهبة الصادقة والنفس الصافية والأثر الذي يخلد والفكر الذي يضيء .

قد تكون القصة خيراً من الشعر ، خيراً علىٰ قاعدة النسبة والتناسب .

وقد يكون جديراً بالشعراء أن يعيدوا النظر في أنفسهم ليروا أن النظم علىٰ الشعر الحر ليس حجة للوجود وأن التمسك بالعمود لايعنىٰ التجويد ، ومن يدري فقد يدعو داعٍ منهم الىٰ تحديد النسل !

أما المقالات المسهبة حد الهذيان أو الغامضة حد الجهل أو المضطربة التي لاأول لها ولا آخر ، أو المكرورة التي يحررها صاحبها من البدء مرة ومن الانتهاء مرة ومن الوسط مرات ... تلك اساءة لايغتفرها النوع الأدبي إذا رحب بها المحرر الأدبي ...

ويكرر الناس كلما مرو بجريدة أو مجلة أو مجلة جرائدية .. من المسؤول ؟ ويجيبون بالسؤال نفسه من المسؤول ؟

ويبقىٰ الميدان مفتوحاً علىٰ أوسع أبوابه لمن يدعي أنه القاص المجدد وأنه الشاعر المعاصر وأنه ... وأنه المفكر الأخير . المجال واسع والباب مفتوح واللسان طويل والقلم سليل والورق ذليل والفكر «سبيل» ... ومن وراء كل ذلك مكافآت ، ومقامات وخذ وهات ...

وموجة من الترجمة . وألم تطالبوا بالترجمة ؟ هاكم إياها وفي المترجمين من يجهل الجار والمجرور .

وعلىٰ ذكر الجار والمجرور تندب لغتنا الجميلة حظها على الألسن ... حين تلطم وجهها بالأقلام – وهل اللغة شرط في الأدب ؟ من قال ذلك ؟ وهل هي شرط في حياة الامة ؟ غير وارد . وهل هي شرط في المذيعة المذيع ؟ لا وأبداً ...

تلك نظرة متشائمة لايفوت صاحبها الوهدة التي انحدر اليها المسرح . وربما نسي اموراً سيحاسبه عليها ويطالبه بها المطالبون فأين النقاط على الحروف وما الأسباب التي أدت الىٰ النتائج ؟ وأين ؟ وما ؟ وكيف ؟ ومتىٰ ؟

تلك نظرة متشائمة .. مطالبة برؤية أوسع وعلم أدق .. وبقليل مشروع من التفاؤل .

أجل ، وللتفاؤل أبوابه .. في المعرض الدولي للكتاب ، وفي المهرجان المسرحي الأول (سامي عبد الحميد الملك لير) ، وفي المربد (بقاعة البحث) ، وفي كتاب آفاق ومنه الكتاب المترجم ، وفي مجلة الثقافة

الأجنبية ، وفي وعي للنهوض «بالأقلام» .. وقانون حقوق المؤلفين ، ولسنا بصدد التعداد هنا لئلا نطالب بالتعداد هناك ، ولكن لابد من مباركة نقل «الرجع البعيد» الىٰ الفرنسية واستئناف صاحبها (الاستاذ فؤاد التكرلي) النشاط القصصي حتىٰ كانت له : «ذلك النداء» . ولابد من تهنئة مخرج تساؤلات مسرحية (الدكتور عوني كرومي) بعد تهنئته علىٰ استئناف نشاطه بـ «الإنسان الطيب» ـ ان الاستئناف دليل صحة ومبعث تفاؤل . ومن الاستئناف بدء ـ قد يكون حذراً خجلاً ـ للدار الوطنية باستيراد الكتاب ...

أجل ، وليس صحيحاً أن نغلق باب التفاؤل ، وفي الجو مايشير الىٰ أن العام المقبل أحسن حظاً من سلفه حتىٰ في المنطق المتشائم الذي يدخل دائرة منتظرة من التفاؤل عندما تسوء الأحوال ، وفي الجو شيء من تنبه وعدد من المنبهين ، ثم إن للمواهب قوانينها التي ربما جهلناها أو قصرنا في كشفها : اشتدي أزمة ... !

وحين يفتح الباب قليلاً يجد مايزيد من فسحته يوسع من فتحته فقد تستأنف دائرة الشؤون الثقافية تعضيد المؤلف العراقي الجدير بالتعضيد ، وتزيد الدار الوطنية من خطوة استئنافها بأن تشمل عالماً أوسع فيه التراثي (أتعلم أم انت لاتعلم بأنك لاتجد في أسواق بغداد كلها نسخة من ديوان أبي الطيب احمد المتنبي ؟ ـ وقس علىٰ هذا الديوان أشباها ونظائر) ، وفيه الأجنبي من انكليزي وفرنسي (اتعلم الدار أنه كان في بغداد ، والىٰ وقت غير بعيد ثلاث ـ أو أربع ـ مكتبات متخصصة بالكتاب الأجنبي وأنها كانت تلبي الطالب بأسرع مانتصور ؟) .

فاذا توفر الكتاب التراثي الخالد والكتاب الأجنبي الصالح توفر عنصران لنمو الشخصية الأدبية تلحقهما عناصر اخرىٰ تذكر في الوقت المناسب .. وبين التراثي الأجنبي : الكتاب المترجم (أتذكر الدار

الوطنية أنها كانت تستورد من الكويت الشقيق حلقات سلسلة «من المسرح العالمي ؟ والسلسلة راقية كان سعر الحلقة منها ١٥٠فلساً» . ولا غنىٰ لمسرحنا الذي نطالب له بالنهوض عنها ولا لطلبة أكاديمية الفنون وطلبة معهد الفنون .. والقراء والنقاد ... ـ ومع سلسلة من المسرح العالمي : مجلة «عالم الفكر» وسعرها(٣٠٠ فلس !!) .

ومع التراثي والأجنبي والمترجم : المبدع انشاء وبحثاً . والوطن العربي واحد ، والأدب عنصر مهم في الوحدة .

وهناك أشياء صغيرة ليست هينة علىٰ من يعانيها وينظر في معانيها . اقصد غلاء الاجور في بريد المطبوعات .

وان مع الاستيراد تصديراً . أجل فلدينا مايصدر ، وما يطلب ، وعلينا أن نحسن التصدير كما نحسن الاستيراد .. ولقد عانىٰ الكتاب العراقي الجيد من الهوان ماعانىٰ ، وقد آن أوان فك إساره «فإن مع العسر يسراً» .

جريدة العراق ١٩٨٦/١/١ .



المحتوى

المقدمة

(١)



● الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ج ١، بغداد مطبعة المعارف ١٩٥٨، ج ٢. مطبعة العاني ١٩٦١ ـ ط ٢ في مجلد واحد، بيروت، دار الرائد العربي ١٩٨٤.

● الابن وسبع قصص اخرى (مختارة ومترجمة عن الفرنسية) بغداد، مطبعة اتحاد الادباء العراقيين ١٩٦٠ـ ط ٢ بغداد دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٨٦.

● لامية الطغرائي (تحقيق. تحليل. مناقشة.) بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٢

● مقالات (في النقد الادبي.... والتربية) بغداد، مطبعة اتحاد الادباء العراقيين ١٩٦٢.

●الطغرائي (حياته. شعره، لاميته) بغداد، منشورات مكتبة النهضة، مطبعة التضامن ١٩٦٣ ـ ط ٢، بيروت، دار الرائد العربي (تحت الطبع)

● في القصص العراقي المعاصر (نقد ومختارات) بيروت، المكتبة العصرية ١٩٦٧ـ معد لطبعة ثانية مزيدة

● تدريس اللغة العربية (في المدارس المتوسطة والثانوية، النجف، مطبعة النعمان ١٩٦٩)، ط٢ بعنوان اصول تدريس اللغة العربية، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٤

● محمود احمد السيد ـ رائد القصة الحديثة في العراق. بيروت، دار الاداب، ١٩٦٩ ط٢، بيروت دار الرائد العربي (معد للطبع)

● ملاحظات على الموسوعة العربية الميسرة. بغداد، مطبعة الارشاد ١٩٧٠ ـ ط ٢، بيروت، دار الرائد العربي ١٩٨٤

● منهج البحث الادبي ط ١، بغداد، مطبعة العاني ١٩٧٠، ط٢ بغداد، مطبعة اسعد ١٩٧٢، ط ٣ بغداد مطبعة اسعد ١٩٧٦، ط٤ بيروت المؤسسة العربية (كتب عليه خطأ ط٣)، ط ٥ بيروت المؤسسة ١٩٨٣، ط٦ بغداد، المكتبة العالمية ١٩٨٤، ط ٧، بغداد، المكتبة العالمية ١٩٨٦.

● ديوان الخريمي (جمع وتحقيق بالاشتراك مع محمد جبار المعيبد) بيروت، دار الكتاب الجديد ١٩٧١.

● ديوان الجواهري (جمع وتحقيق بالاشتراك مع د. ابراهيم السامرائي، د. مهدي المخزومي، رشيد بكتاش) ج ١ ـ ٧، وزارة الاعلام والثقافة، بغداد ١٩٧٣ ـ ١٩٨٠.

● ديوان الطغرائي (تحقيق بالاشتراك مع الدكتور يحيى الجبوري) بغداد، وزارة الاعلام ١٩٧٦، ط ٢، الكويت، دار القلم ١٩٨٣.

● ملاحظات على وفيات الاعيان (ط. بيروت)، بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٧٧.

● وراء الافق الادبي (مقالات)، بغداد، وزارة الاعلام ١٩٧٧.

● الاعمال القصصية الكاملة لمحمود احمد السيد (اعداد وتقديم بالاشتراك مع الدكتور عبد الاله احمد) بغداد، وزارة الثقافة والفنون ١٩٧٨.

● مقدمة في النقد الادبي ط ١، بيروت، المؤسسة العربية ١٩٧٩، ط ٢ بغداد، المكتبة العالمية ١٩٨٣.

● منهج البحث في «المثل السائر». الموصل، جامعة الموصل ١٩٨٢.

● الخلاصة في مذاهب الادب الغربي، بغداد، وزارة الثقافة والاعلام ١٩٨٣، سلسلة الموسوعة الصغيرة ١٢١، ط٢ بيروت، دار الرائد العربي ١٩٨٤.

● تحقيقات... وتعليقات. بيروت، دار الرائد العربي ١٩٨٥.

● ديوان الجعفري (صالح بن عبد الكريم - آل كاشف الغطاء - بالاشتراك مع ثائر حسن جاسم) بغداد، وزارة الثقافة والاعلام ١٩٨٦

● معجم المطبوعات العربية / المملكة العربية السعودية. جزءان، بغداد، المكتبة العالمية ١٩٨٥

● التراث والشعر الحر في الريادة العراقية - من بحوث مهرجان المربد السادس. بغداد، دار الشؤون الثقافية العامه سلسلة الشعر ومتغيرات المرحلة (٢) ١٩٨٦

● كتب... وملاحظات، بيروت - دار الرائد العربي (تحت الطبع)

● **من حديث القصة والمسرحية تحت الطبع بغداد**

● من يزيل الصدأ - حسين مردان، جمع وإعداد للطبع وتقديم - تحت الطبع ، بغداد

معد للطبع

● دره التاج من شعر ابن الحجاج - اختيار الاصطرلابي (الأسطرلابي) (تحقيق).

● محمد بن سلام وطبقات الشعراء.

● فوات المحققين.

● أشتات.

● ج. س؟

● عن الكتاب الخليجي

